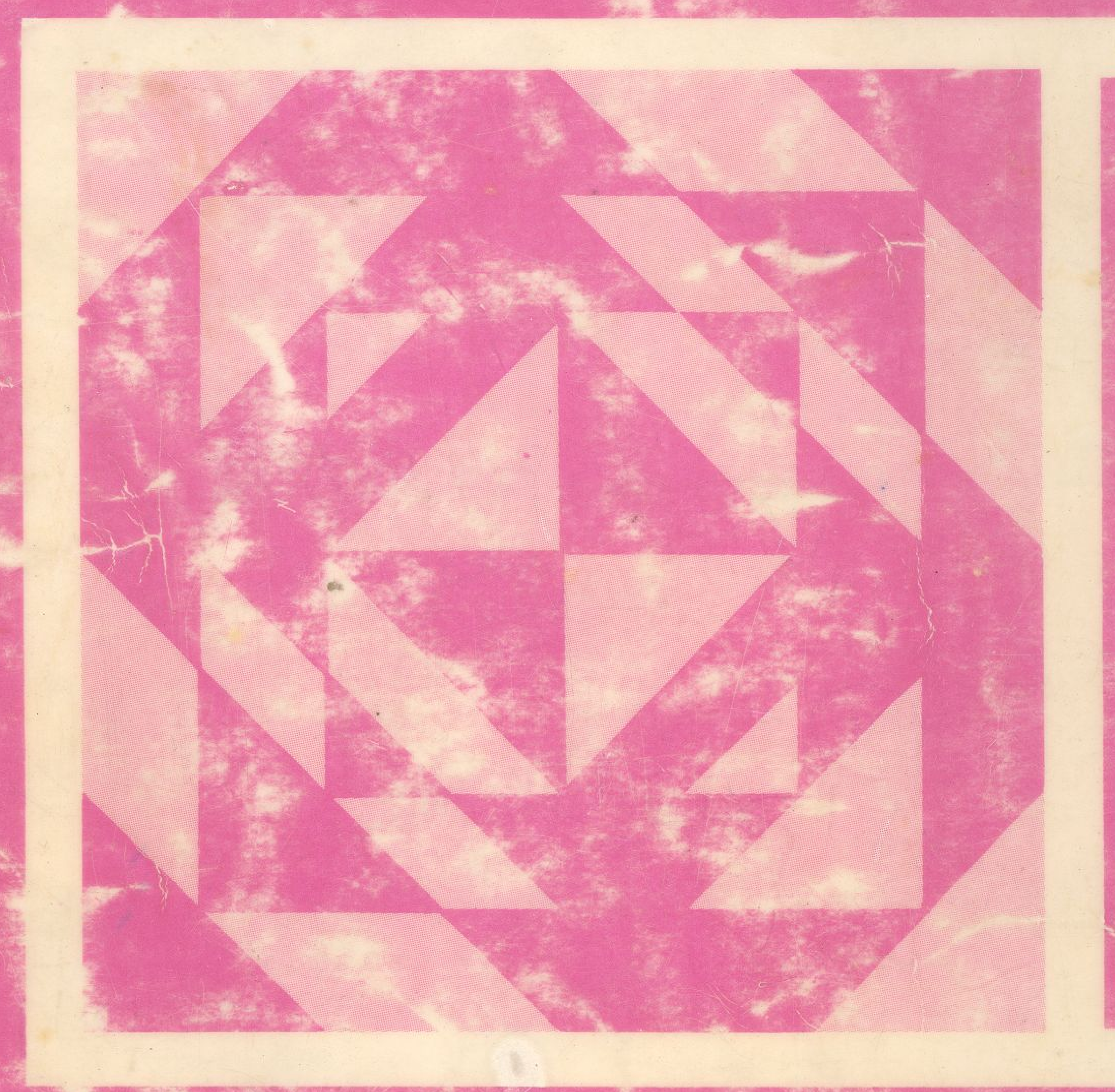
الاتصال والرأى العام

دكتور
إسماعيل على سعد
أستاذ علم الاجتماع السياسى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



الاتصال والرأي العام

الاتصال والرأى العام

الدكتور اسماعيل علي سعد
أستاذ علم الاجتماع السياسي
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

١٩٩٦

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾

صدق الله العظيم

الإهـــداء...

إلى أستاذي الدكتور محمّد عاطف غيث
الذي يستلهم جهدي علمه وتوجيهه

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بالرغم من أن مادة هذا البحث ذات صلة وثيقة بما أتصدى لمعالجته في مجال «علم الاجتماع السياسي» ، فإنني لم أكن لأفكر في تناولها هذا التناول المستقل ، لولا حوار دار ، بين أستاذي دكتور عاطف غيث وبيني ، وألهمني الفكرة . والواقع أنني مدين لهذا الحوار وأمثاله بالوجهة التي اتخذها ويتخذها جهدي .

ولا شك في أن لكل باحث في أي فرع من فروع العلوم الاجتماعية والسياسية ، ولكل مشتغل في أي من المجالات الإعلامية ، دافعاً أو آخر يحدوه إلى محاولة إستكناه واحدة من الظواهر الأساسية التي لم تكن لتتأتى للإنسان بدونها أسباب اجتماعه وتفاعله وقيام حضارته ، وهي ظاهرة «الاتصال» .

وقد شاءت الظروف أن يكون لي دوافع هؤلاء جميعاً . ففي الوقت الذي كنت أوجه جل همي فيه إلى البحث في مجالات الاجتماع والسياسة ،

أنيطت بي مهمة العمل كخبير في وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية، وعهد إلي فيما عهد إلي به آنذاك - عندما كنت أميناً للمؤتمر الأول لإذاعات الدول الإسلامية الذي انعقد في الرياض عام ١٩٧٥ - بأن أعد بحثاً حول «دعم العلاقات بين أعضاء المؤتمر لتوحيد أهداف العالم الإسلامي» .

وقد أتاح ذلك لجهدي ألا ينحصر في نطاق النظرة الفكرية في مجالات اهتمامي الأساسية وكان لزاماً عليه أن يتعدى ذلك إلى الممارسة العملية في اتجاه يتصل في القريب وفي البعيد بهذه المجالات، على نحو يوسع النظرة ويعمق الخبرة.

وعلى ذلك فقد دار أول بحث نشر لي في هذه السلسلة[1] حول ظاهرة القوة ومقوماتها ودورها في تحريك التاريخ، وهو دور لا يمكن استيعاب أبعاده بمنأى عن ظاهرة الاتصال وما يتعلق بها، على النحو الذي حاولت بيانه في نطاق منهج البحث الأول، وأحاول في هذا البحث أن ألم بجوانبه المتعددة.

ولا أحسب أنه يسع الباحث المتخصص من ناحية، أو القارىء العام من ناحية أخرى، أن يقف على المغزى الحقيقي لما مضى في أمس حضارته، أو ما يقع في يومها، فضلاً عما قد يكون من أمر غدها، دون أن تتاح له معالجة فكره وفكر غيره من خلال المفاهيم والظواهر والحقائق التي تظهر العلاقة بين أشياء قد تبدو للوهلة الأولى منبتة الصلة ببعضها البعض بالرغم من أنها تتصل أو تتكامل أو تعكس أوجهاً تتباين من حيث المظهر لشيء واحد من حيث الجوهر.

---

(١) انظر: إسماعيل علي سعد، نظرية القوة، مبحث في علم الاجتماع السياسي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٨.

ويبقى أن أرجو بعد العناء أن أكون قد وفقت إلى أن أوفي فيما أقصد إليه على غاية أو بعض غاية.

ولا يفوتني أن أذكر بالحب والتقدير الإخوة والزملاء بقسم الاجتماع الذين لمست فيهم تعاوناً صادقاً، وأخص بالذكر منهم الزميلين د. محمد بيومي ود. السيد عبد العاطي. كما أود أن أذكر بالحب والتقدير كل التقدير أخي وصديقي الأستاذ محمود آدم الذي كفاني مؤنة التقديم لهذا البحث، وتعاون معي في مراجعته بالحوار تارة وبقراءة مسائله تارة أخرى، إلى جانب ما أمدني به من مراجع كان لا بد منها لإنجاز هذا العمل.

وأسأل الله أن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

إسماعيل سعد

الاسكندرية:

٤ ربيع أول ١٣٩٩هـ.
١ فبراير ١٩٧٩ م.

تقديم

بقلم الأستاذ محمود آدم عمر

يرى إليوت T. S. Eliot أن الشاعر العظيم يتميز، فيما يتميز به، لا بقدرته على أن يبرز ما توارى من التراث وحسب، بل وقدرته على أن يستجمع، في ثنايا شعره، القدر الأكبر من شوارده.

وقد يقول قائل «مالنا وهذا في بحث لا يعنى بالشعر أو بشيء من قضاياه؟»، ولكن لهذا البحث من الخصائص ما يرجع بالذاكرة إلى نظرة «إليوت» التي تستوحي مسيرة الزمن في إيقاعها الحضاري بين ماضٍ حائل وحاضر ماثل، فهو يظهرنا على ما يشاء له صاحبه أن يظهرنا عليه من أبعاد العلاقات التي تتصل بها أسباب الحياة ومقوماتها في عمقها واتساعها، وذلك في تناول يتوخى موضوعية العلم ويستلهم لغة الشعر.

وقد قرأ صديقي د. إسماعيل علي سعد أصول هذا البحث على القلة من أصحاب الفكر والفن التي تأتلف في محبسي - إن كان لي أن أستعير واحداً من أبي العلاء - فملك عليها عقولها وأفئدتها بدقة النظر المتأملة التي

تتعدى ظواهر الأشياء إلى طبائعها وأصولها، وبرقة الكلمة المتألقة في أدائها للفكرة في مختلف أبعادها.

وإذا كان لي، بعد ذلك، أن أقدم لهذا البحث فحسبي أن أقف منه عند بعض نقاط، يدور بها ومن حولها التفصيل والتحليل في معالجة شاملة تحدد معالم العلاقة، التي لم تر من قبل إلا مجتزأة، بين «القوة والايديولوجية والاتصال والرأي العام».

فعلى حين جمعت «الغريزة» وحدها حيواناً إلى حيوان، تمثل الفارق بين الانسان وما دونه من كائنات في نشاط عقلي متميز مكنه - في اتصاله ببيئته - من أن يضيف خبرة إلى خبرة ويعي فكرة إثر فكرة. وفي ارتباط «الخبرة» و «الفكرة» تهيأت للإنسان في «الكلمة» أداة نشاطه العقلي الفردي، ووسيلة تفاعله الجمعي. ثم تمثلت في الكلمة - بعد هذه وتلك - أو انعكست فيها آثار تفاعل «قوى» الانسان في اجتماعه من ناحية، وفي تعامله مع الطبيعة من ناحية أخرى مذ بدأت له مسيرة.

دارت الحضارة - إذن - على «خبرة» و «فكرة» و «رمز»، فائتلفت الجماعات واختلفت، وتعقدت البناءات وتراكبت في علاقات قوى، تتوازن في نطاق النسق الواحد من ناحية فتحدد طبيعته وتحفظ كيانه، أو تختل فيتغير بناء القوة أو ينهار، وتتوازن مع بقية الأنساق من ناحية أخرى فتمضي كنسق مستقل، أو لا تستطيع هذا التوازن فتتقلب بين التبعية والاحتواء والتلاشي، على النحو الذي حاولت المعرفة الانسانية أن تسجله في آدابها وفنونها وعلومها في مسيرتها الطويلة من فوضى الهمجية إلى أوليجاركية النظام.

وإذا كان لنا أن ننظر إلى القوة في إطارين أساسيين شاملين، يضم أحدهما أنماطها الفيزيقية، ويضم الآخر أنماطها الفكرية - على وعي منا بالتداخل أو التكامل النسبيين بين هذه الأنماط المتباينة - فمن الممكن أن

نقول على وجه العموم إن المحتوى الفيزيقي للقوة يرتبط عادة بحيز لا يتعداه إلا إذا اختل التوازن الذي يحده في مكان أو مجال، في حين أن المحتوى الفكري للقوة ـ المتمثل في الآراء والأفكار وأنساق الأفكار ـ لا يرتبط بحيز محدد، رغم الضوابط والقيود.

وقد أصبح مجال المحتوى الفيزيقي، في صراع عالمنا المعاصر، محدوداً على خطره، بينما أوشك مجال المحتوى الفكري، في عصر يهيمن فيه «الاتصال» ووسائله أيما هيمنة، أن يحيط بالعالم على سعته. ويدل ذلك على أن المحتويين الأساسيين للقوة ـ على ما بينهما من علاقة ضبط متبادل ـ يتناسبان عكسياً من الناحية الوظيفية، مما يعين على فهم ظواهر ومفاهيم عديدة ترتبط بعصرنا الحاضر: كالحرب الباردة والحروب المحدودة والتعايش السلمي ومنع انتشار السلاح النووي والحد من الأسلحة الاستراتيجية ونزع السلاح والاستعمار الجديد والأحلاف الاقتصادية والغزو الفكري والتبعية الثقافية وصناعة الرأي وحروب الكلمات والحرب النفسية والقديم الجديد في سياسات الاستقطاب وميزان القوة، إلى غير ذلك مما يدور في مصطلح حضارة القرن العشرين.

والنظر إلى هذه الظواهر والمفاهيم في ضوء التنحي الوظيفي النسبي للشق الفيزيقي من القوة لا يعلل لها ويبين العلاقة بينها وحسب، ولكنه يظهر في الوقت نفسه التغيير الذي طرأ على دينامية القوة نتيجة لتفاعل أنماطها المختلفة[1] على النحو الذي سار بالتاريخ عبر حضارة قامت وحضارة دالت حتى بلغ ما يمكن أن يسمى على التعميم بحضارة القرن العشرين.

ويتلازم مع هذا التنحي الوظيفي ـ إذا ما حصرناه في نطاق السلاح الحديث ـ عمليات تطوير مستمرة لهذا السلاح وصلت بقدرته الممكنة إلى

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذا البحث.

حد يتيح القضاء على الحضارة وكل منجزاتها قضاء كاملاً. وهذا التناهي في القدرة يتناسب عكسياً مع إمكانية الاستخدام وطردياً مع المدلول الإشاري أو الاتصالي للسلاح في علاقة القوة العالمية المعاصرة. ويتجسد ذلك فيما يسمى بـ «ميزان الرعب النووي» وما يترتب عليه من آثار اجتماعية وسياسية وسيكولوجية، وما تذهب إليه الإيديولوجيات المهيمنة في عمليات الاتصال التي تستهدف رأي الانسان وفكره[1].

ولا ينطوي التنحي الوظيفي للشق الفيزيقي من القوة على مجرد بروز مواز له في الشق الإيديولوجي، ولكنه يحيل الإيديولوجية إلى قوة فعالة تنعكس فيها ومن خلالها كل الأنماط الأخرى للقوة، أي أن الإيديولوجية تتحول في عصرنا إلى سلاح شامل وفعال لا يقف في استهوائه للقلوب واستهدافه للعقول إلا عند حد إيديولوجية أخرى. وهذا الحد ليس جغرافياً أو قومياً بأي معنى من المعاني، وإنما ترسمه في تعقيد شديد، قدرة سياسات الاتصال على استغلال كل مقومات وجود إنسان العصر وكيانه على اختلاف بيئته وتنوع تراثه. وكيف لا وللعصر أوثان وكهان وصوامع ورهبان، العلوم مسوحهم، والفنون قلائدهم، والآداب تمائمهم.

وتوخي النظرة إلى ما حولنا بأن مسيرة التاريخ انتهت بالإنسان إلى ما يمكن أن يسمى بـ «حضارة القرن العشرين» على تعميم في القول، كما أشرنا آنفاً، وأخذاً في الاعتبار بالسمات المشتركة التي أضفتها حصيلة جهد الإنسان في مجالات علمه وفنه على وجه الحياة في شتى أرجاء هذا الكوكب، ولكن التغلغل إلى ما وراء ظاهر القسمات يظهر أن لهذه الحضارة أصولاً ضاربة الجذور في أعماق مختلفة على تباعد أو تدان.

ولئن كانت غلالة العصر الموحية باشتراك القسمات قد صاغتها

---

(١) انظر الفصل الرابع من هذا البحث.

وزخرفتها يد الإنسان الصانع في تجربته وتفننه بالغاً بحضارته ما بلغته في جانبها المادي، فإن الأصول التي تقسم العالم إلى شرق وغرب، وتفرق أبناءه بين أنماط حضارية شتى، ترتبط في الأساس بفكر الإنسان في التوائه الغالب وسوائه الآمل. وليس ثمة شك في أن النظرة إلى ما يسود الفكر المعاصر من اضطراب وصراع توحي بأن الإنسان لم يستطع في قيادته وانقياده أن يقيل عثار عقله في ترديه بين نزعاته ونزغاته، وبأن التقدم الحثيث في الجانب المادي لم يكن من شأنه إلا أن يعمق الهوة بين الإنسان والإنسان.

تلك، إذن، هي حال العالم المعاصر في انقسام قواه المهيمنة وإيديولوجياته التي توظف «الاتصال» أشمل وأتم توظيف. ولست أدري إلى متى نقف ذاهلين في هذه الحرب العوان لنسأل: «أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً»؟ وواقعنا التاريخي، الذي طال طينا لصفحته وإغفالنا لعبرته، خير شاهد على «أن لدين القيمة، أصولاً اعتقادية تقيم الإيمان على سواء الحجة في العقل والوجدان، وأحكاماً تشريعية تهيىء السبل المثلى لاجتماع الإنسان، على اختلاف المكان أو الزمان، وتتكامل هذه الأصول وتلك الأحكام لتناغم بين ما يعتمل داخل الإنسان في انفراده وما تقتضيه دواعي اجتماعه، فتقر النفوس بلا قلق أو اغتراب، وتتسق الجهود في غير ما خلل أو اضطراب، ويستطيع الإنسان أن يمضي في بناء حضارته وإثرائها في كل مستوياتها[1].

ويبقى بعد هذا العرض اللاهث أن أشير إلى أن البحث تناول هذه الجوانب جميعاً في تعددها وتعقدها بالتحليل والتعليل، في موضوعية تتوخى منطق الأشياء، فعين الظواهر وحدد المفاهيم، واستطاع بمنهج دؤوب - يجيل النظرة متعمقة في القديم، ويطيلها متأملة في الجديد - أن يرد الفروع

(١) انظر الفصل الثامن من هذا البحث.

والنهايات إلى الأصول والمقدمات. وتتيح لنا مادة هذا البحث ومنهجه، بذلك أن نلم بالكثير الذي يعمق نظرتنا إلى الواقع الذي يحيانا، ولا أقول الذي نحياه.

ولي بعد ذلك وقبله، أن أقف عند الأداة اللغوية التي استطاعت في اقتدار أن تضع مادة الفكر حيث ينبغي لها أن توضع. وصديقي د. إسماعيل علي سعد، في اكتمال مادته واقتدار أداته، باحث شاعر، أو هو شاعر باحث، إذ أن الكلمة عندي كشأنها في «الاتصال» ـ المحل الأول.

محمود آدم عمر

الاسكندرية

الثلاثاء ١٧ صفر ١٣٩٩هـ.
١٦ يناير ١٩٧٩م.

الفصل الأول

الاتصال

- تمهيد .
- مفهوم الاتصال .
- اللغة أو الاتصال .
- تكنيكات الاتصال .

تمهيد :

إن عملية الاتصال[1] بين البشر عملية أساسية نحس ونفهم من خلالها بيئتنا بما فيها من أناس ونضفي عليها وعليهم معان معينة ، ويتأتى تبعاً لذلك أن نكون قادرين على التعامل معهم أي نؤثر فيهم أو نتأثر بهم . وليس ثمة سبيل إلى هذا التأثر أو ذاك التأثير سوى عن طريق هذه العملية الأساسية : الاتصال Communication [2] .

ولا شك في أن الفرد سواء وعى ذلك أو لم يعه يشكل دائماً المحور الأساسي الذي يدور من حوله وبوساطة كل ما يتم في المجتمع الانساني من عمليات إتصالية ، ولقد يخيل لبعض الناس أنهم يدركون بالفطرة المعنى الذي نقصده حين نستخدم كلمة «اتصال» ، وقد يخيل لهم أيضاً أن جميع الناس متفقون بوعي وبغير وعي على مدلولات ثابتة للمفاهيم التي يتصورون أنها ثابتة الدلالة ، على حين أن المعرفة الانسانية تنمو دائماً وأن خبرات الأفراد تتعدل كلما مضى بهم العمر نتيجة لعمليات الاتصال .

بيد أنه من الواضح أن الناس يختلفون في المشارب وتذهب ميولهم

---

(١) انظر مفهوم الاتصال في : معجم العلوم الاجتماعية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، صفحات ٨ ـ ٩ .

(٢) Brent D. Ruben & Richard W. budd, Human Communication, New Jersey, 1975, P. 1 seq.

وأذواقهم مذاهب شتى، نتبينها إلى حد ما إذا استحضرنا في الذاكرة أموراً بسيطة كاختلاف الكتب والصحف التي نقرأها، فضلاً عن اختلاف برامج الاذاعة المسموعة أو المرئية التي نفضلها، وكذلك الأندية أو الجماعات والروابط التي ننتمي إليها، إلى غير ذلك من كل الأمور التي تظهر ما بين الناس من فوارق وتفاوت على مستويات الحياة والفكر.

هذا فيما يتعلق بما نسميه الأشياء العادية في الحياة اليومية، والذي من الواضح أن آرائنا واذواقنا تتغير وتتبدل حيالها نتيجة للكثير من عمليات الاتصال. ويتضح إذن أننا من خلال عمليات الاتصال الشخصي نكتسب ونغير من طريقتنا في الاختيار، وأننا نصل ما بين المعلومات التي نحصل عليها عن عالمنا ونقوم بتصنيفها. ولا شك أن أوجه الاختلاف فيما نختار تعكس اختلافات أساسية في الطريقة التي نحس بها الخبرات ونلاحظ ونقسم ونفسر ونقيم الأوجه المختلفة للبيئة التي نحيا فيها(١).

وليس من الصعب أن نلاحظ أن هناك اختلافات كبيرة بين الأشخاص في الطريقة التي ينظرون بها إلى الأشياء والناس في البيئة التي يعيشون فيها، وكذلك في ضروب الافتراضات والتوقعات التي يرونها حيال بعضهم البعض. والمشكلة تكمن هنا في أنه يخيل لنا أننا نعي حقائق الأشياء من الناحية النظرية بسهولة، ثم نتبين عند تطبيق ما نرى على الواقع أن الأمر بالغ الصعوبة. والمثال البسيط الدال على ذلك هو مبلغ ما نحس به من صدمة حين نتبين أن صديقاً لنا أو واحداً ممن نعرف اعتقد أننا نعني شيئاً ما على حين أننا نعرف يقيناً أننا نعني شيئاً آخر يختلف تماماً عما تصوره هذا الصديق. وكثيراً ما نتصرف على أساس أن فهمنا أو تفسيرنا للأمور هو الفهم أو التفسير الصحيح. وبقدر ما نكون عرضة للوقوع في هذا الخطأ في التصور نكون ولا

(١) Ibid., P. 2.

شك في حالة استغلاق أو عدم استجابة للمحرضات Stimuli التي تصدر عن الآخرين بقصد جعلنا نعيد النظر أو نصحح مفاهيمنا أو تفسيراتنا - أي جعلنا نغير من مواقفنا. ويتضح من هذا أننا لا نستطيع من جانبنا أن نحقق الغرض من العمليات الاتصالية ما لم نضع في اعتبارنا أولئك المتلقين Recipients الذين نوجه إليهم وسائلنا الاتصالية. ولا يمكن أن نحسن أداء الاتصال اللهم إلا بما يتأتى على نحو عشوائي، دون أن نعي ونقدر مدى استجابة هؤلاء المتلقين.

مفهوم الاتصال:

ولعلنا نستبين من الاستهلال السابق أن «الاتصال بمعناه العام والبسيط يقوم على نقل أو استقاء أو تبادل المعلومات بين أطراف مؤثرة ومتأثرة - مصادر ومتلقين على التخصيص أو التعميم - على نحو يقصد به ويترتب عليه تغيير في المواقف أو السلوك» أي أن أكثر العمليات الاتصالية قدرة على تحقيق الغرض منها هي تلك التي تربط بين المحرضات (أي الاشارات أو الرموز الاتصالية التي تهدف إلى إحداث الأثر) كماً وكيفاً، وبين قابلية الملتقي ونزوعه على ما في الانسان من جنوح الأهواء والتمركز حول الذات.

ولكي نكتشف الأبعاد التي يمكن أن يعطيها التعريف السالف الذي وضعناه، سنحاول أن نقارنه ببعض التعاريف الأخرى التي اهتدى إليها الباحثون خلال محاولاتهم إضفاء معنى معيناً على كلمة «الاتصال» بالشكل الذي يتسق مع مدلوله كظاهرة من أهم الظواهر الاجتماعية، أو بالأحرى كظاهرة يمكن أن يندرج تحتها كل الأنشطة التي يمارسها الانسان في حياته. وسنحاول قدر الطاقة أن نجعل تناولنا هذا في الحدود التي لا تجاوز كثيراً ما ينبغي للدارس أن يقف في محاولته الأولى للتعرف على مادة هذا الموضوع.

لقد عرف S. S. Stévens الاتصال على أنه: «استجابة الكائن الحي المميزة إزاء محرض»، ويرى Gary Cronkhite أن هذا التعريف مقتضب، وأنه على اقتضابه من السعة بحيث يغطي أنشطة الكائنات الحية، وليس الانسان فحسب، واكتفى «كرونكت» بأن يحصر مفهوم الاتصال في نطاق الانسان إذ قال: «إن الاتصال بين البشر يتم عندما يستجيب الانسان لرمز ما»[1].

ونتبين من هذا التعريف أن الاتصال لا يعتبر اتصالاً إلا إذا اقترن بالنجاح. وفي رأينا أن النجاح أمر نسبي قد يتحقق جزئياً أو كلياً على نحو يسهم فيه عاملان محددان هما طبيعة الانسان ومدى ثقافته. ونحن وإن كنا قد أشرنا إلى هذا النجاح ونسبته في التعريف الذي وضعناه إلا أنه لم يفتنا في الشق الأول من هذا التعريف، العملية التي يدور حولها الاتصال وهي القصد منه. وحتى يسهل فهم التعريف الذي وضعناه نشير إلى العناصر التي تنطوي عليها عملية الاتصال - كما أوزدها كرونكت - وهي:

١ - إن الاتصال الإنساني يعتمد على الرموز،
٢ - سواء أكانت على هيئة كلمات أو غير ذلك،
٣ - أحدثت بقصد أو بغير قصد،
٤ - بوساطة مصدر على وعي أو على غير وعي بما يفعل،
٥ - وتلك الرموز تحدث استجابة لدى المتلقي،
٦ - بعضها قد يكون ظاهراً وبعضها قد يكون خفياً،
٧ - وبعضها قد يكون مقصوداً وبعضها قد يكون غير مقصود،
٨ - وقد تكون هذه الاستجابات أو قد لا تكون على مستوى عال من الوعي،
٩ - وقد تكافىء، أو قد لا تكافىء، قصد المصدر،
١٠ - أو قد تكون في الحقيقة استجابة من الشخص لرمز أحدثه هو بنفسه.

(١) انظر: Gary Cronkhite, Communication and Awareness, California, 1976, P.P. 20 - 21.

ولقد فصلنا المضامين العشرة السالفة التي تنطوي عليها المحاولة الأولية لتعريف الاتصال على نحو يعكس تقريباً كل الجوانب الأساسية في الاتصال وبذلك نكون قد عرضنا أساساً نظرياً مجرداً يعين على استكناه المفهوم.

وذلك لا يعنينا في حد ذاته، وإنما القصد أن نتدرج منه إلى النظر من خلال منظور شامل إلى العملية الاجتماعية أو السياسية أو العملية الاجتماعية السياسية التي تدوز حولها مجموعة العلوم الاجتماعية عامة وعلم السياسة بوجه خاص.

فعملية الاتصال - من الناحية التاريخية والسياسية - قامت عليها الجماعة الانسانية الأولى التي خطي الانسان بوساطتها أولى خطواته على درب الحضارة الطويل. فكان الاتصال في الجماعة الأولى وسيلة الانسان في إشباع احتياجاته المباشرة قبل أن يكون له فكر يدخل في نطاق الايديولوجيات، وقبل أن يتعقد المجتمع على نحو يجعل إدارته تقوم على أساس تحقيق توازن في علاقة قوة أو علاقات قوى. ثم قطع الانسان أشواطاً أبعد في طريق الحضارة، وكبرت الجماعة الانسانية وارتبطت على أسس تطورت به من القبيلة إلى القوم، ثم إلى الدولة القومية فالدولة التي تقوم على أساس ايديولوجي. ويمكن القول في بساطة أن كل ذلك ما كان يتأتى دون مركبات بالغة التعقيد من عمليات الاتصال على مستويات شتى.

ومن الناحية الايديولوجية، نلاحظ أن فكر الانسان، وهو الفارق الأساسي بينه وبين مختلف الكائنات، بدأ بالملاحظة المباشرة لما يدور حوله، وذلك في رأينا نوع من الاتصال وانتهى عبر حلقات متصلة من التطور والتعقيد إلى أنساق أفكار بالغة التركيب يسميها الانسان بالايديولوجيات أو علوم الفكر. ونلاحظ أيضاً أن كل ذلك لم يكن ليتأتى إلا عبر مركبات معقدة من عمليات الاتصال.

اللغة والاتصال :

يتطلب بناء أية جماعة إنسانية بوحداتها وتقسيماتها المختلفة ، فضلاً عن تشكيل المفاهيم التي تسود في هذه الجماعة ، ضروباً من الاتصال . وإذا كنا نتناول الجماعة الانسانية عادة كما لو كانت بناء ثابتاً ونقوم بتعريفها على نحو تقليدي ، فإنها ولا شك تختلف عن ذلك تماماً . إذ أنها تتكون من نسيج معقد يقوم على تبادل المفاهيم بشكل جزئي أو كلي بين أعضاء الجماعات الداخلة في تكوينها على تباين في حجومها وأهميتها وقد تكون هذه الجماعة مجرد فتى وفتاة أو أسرة أو مجموعة من الأمم أو حتى الانسانية في مجموعها ، أو ـ على وجه العموم ـ ذلك الانسان الذي تستطيع «الكلمة» مقروءة أو مسموعة أن تبلغه .

وقد تبدو الجماعة الانسانية في الظاهر كما لو كانت مجرد مجموعة ثابتة من النظم الاجتماعية ، في حين أنها تتحرك وتتغير يوماً إثر يوم بفضل عمليات اتصال مستمرة تتم بين الأفراد التي تتكون منها هذه النظم .

وعلى هذا فلا يمكننا القول ـ على سبيل المثال ـ بأن حزباً بعينه يمكن أن يوصف نشاطه على نحو معين وثابت في كل وقت ، ويستبين ذلك إذا أخذنا في الاعتبار أن مجموعة من أعضائه لا يتجاوز عددها أصابع اليدين قد تجتمع ذات يوم ليتبادل أفرادها الرأي حول النقاط أو المسائل ذات الأهمية القومية في فكرة معينة ، ثم يقررون فيما بينهم تناول بعض هذه النقاط في التجمعات الأكبر للحزب . ومن ثم فإن السياسة العامة لأي حزب لا تنبني في نهاية الأمر إلا على حصيلة مجموعات الآراء التي يتناولها عادة افراد قلائل فيما بينهم على مستوى يوشك أن يكون فردياً[1] . وذلك لا يعني بالطبع أن

---

(١) يعنينا في هذا المقام أن نلفت نظر القارىء إلى دراسة «روبرت ميشلز» القيمة عن الأحزاب السياسية ، انظر:

الحزب في مجموعه لا يقوم على أساس مشترك يراعي مصالح معينة.

وباستطاعتنا توسيع دائرة هذا المثال في كل مجالات النشاط الهامة والتي يكون للاتصال مكان فيها، ويترتب على ذلك أن كل نمط ثقافي وكل سلوك اجتماعي إنما ينطوي على اتصال ضمني أو ظاهر. كما أننا نستطيع أن نفرق بين التكنيكات الأساسية (أي العمليات الأولية) ذات الطابع الاتصالي، وبين التكنيكات الثانوية التي تسهل عملية الاتصال. وقد لا يكون لهذه النظرة أهمية نفسية وإن كان لها مغزى تاريخي وسوسيولوجي، إذ أن العمليات الأساسية أو الأولية شائعة بين البشرية بأسرها، في حين أن العمليات الثانوية لا تظهر إلا في المستويات الحضارية الأكثر تقدماً.

وتعتبر كل من اللغة والاشارة من أهم العمليات الاتصالية الأولية في المجتمع، من حيث تقليد السلوك الظاهر، فضلاً عن مجموعة كبيرة من العمليات الضمنية التي لا يمكن تعريفها تعريفاً دقيقاً والتي تترتب على السلوك الواضح أو الظاهر والتي يمكننا الاشارة إليها على أنها إيحاءات اجتماعية. واللغة هي أوضح أنماط السلوك الاتصالي، ولا نحتاج إلى تعريفها هنا إلا على أنها: تتكون في كل الحالات المعروفة لنا من أداة كاملة للتعبير بالرموز الصوتية التي تتميز بالقدرة على تحديد كل المضامين الاجتماعية المعروفة والتي تشتمل على كل ما يدرك عن طريق الحس، أي كل الخبرات التي اكتسبها المجتمع عبر تاريخه.

فاللغة على هذا هي محور الاتصال الأول في كل المجتمعات سواء أكانت هذه المجتمعات لا تزال في أطوارها الأولى أم قطعت أشواطاً بعيدة على طريق الحضارة.

Robert Michels, Political Parties, A Sociological study of the oligarchical tendencies of = Modern Democracy, N.Y., The free Press, 1962.

والاشارات أو الايحاءات لا تنطوي على مجرد تحريك الأيدي أو أعضاء الجسم الأخرى فحسب . إذ أن تنغيم الصوت عند أداء الجمل قد يعبر عن المواقف والمشاعر بنفس القدر الذي قد تعبر عنه إشارة مرئية كالتلويح بقبضة اليد أو تحريك الأكتاف وتقطيب الجبين .

ومع أن نطاق الايحاءات يتداخل مع نطاق اللغة ، فإن هناك عدة حقائق نفسية وتاريخية تظهر أن هناك حدوداً معينة ولكنها ثابتة بينهما . ولنعطي مثلاً واحد على ذلك نشير إلى الفارق في المدلول بين مضمون الكلمات التي نعبر بها عن قصد معين وبين مضمون الاشارات التي قد تصحب هذه الكلمات وقد نعني بها أشياء أخرى في الوقت نفسه تتناقض مع مضمون الكلمات . وقد تكون الكلمات في هذه الحالة معبرة عما نريد إظهاره ، على حين تصدر الايحاءات على الرغم منا .

«والاتصال اللغوي بالمقارنة مع التعبير بالايحاءات هو الشكل الرسمي الذي يقره المجتمع ، ومن هنا نستطيع أن نفسر بالفطرة رموز الايحاءات غير الواعية نسبياً على أنها ذات مغزى نفسي يفوق في سياق معين مغزى الكلمات المستخدمة في حد ذاتها . وفي مثل هذه الحالات يكون هناك صراع بين الاتصالات الظاهرة والخفية في نمو الخبرات الاجتماعية للأفراد»[1] .

والشرط الأول لترابط المجتمع هو تقليد السلوك الظاهر . فهذا التقليد ، بالرغم من انعدام قصد الاتصال فيه ، له القيمة التي ينطوي عليها الاتصال ، إذ أنه في عملية الاتساق مع طرق المجتمع يوافق الفرد بالفعل على المعاني

(١) انظر اللغة والاتصال في :

The Encyclopaedia Britannica, U.S.A. Vol. 4, 1977, PP.1005 - 1015; The Encyclopaedia of the Social Sciences, The Macmillan Com. Vol. 3, 1919, PP. 78 - 80; International Encyclopaedia of Social Sciences, N.Y. Vol. 3, 1968, PP. 24 - 28.

التي تنطوي عليها هذه الطرق فإذ ما تعلم الفرد ـ على سبيل المثال ـ الذهاب إلى المسجد محتذياً في ذلك حذو أفراد المجتمع الآخرين ، فالأمر يبدو كما لو أن اتصالاً قد حدث ثم ابنى عليه تصرف أو سلوك . ووظيفة اللغة في مثل هذه الحالات هي بيان ومنطقة المحتوي الكامل لهذه الاتصالات غير الرسمية في نمو خبرات الفرد الاجتماعية .

أما الايحاءات الاجتماعية فلها طابع اتصالي أقل من السلوك الظاهر وتقليده ، إذ أنها محصلة أعمال عديدة ، ومعان جديدة أصبحت ممكنة ضمناً نتيجة لهذه الأنماط من السلوك الاجتماعي ، وعلى هذا فإن تعود بعض الناس على عدم الذهاب إلى المسجد في بعض المجتمعات ، والذي يبدو متناقضاً مع القيم الموروثة لهذه المجتمعات ، يمكن إرجاعه في الوقت نفسه إلى ما نسميه بالايحاءات الاجتماعية المترتبة على سلوك بعض أفراد هذه المجتمعات .

وأهمية الاتصالات التي لا تبدو كصيغ من صيغ المجتمع أو التي لا يعبر عنها لغوياً من الأهمية بمكان ، بحيث أن الفرد الغريب عن هذ المجتمع قد يحار في فهم بعض ضروب السلوك حتى وإن كان على دراية تامة بأشكالها الخارجية ، وبالرموز اللغوية التي تصاحب هذه الأنماط من السلوك . ويلفت ذلك نظرنا إلى أنه من وظائف الفن في المجتمع أن يجلو مثل هذه المقاصد الخفية في السلوك الاجتماعي[١] .

إن عمليات الاتصال لا تنطبق على المجتمع بهذ المفهوم فحسب ، لأنها تتنوع تنوعاً غير محدود فيما يتعلق بالشكل والمضمون ، بالنسبة للأنماط المتباينة للعلاقات الشخصية التي يقوم عليها المجتمع . وهكذا فإن أي نمط

---

(١) انظر: بدر الدين أبو غازي ، الفن في عالمنا ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٧و٨

من الأنماط الثابتة للسلوك أو الرمز اللغوي لا يمكن أن يكون له بأي حال المغزى الاتصالي نفسه في نطاق الأسرة وبين أعضاء أية جماعة من جماعات المجتمع أو في الأمة على سعتها.

وعلى وجه العموم، فإنه كلما صغر نطاق الجماعة وتعقدت المفاهيم السائدة بين أفرادها، كلما أمكن أن يكون حجم عملية الاتصال أقل. فكلمة واحدة يتبادلها أعضاء جماعة وثيقة الصلة ببعضها البعض، بالرغم من الغموض الظاهري لهذه الكلمة قد تنطوي على اتصال يفوق في دقته كماً كبيراً من الرسائل المتبادلة التي أعدت بعناية بين دولتين على سبيل المثال.

تكنيكات الاتصال:

وهناك ثلاثة أنواع من تكنيكات الاتصال تشترك في تسهيل عمليات الاتصال الأولية للمجتمع وهي:

١ ـ الوسائل اللغوية.
٢ ـ الرموز التي تعبر عن مواقف تكنيكية بعينها.
٣ ـ خلق أحوال فيزيقية تلائم عملية الاتصال.

وأحسن الأمثلة المعروفة للوسائل اللغوية هي للكتابة ومصطلحات «مورس» التلغرافية مثال آخر لهذه الوسائل اللغوية، وتشترك هاتان الوسيلتان اللغويتان بالرغم من أنها لا تتشابه مع بعضها البعض من الناحية الظاهرية، في أن تنظيمها يقوم على أساس التنظيم الرمزي الأول، الذي نشأ في نطاق الكلام، ولذلك فإنها من الناحية النفسية توسع دائرة الطابع الاتصالي للكلام بحيث يشمل مواقف يستحيل فيها الكلام لسبب أو لآخر.

وفي ظروف أخرى يلجأ إلى استخدام إشارات كالإشارات الضوئية في السكك الحديدية أو النفير في الجيوش وما إلى ذلك، وجدير بالملاحظة هنا

أن هذه الوسائل وإن كانت ظهرت في مراحل حضارية متقدمة إلا أنها أقل تعقيداً بكثير من وسائل التعبير اللغوي، وقيمتها في أنها تستخدم في مواقف يستحيل فيها استخدام وسائل التعبير اللغوي أو يكون مطلوباً فيها استثارة الاستجابة التلقائية للاتصال.

ويأتي بعد ذلك الدور الوسيط الذي تلعبه وسائل المواصلات العصرية التي يبالغ الكتاب في إضفاء الأهمية على الأدوار التي تقوم بها، ومن هذه الوسائل القطار والطائرة والمسرة وما إلى ذلك. فهي في حد ذاتها لا تمثل قيماً اتصالية ذات مدلول، وإنما تكّون بمثابة الناقلات التي يتهيأ من خلالها تسهيل نقل رسائل الاتصال. والفارق واضح تماماً بينها وبين اللغة من ناحية وبين الرموز التي يضفي عليها الانسان قيماً تعبيرية معينة مثل إشارات الأضواء أو أصوات النفير التي أسلفنا ذكرها، من ناحية أخرى. وتنحصر قيمة هذه الوسائل في أنها وسعت دائرة الاتصال من نطاق الجماعة أو المجتمع الصغير إلى دائرة العالم بأسره. وذلك ولا شك له مغزاه في نقل الخصائص الحضارية وتوسيع دوائر المجالات الثقافية.

وتبقى اللغة بعد ذلك كله ومع وسائل النشر المتقدمة في حضارتنا المعاصرة هي أقوى وأهم وسيلة اتصال. وهي من الأهمية والأثر بحيث يستحيل حصر الدور الذي لعبته وتلعبه في تقدم البشرية.

إن تعدد وتنوع الوسائل التي أصبح الاتصال ممكناً بوساطتها في العصر الحديث ينطوي على أمرين هامين:

فمن الناحية النفسية يمكن القول بأن العالم كله تحول إلى مجال نفسي أشبه بالمجال الأول الذي نشأ فيه المجتمع الانساني أي القبيلة. ومن الناحية الجغرافية أصبحت أطراف الأرض المتباعدة متدانية إلى حد يمكن أن نلحظ فيه أن بعض البلدان المتباعدة ارتبطت حضارياً على نحو قد لا يتهيأ

لبلدان متجاورة يرى من وجهة النظر التاريخية أنها قد ترتبط في وجه أو آخر من أوجه التراث الإنساني. وذلك يعني أنـه ينبغـي أن ننظـر إلى العالـم أو نعيد رسم خرطه على أساس اجتماعي ونفسي. وذلك يعني أن الـكيان العلمـي المتبعثر في أرجاء العالم المختلفة يمكن النظر إليه على أساس أنـه وحـدة واحدة بالرغم من أنه لا يقع في نطاق جغرافي واحد[1]. وينطوي ذلك أيضاً على أنـه في المـدى البعيد لا بد وأن تختلف مفـاهيم الاتصـال الشخصـي والطبقي والمجتمعي. هذا ويدفع العالـم بمعيار حضـاري أو ثقافـي ثمـن السهولة التي استطاع تحقيقها في مجالات الاتصال، إذ أصبح من المتعذر التحكم في أثر الاتصال وضبطه في نطاق الدائرة المقصود إحداث هذا الأثر فيها.

ومن ناحية أخرى قد يكون لذلك آثار سلبية في المجـالات الواسعـة للآداب والفنون إذا ما عمد بعض المشتغلين فيها إلي الاستجابة للرغبـات الواسعة هنا وهناك. وقد يكون لذلك أيضاً أثره البالـغ الـذي يترتـب علـى عمليات الإعلام التي يقصد بها إحداث آثار معينة في مجتمعات قد تناهض أنماط الفكر التي تطرحها مجتمعات أخرى، مما حدا أو يحدو بالانسان إلى أن يستنبط وسائـل جديدة لعرقلـة الاتصـال علـى المسـتويات المحلية والمستويات الأكثر اتساعاً. وقد نرى ضروباً لذلك في الرقابة التي تفـرض على الكلمة المطبوعة سواء أكانت كتاباً أو صحيفة أو غير ذلك، وكذلك نظم التشويش الإذاعي.

---

(١) ولنا أن نلاحظ هنا أن وحدة هذا الكيان أوشكت أن تكون ملازمة لمسيرة البشرية عبر القرون، ولم تبدأ عوامل التفتت تعتريها إلا في الحقب المتأخرة نتيجة للصراع الحاد بين الإيديولوجيات، التي تحاول ان تضفي كل منها على نفسها غلالات تنأى بها عن الإيديولوجيات الأخرى من ناحية، ونتيجة للقيود التي يحاول الإنسان تبعاً لذلك ان يفرضها على ما يتيحه له الاتصال في العصر الحديث من فرص من ناحية أخرى، كما سيتبين من سياق هذا الكتاب.

ولعلنا نستخلص مما أسلفناه أن اللغات القومية سوف تتعرض لمخاطر شديدة في المدى الطويل. فهناك في العالم العديد من اللغات وقد أدى ذلك إلى بذل جهد كبير في مجالات الترجمة لتسهيل عمليات الاتصال على مختلف المستويات محلية وعالمية. وقد تضطر البشرية إلى أن تتخذ لغة واحدة على نطاق المجتمع العالمي بأسره كالانجليزية أو «الاسبرانتو»[1] مثلاً كقناة اتصالية لتبادل الأفكار. وأثر ذلك على التراث القومي للشعوب وعلى الآداب بوجه خاص سيكون ولا شك سلبياً للغاية.

---

(١) انظر: الملحق الأول في الملاحق العربية.

الفصل الثاني

بناء القوة في المجتمع والاتصال

- تمهيد .
- مفهوم القوة وبناؤها .
- تعريف القوة .
- القوة والاتصال .
- التلازم بين القوة والاتصال .
- التأثير المتبادل بين الايديولوجية والاتصال .
- خلاصة .

تمهيد :

إن الموضوع الرئيسي الذي يدور حوله هذا البحث هو الاتصال والرأي العام، والصلة العضوية بينهما وأثرها في بناء القوة في المجتمع. وبالرغم من أنه يحق لنا أن نفترض أن دارس هذه الصفحات له دراية أو بعض دراية بأساسيات علم الاجتماع السياسي، إلا أننا نرى أنه من المفيد أن نعرض في اقتضاب للمفهوم الأساسي للقوة وبنائها في المجتمع، ونرجو أن نستميح علماء الاجتماع عذراً في أننا لم نقل «المفهوم الأساسي لبناء المجتمع»، إذ أن ذلك في نظرنا لا يعدو أن يكون ظاهرة مترتبة على وجود القوة وعلاقاتها وممارستها التي يقوم على أساسها المجتمع.

وقيامنا بهذا العرض المقتضب يستمد أهميته من ضرورة إبراز التكامل بين أشياء ثلاثة قد تقيم النظرة العابرة فواصل عديدة بين بعضها البعض، وتبدي النظرة المتعمقة ما بينها من ارتباط قد يصل بها إلى نطاق التداخل والاتحاد، وهذه الأشياء الثلاثة هي: القوة والاتصال والرأي العام.

مفهوم القوة وبناؤها(*):

إن مطلب القوة ـ من الناحية النفسية وعبر التاريخ ـ يمثل دافعاً داخلياً

(*) انظر المناقشة والعرض التفصيلي لهذا الموضوع في د. إسماعيل علي سعد، نظرية القوة، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٧٨، الفصل الثاني والرابع.

للانسان. فالقوة تكمن في الرغبة في حفظ الذات. وتتطلب هذه الرغبة من أجل بلوغ ما تريد إرضاء الحاجات الهيدونية إلى أقصى حد ممكن وإنقاص الحرمان إلى أقصى حد ممكن. والأنا عند الانسان لا يتطلب مجرد المحافظة عليه، ولكنه يريد أيضاً أن يؤكد ذاته عن طريق التأثير والسيطرة على الآخرين، وبذلك يشبع النزوع الأناني للمكانة الآمرة والاحترام واعتراف الآخرين به[1]. ويؤكد «هبز» هذا المعنى في قوله: «ففي المقام الأول أضع في صورة ميل أو نزوع عام يعم البشرية، رغبة دائمة وقلقة في احتياز القوة بعد القوة، على نحو لا ينقطع إلا عند الموت... لأن الانسان لا يستطيع التأكد من القوة والموارد اللازمة ليعيش عيشاً حسناً دون احتياز المزيد»[2]. والتاريخ الانساني كله مصداق لهذا النزوع بشكل أو آخر. فإذا ما تناولنا - على سبيل المثال - ما يسمى في المصطلح التاريخي بالنظام القديم Old Regime نجد أنه عندما آذنت القرون الوسطى بانتهاء، حلت حكومات قومية يرأسها ملوك محل حكومات النظام الاقطاعي المحلية الصغيرة. ولقد عمل الملوك على زيادة قوتهم بالتدريج إذ أنهم كانوا بادىء الأمر ضعفاء غير آمنين، وذلك عندما قويت الحكومات القومية وازداد ضعف النبلاء وقل نفوذهم.

وقد أدى نمو القوة القومية والملكية في بادىء الأمر إلى تحقيق أمن وعدالة وفرصة أكبر للمواطن العادي، الذي أسعده أن يتحرر من مظالم النبلاء. غير أن هذا الاتجاه بولغ فيه. فقد أصبح بعض الملوك أقوى مما يجب - حكاماً مطلقين غير مسئولين أمام أحد، بل اعتقدوا بالفعل أنهم يتلقون

---

(١) انظر:

V. P. Varma, political philosophy, India: Agra, 1970, p. 410.

(٢) البان ج ويدجري، التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس الى توينبي، ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢. ص١٣٥.

سلطانهم من ، الله ، مباشرة وأنه كان من الخطيئة أن يناقش أي من رعاياهم أفعالهم وأهواءهم ، وعرف هذا المبدأ ، بالحق الإلهي للملوك . ومن ثم فقد ساد الاعتقاد بأنه يجب أن يطاع الحاكم لأنه اختير بوساطة السلطة الآلهية ، فطاعـه الحـاكم إن هي إلا طاعـة للقـوانين الآلهية ، ووجـد هؤلاء الـذين يعضدون الحق الآلهي للملوك حجتهم في «العهد الجديد» الذي ينص على أنه :

«لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة . لأنـه ليس سلطـان إلا من الله والسلاطين الكائنة هي مرتبة من الله . حتى أن من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة»[1] .

ولقد مرت معظم البلدان بفترة خضعت فيها لأعداد متتالية من الملوك أو الحكام المطلقين ، الذين كان يعينهم فيها النبلاء الوصـوليون المتزلفـون ، والوزراء الطامحون ، ورجال الدين المتعاونون الذين كانوا يرغبون في أن يعطوا العون الديني في مقابل مساعدة الملك لهم[2] ويشار في العادة إلـى هذه الجماعة المحكمة الصلة وذات القوة على أنها تشكل بناء القوةPower Structure في المجتمع ، الذي يمكن أن يتباين من مجتمع إلى آخر ومن جيل إلى جيل آخر عبر التاريخ . فبناء القوة يتعرض على الدوام لتغير مستمر، قد يكون من أسبابه هزات أو اضطرابات تحدث في قاعدة البناء . وينتج هذا التغير في معظـم الأحيان ، كمـا تدل الشواهـد التـاريخية ، علـى عمليات اجتماعية تكون سبباً مباشراً أو غير مباشر في تغير الظروف والأحـوال التـي تمكن فئة أو جماعة أو طبقة اجتماعية معينة من السيطرة على الآخرين أو على

(١) الكتاب المقدس ، العهد الجديد ، رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية ، الأصحاح الثالث عشر ، الآيات ١ ـ ٢ .

(٢) John Van D. Southworth, The Story of the World, N. Y. Pocket Books, Inc. 1954, P. 257.

باقي الجماعات داخل المجتمع . وقد تكون هذه العملية اقتصادية أو تكنولوجية أو ثقافية أو إحدى العمليات الاجتماعية التي تؤثر على بناء القوة في المجتمع . ونلاحظ في هذا أن كل هذه التغييرات لا يمكن أن تنتقل إلى الواقع الفعلي إلا من خلال مركب بالغ التعقيد من عمليات الاتصال التي قد تنبثق في بادىء الأمر إما عن احتكار للسلطة أو تعبر على ردود أفعال تحدث بالتراكم أثرها الذي يتمثل في وجه أو آخر من وجوه التغيير على مستوياته المختلفة .

ولما كان التاريخ هو وعاء الخبرة البشرية فهو يعتبر السجل الخاص بالجهود البشرية أو هو المحاولة التي تستهدف الإجابة على الأسئلة التي تتعلق بجهود البشرية في الماضي وتستشف منها جهود المستقبل . والتاريخ بهذا المعنى يتحول إلى علم له أصوله . بحيث أن العلم هو الكشف عن طبيعة الأشياء ثم تصنيفها وتبويبها وإصدار الأحكام عليها .

ولما كان التاريخ كفرع من فروع العلوم يتطلب البحث عن التفاصيل فإنه يتطلب أيضاً توسيع الرؤية بحيث يستطيع الباحث أو المؤرخ أن يرى النقاط المحورية التي يدور حولها تطور البناءات الاجتماعية أو بمعنى أدق تطور بناءات القوة في المجتمع .

ولكن ما هو بناء القوة؟

هناك شبه اتفاق بين علماء الاجتماع السياسي على أن بناء القوة هو: «ذلك النمط الذي يتوزع به النفوذ بين الأشخاص والنظم والتنظيمات والأفكار داخل المجتمع»[1] . والقوة تمثل في حقيقتها ظاهرة عامة في المجتمعات الإنسانية . وهي تقع في جميع القطاعات النظامية داخل المجتمع .

---

(1) J. Dunner (ed), Dictionary of Political science, London: Vision Press, 1965, P. 423.

فهي توجد كامنة في الروابط والمجتمع غير النظامي ولا تتحول إلى قوة نظامية وسلطة إلا في التنظيم الرسمي.

أما القوة في التنظيم غير الرسمي فهي تصدر عن أو تعتمد على المكانة الاجتماعية. إذ يتفاعل الأفراد في هذا السياق وفقاً للمفاهيم المرتبطة بالمكانة التي يشغلونها، فضلاً عن ذلك التفاعل الشخصي فيما بينهم. وإذا ما تداخلت الأدوار التي يلعبونها تنشأ الجماعات الفرعية التي تمارس ضغوطاً غير منظورة على التنظيم وعلى المعايير التي يمكن أن يتولد عنها بناء أعلى للسلطة. وتظل هذه السلطة عرضة للتغير مهما بلغت درجة متانتها وقوتها. والقوة تظهر في الروابط على شكلين: أولهما تنظيمي كسلطة يمارسها التنظيم الرسمي، وثانيهما غير تنظيمي وهي قوة الروابط غير الرسمية. هذا ويتوقف قيام، بل واستمرار النظام الأساسي في المجتمع على القدر الذي يتاح له من القوة. فالقوة هي الأساس الذي يقوم عليه بناء الرابطة. وبدونها يتعذر على النظام أن يقوم، هذا فضلاً عن أن السلطة لا يمكن أن تقوم دون أن تمارس القوة ممثلة في الاجبار كجزاء نهائي عند الاقتضاء.

تعريف القوة:

إن مشكلة تعريف القوة كانت دائماً مادة قام ويقوم عليها الكثير من الجهد العلمي المرتبط بمحاولات بحث العلوم الاجتماعية بعامة وعلى السياسة والاجتماع السياسي بخاصة. ولقد شغلنا البحث في استكناه الحقائق المتصلة بمفهوم القوة ردحاً طويلاً استعرضنا فيه في بحث سابق لنا[1] شتى جوانب التطور التي ارتبطت بهذا المفهوم عبر التجربة الانسانية الممتدة من أقدم العصور وحتى يومنا هذا، وقد يحق لنا أن نتصور أننا

(١) انظر: إسماعيل علي سعد، نظرية القوة، مرجع سابق.

استطعنا في نهاية الأمر أن نستخلص مفهوماً عاماً حاولنا أن نضع فيه خلاصة ذلك كله تعريف نحسبه يلم بخصائص هذا الجوهر (القوة) الذي تغلغل ويتغلغل في النسيج الحضاري الذي ينعكس فيه الجهد الانساني على هيئة نظم وأنساق كائنة ما قد تكون أوصافها في مصنفات المعارف الانسانية بأسرها وليس في مجموعة العلوم الاجتماعية وحسب.

وهذا التعريف هو: أن القوة «هي محصلة الاشكال المختلفة للقوى التي تعمل وتتفاعل داخل النسق الاجتماعي، على ما قد يكون فيهما من تجاذب أو تضاد والتي ترسم في النهاية وتحدد الشكل والمسار اللذين يتخذهما النسق الاجتماعي السياسي، أي القوة المؤثرة (الفعالة) في المجتمع» أو هي القوة السياسية إذا كانت هذه القوة تعني إدارة شؤون المجتمع بشتى مناحيها.

وليس من الممكن بالطبع فهم التعريف بطريقة مباشرة ودون استعراض شامل لعلاقات القوة التي تعكس دينامية الحياة الانسانية على النحو الذي فصلناه في بحثنا المشار إليه.

القوة والاتصال :

وقد أدت بنا محاولتنا لاستكناه حقائق القوة إلى ملاحظة الارتباط العضوي الثابت بينها وبين ما يتعارف عليه الآن «بالاتصال» إذ من الواضح أنه من غير الممكن فهم أيهما (أي كل من القوة والاتصال) بمنأى عن الآخر. ويتضح من النظرة الدارسة أن القوة والاتصال يوجدان معاً في كل العلاقات المجتمعية: فهما يوجدان في الوحدات الداخلة في تكوين المجتمع، كما يوجدان بين هذه الوحدات والوحدة الفوقية Supra - Unit، وكذلك بين الطبقات العليا الضابطة للمجتمع وبين ما دونها من طبقات يقوم المجتمع على حركتها.

وينصرف اهتمامنا الأساسي في هذه الحالة إلى العلاقة الأخيرة (أي

العلاقة بين الطبقات العليا الضابطة للمجتمع وبين الطبقات التي تليها) . إذ أن القوة والاتصال في هذه العلاقة المركبة ، هما عاملا التنفيذ الرئيسيان اللذين يتحقق من خلالهما نقل إشارات مراكز الضبط إلى الوحدات التي تقوم بأداء الوظائف الاجتماعية ، والتي تعكس استجابات هذه الوحدات بحيث يتهيأ للمراكز الضابطة أن تقيم وتعدل من مواقفها على نحو يبقي على التوازن في علاقات القوة بالمجتمع . فالشبكات التنظيمية وتشكيل الاتفاق إن هي في حقيقتها إلا نظم تتمثل فيها القوة وقنوات الاتصال في آن واحد.

وما انتهينا إليه في الفقرة السابقة قد لا يروق بعض الباحثين ، ولذلك فإنه ينبغي علينا أن نناقش باقتضاب بعض ما يثيره أصحاب النظريات الطوعية والجمعية في تصورهم لنظام إرشاد مجتمعي يقوم على الاتصال دون مؤازرة القوة. وهذه المقولة تجعلنا نطرح سؤالاً عن ماهية العلاقة بين القوة والاتصال[1] .

---

(١) حاول الباحثون دائماً، فيما يتعلق بالعلاقة بين القوة والاتصال ، أن يستشفوا طبيعة أو ماهية هذه العلاقة ، ونلاحظ على وجه العموم أن جهود الباحثين انصرفت إلى تناول بعض جوانب هذه العلاقة على نحو أدى إلى خفاء بعضها الآخر، كما هي الحال في محاولة «بوكلي» القيمة لتعريف القوة على أنها: شكل نوعي لتيار الاتصال. وقد سبق أن تناولنا هذه المحاولة في كتابنا «نظرية القوة» على النحو التالي الذي نحب أن نورده هنا على سبيل الايضاح: «. . . نظرية الانساق كما رسمها W. Buckley في كتابه علم الاجتماع ونظرية النسق الحديثة، تقترح طريقة يمكن أن يعاد فهم القوة على أساسها، وهي النظر إلى القوة على أنها: شكل نوعي لتيار الاتصال. ويعطينا «بوكلي» نموذجاً سيبرنطيقياً Cybernetic وليس نظامياً أو آلياً للنسق الاجتماعي. فالمجتمع يضم نسقاً من الميكانيزمات والكيانات والأنساق الفرعية السوسيو ثقافية المتصلة ، يربطهما ببعضها البعض تيارات الطاقة والاعلام الفيزيقية وعلى مستوى النسق الاجتماعي والثقافي، وتكون المكونات الفيزيقية والطاقة للتيار Flow ذات أهمية هامشية وحسب ، يكون النسق في الغالب الأعم مرتبطاً ببعضه البعض عن طريق تبادل المعلومات الذي يوجد عند المستويات النظامية وتضم تيارات الاعلام هذه علاقة بين مجموعات متنوعة البناء.

لقد كانت هناك محاولات جادة ومتكررة في مجالات العلوم الاجتماعية والسياسية للاستغناء عن مفهوم القوة. واستعراضنا لكتابات هؤلاء الباحثين لا يوحي من وجهة نظرنا بأن مفهوم القوة غائب أو يمكن أن

= وبهذه اللغة السيبرنطيقية يمكن تعريف القوة - في أعم مستوى - على أنها: «ذلك النمط من تيار الاعلام الذي يرمز إلى سلوك غير متعلق بإرضاء الذات بالنسبة للمتلقي». ومعنى العبارة الأولى من التعريف واضح، إذ أنه يتبع مباشرة في نموذج «بوكلي» السيبرنطيقي للعمليات الاجتماعية. ولكن المصطلح المقتضب الذي يوحي بالأخلاقيات - في غير زمانها - «السلوك غير المتعلق بإرضاء الذات»، يتطلب شيئاً من التوسع، وهذا المصطلح يقصد به إخراج نمطين معينين من أنماط السلوك من التعريف، حيث يكون مفهوم القوة غير وارد.

١ - السلوك المطلوب لاشباع الحاجات البيولوجية والفسيولوجية العصبية.

٢- السلوك العضوي أو المفيد الذي يظهر فائضاً للفوائد على التكاليف.

وسبب استبعاد القسم الأول من السلوك واضح: إذ أن السلوك المطلوب لاشباع مثل هذه الحاجات يتولد ذاتياً. أما سبب استبعاد القسم الثاني هو أن الجماعات والأفراد سوف تسعى إلى تحقيق نوع من التوازن على الأقل بين التكاليف والفوائد في علاقاتهم بالجماعات والأفراد الآخرين. والسلوك الذي ينجح في فعل ذلك عن طريق مدلول الاشارة عند «الفاعل» لن يكون نتيجة علاقة قوة، ويكون مفهوم القوة غير وارد بالقدر الذي يكون به الاذعان ناتجاً عن الحسابات والمنفعة سواء أكان ذلك فعلياً أو مفترضاً. والسلوك خارج عن نطاق هذين القسمين يشكل للوهلة الأولى دليلاً على وجود علاقة قوة.

وبالرغم من تعقد هذا التعريف إلا أننا نستطيع أن نميزه بثلاث ميزات عن التعريفات المعتادة للقوة.

أولاً: إنه يوضح أن القوة خاصية لعلاقة وليست للأفراد الداخلين في هذه العلاقة: فالقوة طريقة نوعية للاتصال أي إشارة. ولكن:

ثانياً: لا يكون للاشارة معنى إلا في إطار مدلولات للفاعلين في موقف - أي مرسلي ومتلقي الإشارة أو تيار الاعلام.

ثالثاً: تكون مدلولات الاشارة من جانب الخاضع، إذ أن التحديد الذي يخضع له سلوكه المفيد لذاته، هو الذي يرمز إلى وجود علاقة قوة.

وذلك يعني أن سلوك الطرف المتلقي في العلاقة ينبنيْ على المدلول الذي يربطه أو يخرج به هو من الاشارة التي ينقلها إليه تيار الإعلام والتي تجعل سلوكه (أي سلوك المتلقي) يتخذ شكلاً معيناً حسب قيمة مدلول الاشارة عنده وأثره فيه.

يكون غائباً، ولكن الواضح أنهم عمدوا إلى اجتنابه أو استبعاده ضمناً، وحاولوا التركيز بدلاً منه على الاتصال.

ونورد كمثال على ذلك ما يقوله K. W. Deutsch وهو من أبرز علماء السياسة المعاصرين: «إن الضبط، في حقيقته، ينطوي على نقل الرسائل Messages، وفهم عمليات الضبط إن هو إلا فرع من هندسة الاتصال، وليس من هندسة القوة»[1].

ومن ثم فإنه ينظر إلى الحكم على أنه شبكة من الاتصال أو نسيج متغلغل من الأعصاب وتقوم هذه الشبكة بحمل الاشارات من مراكز الضبط المختلفة إلى الوحدات التي تقوم بالأداء، ثم تعيد الرسائل منها إلى مراكز الضبط. وتختلف هذه الشبكات في وضوح رسائلها وفي درجة التشويش التي تعتور عملية الاتصال. ولكن إذا ما وصلت الرسائل الملائمة إلى الملتقي الملائم، وفهمت بوضوح فالمتوقع أن تحدث هذه الرسائل الفعل الملائم، وذلك ليس عن طريق قوتها ولكن عن طريق التغيير الذي تحدثه في نمط معلومات المتلقي، وهذه العملية تشبه إدخال المفتاح الملائم في الثقب الملائم فالمهم هنا ليس ذلك القدر من القوة الذي يستخدم لإدارة المفتاح، ولكن المهم استخدام المفتاح الملائم، وكم التغيير الناجم في هذه الحالة، لا يتناسب مع قوة الاشارة التي غالباً ما تكون شديدة الضعف. ويتضح ذلك من أن قوة الرصاصة المنطلقة لا تتناسب بالضرورة مع القوة التي تضغط بها على الزناد[2].

وعلى النقيض من ذلك فإن العلماء الذين يقومون بتحليل القوة

(١) Deutsch, "Communication theory and political Integration, in Jacob and Toscano, the integration of political communities, N.Y. wiely &sons, P. 49.

(٢) انظر:

Amitai Etzioni, The Active Society, N. Y. 1972, CH. 13.

يفترضون أنه لاحداث الأثر لا بد من استخدام القوة حتى نقلل المقاومة ، وإن درجة الفعل أو إحداث الأثر تتأثر بشكل كبير بدرجة القوة المستخدمة ، إذ أن القدر القليل من القوة لا يحدث إلا قدراً قليلاً من الأثر، إن لم تكن المقاومة منخفضة أو منعدمة بالفعل .

ومع أن ضرب المثل بعملية إطلاق الرصاص يبدو مقنعاً ، فإن القدر القليل من القوة الذي يستخدم في الضغط على الزناد لا يفسر قوة الرصاصة في تغلبها على قوة الجاذبية والاحتكاك بالهواء . فما الضغط على الزناد في هذا الحال لا بمثابة نقل رسالة ، لا تجاوز الأمر بإطلاق النار في تلك اللحظة . أما العامل الحاسم فيما يتعلق بقوة اندفاع الرصاصة يتمثل في كمية البارود المخزونة في غلاف الرصاصة ، وتقتصر مهمة الزناد على مجرد الاطلاق .

ودعنا نضرب مثلاً يجلو اللبس الذي ينطوي عليه منطق هؤلاء الباحثين الذين يعمدون إلى التركيز الكامل على الاتصال وإهمال القوة . فإننا إذا ما افترضنا أن حكومة ما أصدرت أمرها إلى أحد قوادها بأن يغزو منطقة معينة ، فإننا نجد أن الباحثين المعنيين بالتركيز على الاتصال دون غيره من العوامل ، لا يتناولون بالبحث إلا الأمر الذي تصدره تلك الحكومة إلى قائدها ، وما إذا كانت الاشارة (الأمر) قد تلقاها هذا القائد واضحة أو غامضة ، أو تلقى إشارات متضاربة في آن . ثم يقف هؤلاء الباحثين عند ذلك ، على أساس أن شيئاً ما لن يحدث أي أن أية قوة لن تمارس ، متجاهلين بذلك الشق الأهم وهو: ماذا يحدث إذا تلقى القائد الاشارة واضحة؟ .

وهنا نستطيع القول أن قدره القائد على الفعل لا تنبني على مجرد الاشارة التي تلقاها ، إذ أن هذه القدرة تحددها الأدوات المتاحة له ، مثل عدد القوات التي تحت إمرته ، وقدرته على تحريك هذه القوات وتحويل هذه الأعداد إلى قوة فعالة فبدون هذه القوات تكون قدرة القائد على الاستجابة

للاشارة (الأمر) لا تعدو قدرة الرصاصة على الانطلاق إذا انعدم وجود البارود في غلافها. والأمر الفعال في استجابة القائد للاشارة هو فهمه للقوة التي سيمارسها عليه مركز الاشارة إذا لم يستجب للأمر.

ونحن لا نقلل بذلك من أهمية الاتصال بأي حال، إذ أنه ولا شك يؤثر في الفعل، ولا بد من دراسة العوامل المختلفة التي تتحكم في انسياب الاتصال ذهاباً وجيئة، إذا كان لنا أن نفهم ديناميات الفعل المجتمعي.

ومن المفيد أن نلاحظ أيضاً أن القدر الذي يستخدم من الطاقة في نقل الاتصال يكون في العادة منخفضاً نسبياً عما يترتب عليه من نتائج.

التلازم بين القوة والاتصال في المجتمع: (١)

ونستخلص من هذا أن الدراسة التحليلية للاتصال لا بد وأن تقترن بالدراسة التحليلية للقوة بأشكالها المختلفة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تغني هذه عن تلك ولكي نفهم أنماط السلوك المختلفة للأفراد الداخلين في الفعل، لا بد لنا من أن نعرف القوى التي في حوزتهم ومدى فعالية شبكات اتصالهم. ولا تقوم الطبقات العليا الضابطة للمجتمع على أساس أنها صيغ ذات مدلولات إشارية وحسب، ولكن لا بد لها من أن تستحوذ على قوة مؤازرة خاصة بها.

وهكذا فإنه إذا لم تستجب وحدة ما لإشارة تصدر إليها من الطبقة العليا الضابطة فإنه لا بد من أن يكون بوسع هذه الطبقة أن تجعل الوحدة تتصرف بما يتفق مع الاشارة، لا عن طريق إرسال إشارة أخرى أكثر وضوحاً، وإنما عن طريق إرسال وحدة أخرى لتجبر الوحدة العنيدة على الانصياع والاذعان.

(١) انظر ملاحظات مقتضبة في هذا الصدد في:

Brent and budd, op.CIT. PP. 113 - 114.

والكلام الذي أوردناه مجرد مثال ينطبق على الناحية العسكرية ، وتظهر النظرة الشاملة أن الحقائق التي ينطوي عليها المثال تنطبق تماماً على مختلف الوحدات والتنظيمات الاجتماعية على اختلاف في نوع القوة المؤازرة أو الملزمة .

ويمثل بعض الباحثين لما أوردناه بما حدث في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٦٥ ، عندما أمر الرئيس جونسون شركات الألومنيوم بألا ترفع سعره ، قائلين بأنه لم يكن يتأتى للرئيس جونسون أن يفعل ذلك ما لم يكن في حوزة الادارة الأمريكية قدراً كافياً من هذه المادة يمكنها أن تطرحه في السوق وتؤثر به على الأسعار .

والأمر في نظرنا لا يقتصر على ذلك ، إذ إن ضرب مثل هذه الأمثلة قد يضيق المفاهيم ولا يعبر عما لعمليات الاتصال من تعدد وتعقد وارتباط وثيق بمفهوم القوة والقدرة على ممارستها . وواضح أن هذه النظرة السطحية ترجع إلى نمط الفكر أو الايديولوجية السائدة في هذه المجتمعات التي تحب أن تصنف نفسها تحت ما يسمى بالليبرالية . والتفكير البسيط يظهر أن الحكومات أو الطبقات العليا الضابطة تستحوذ على الكثير من الوسائل التي تهيىء لها القدرة على تحقيق الاذعان . وهذه الوسائل تتخذ أشكالاً عديدة ، وبدونها لا يتأتى التوازن في علاقات القوى التي يقوم عليها استقرار المجتمع ، ومن أوضح هذه الأشكال القوانين التي تتحقق من خلالها عمليات الضبط.

ويتضح من هذا إذن أنه على الطبقة العليا الضابطة أن تتخذ دائماً نوعين من القرارات : [1]

أ ـ قرارات تتعلق بنوع الإشارات الاتصالية التي تصدرها .

---

(١) انظر Amitai Etzioni, OP. CIT. PP. 335 - 6.

ب . و حر ى تتعلق بنوع القوة التي ستخدم لمؤازرة هذه لإشارات

ونحن نرى أن القرار في هذه الحالة لا ينطوي على اتخاذ نوعين مختلفين من القرارات، وإنما على نوع واحد يحدد الاشارة التي تستهدف إحداث الأثر، وينطوي في المؤقت نفسه على نوع القوة المؤازرة لهذه الاشارة وإن جاء هذا في معظم الأحوال ضمنياً بالنسبة للمتلقي

وهذا الأمر في حد ذاته يدل على التلازم الوثيق بين الاتصال والقوة أو بالأحرى القوة والاتصال.

ومع ذلك فإنه لا يلاحظ في كل حال أن الطبقات العليا تستحوذ على قدر من أرصدة القوة العسكرية يتناسب في الكم مع عدد أونوع الاشارات التي يمكن لهذه الطبقات أن تصدرها، إذ أن هناك ولا شك العديد من الاشارات التي تلقى استجابات تلقائية لدى الفاعلين أو لدى الجموع نتيجة للخلفية التاريخية العامة والمعتقدات التي تسود في مجتمع معين. وهذا يعني أن المصدر يستطيع أن يهيىء لنفسه ويستفيد بقدر من القوة الممكنة يضيفه إلى القوة الفعلية المتاحة له إذا استطاع أن يأخذ في اعتباره ويحسب على وجه الدقة أبعاد الخلفيات والمعتقدات السائدة بين المتلقين.

وليس ذلك فحسب، إذ من الملاحظ أيضاً أن الطبقة العليا تستطيع أن تصدر إشارات تتطلب قدراً من القوة لمؤازرتها قد لا يكون متاحاً لها عند إصدار هذه الاشارات وهذه الحقيقة التي قد تبدو بسيطة يمكن أن يعلل بها للثورات الشعبية التي قد تقوم على حين غرة عندما تبالغ الطبقة العليا في تقييم مدى فعالية الأرصدة المتاحة لها من القوة، أو عندما تكون على دراية بهذه الأرصدة ولكنها تعمد إلى خداع متلقي الاشارات (جموع الشعب) بإيهامهم بقدرتها على ممارسة القدر الكافي من القوة لإجبارهم على الاستجابة عند الضرورة.

وإذا شئنا أن نضرب مثلاً ثانياً يتصل بالواقع السياسي المعاصر ويبين ما قد تنطوي عليه إشارة ما من عناصر قوة يمكن تحريكها واستخدامها على نحو يفيد المصدر ويمكن أن تتعدى آثارها النطاق المحلي وتلعب دورها في نطاق أو نطاقات أخرى، فإننا نشير إلى ما أعلن في الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٧٨ من أن مجلس الوزراء الاسرائيلي اتخذ قراراً بتوسيع وتكثيف المستوطنات الاسرائيلية المقامة على الضفة الغربية لنهر الأردن، وذلك في الوقت الذي تجرى فيه في واشنطن المفاوضات بين مصر وإسرئيل لصياغة إتفاقية للسلام بين البلدين على الأسس التي توصل إليها في محادثات Camp David ، والتي استهدف الرئيس «أنور السادات» أن يهيىء من خلالها السبل التي لا تؤدي إلى عقد صلح بين مصر وإسرئيل فحسب، بل وإلى إتاحة الفرصة للحل الشامل للمشكلة العربية الاسرائيلية والمشكلة الفلسطينية بكل جوانبها. وذلك من خلال ما يترتب على الاطارين المعروفين بمقررات Camp David ، واللذين تصر مصر على أن التقدم في المفاوضات بشأن أيهما يرتبط بالتقدم في المفاوضات بشأن الأخرى، ولذلك فإن الادارة الأمريكية تسعى سعيها في سبيل إيضاح ما ينطوي عليه الاطار الأول (الخاص بالضفة الغربية وقطاع غزة) للملك حسين وفلسطينيي الضفة الغربية حتى يقوموا بدورهم. ومن ما تؤكده الادارة الأمريكية إتساقاً مع الموقف المصري أن المستوطنات الاسرائيلية على الضفة الغربية ستجمد خلال فترة المفاوضات وبعدها وأن القدس الشرقية جزء من الضفة الغربية. وبينما تقوم الادارة الأمريكية بذلك يصدر مجلس الوزراء الاسرائيلي قرار توسيع المستوطنات الذي أشرنا إليه مما أدى إلى شروع مصر في سحب مفاوضيها من واشنطن من ناحية وإلى تعثر جهود الادارة الأمريكية مع الملك حسين وفلسطينيي الضفة الغربية من ناحية أخرى، مما حدى بالرئيس الأمريكي أن يوجه رسالة شديدة اللهجة إلى رئيس الوزراء الاسرائيلي، الذي وجد في

سياق الأحداث الحالية فرصة تمكنه من الرد على نحو وصفه المتحدث باسم الحكومة الاسرائيلية بأنه يتناسب شدة مع المذكرة الأمريكية. وبالرغم من أن نص هذا الرد لم ينشر حتى كتابة هذه السطور، إلا أن المعلقين العالميين يرون أنه ما كان يتأتى لإسرائيل أن تتخذ قرار توسيع المستوطنات كرد فعل للمساعي الأمريكية في الضفة الغربية ما لم تكن تعلم أن بحوزتها قدراً من القوة تستطيع به مؤازرة قرارها وتتمثل هذه القوة في أن انتخابات نصف المدة Mid - term Elections [1] الأمريكية قد أصبحت وشيكة وأن موقف الرئيس الأمريكي كارتر إزاء التصرف الاسرائيلي سيتقيد ولا شك بالرغبة في تهيئة فرص النجاح لمرشحي الحزب الديمقراطي التي تلعب أصوات الناخبين اليهود دوراً مؤثراً فيها.

فالواضح في هذه الحالة أن المصدر لم يعط إشارته إلا بعد حساب دقيق للقوة الممكنة Potential Power التي يسعه أن يحيلها إلى قوة فعالة. والأمر بالغ الدلالة هنا أن نلاحظ كيف يتأتى لقوة خارجية أن تمارس ضغطاً على الإدارة في دولة لا يمكن القول بأنها تفوقها قوة فحسب، إذ لا وجه للمقارنة على الإطلاق بين القوتين، ولكن الرابطة الإيديولوجية بين إسرائيل ويهود أمريكا تخلق من هؤلاء جماعات ضغط بالغة التأثير في تشكيل الرأي العام الأمريكي وتسيير السياسة الأمريكية على نحو يتوافق مع المصالح الإسرائيلية.

ويتجلى من هذا المثال الرابطة الوثيقة بين عناصر القوة والإيديولوجية والاتصال والرأي العام من ناحية، ويوضح من ناحية أخرى كيف يتعدى

(١) تصادف هذه الانتخابات منتصف فترة رئاسة الرئيس كارتر، وسوف تجري في السابع من نوفمبر ١٩٧٨ ويتم خلالها انتخابات كل أعضاء مجلس النواب وخمسة وثلاثين شيخاً (أي ثلث أعضاء مجلس الشيوخ الذي يبلغ عدد أعضائه مائة) وستة وثلاثين من حكام الولايات (عدد حكام هذه الولايات ٥٠ حاكماً) وعدد لا حصر له من المسؤولين على المستوى المحلي ومستوى الولاية.

ذلك كله النطاقات المحلية والقومية، بل والدولية.

والتلازم الدائم بين القوة و الاتصال الذي يبلغ مبلغ الرابطة العضوية، والذي أسلفنا الإشارة إليه، لا يمكن بيانه من خلال ديناميات التغير الاجتماعي والمجتمعي فحسب، بل ومن أن القوة والاتصال قد يتداخلان على نحو يوحي بإمكان أن يحل أحدهما إلى حد ما محل الآخر. ونمثل لذلك بأنه إذا كانت الرسالة أقل وضوحاً ولكنها مؤازرة بقدر كبير من القوة، أو كانت الرسالة تتميز بوضوح كبير ولكنها مؤازرة بقدر أقل من القوة، فإننا نلاحظ أنه في كلتا هاتين الحالتين تتحقق نتائج متشابهة، ولكن حلول أيهما محل الآخر على هذا النحو ليس، ولا يمكن أن يكون، مطلقاً، أي أن هذا الحلول جزئي وفي نطاق محدود، إذ أن أكثر الرسائل وضوحاً إذا ما جوبهت بمقاومة لا يمكن أن تؤدي إلى إحداث أثر ما لم تؤازره بقوة كافية وإن القوة الكافية تكون عديمة الجدوى إذا كانت الرسالة غامضة أو متضاربة عند وصولها للمتلقي.

وهذا في حد ذاته يوضح التلازم الدائم أو الترابط العضوي بين القوة والاتصال. ونستخلص من هذا أن الاتصال المتكافىء هو الذي يتوازن فيه وضوح الرسالة مع درجة القوة المستخدمة في مؤازرتها، وفي هذه الحالة يتحقق الغرض الذي ينشده المصدر سواء أكان هذا الغرض هو: إحداث التوازن في علاقة قوة، أو تعزيز هذا التوازن، أو إحداث خلل فيه على نحو يؤدي إلى تغيير طبيعة علاقة القوة. وتحت هذه الاحتمالات الثلاثة يندرج أي تغيير اجتماعي أو مجتمعي ابتداء من أية علاقة تنتظم فردين على مستوى من مستويات التعامل إلى الثورة التي تنتظم المجتمع كله بشتى علاقاته ونظمه.

ولا نقف عند هذا الحد دون أن نلفت انتباه الدارس إلى أن لفظة القوة، كما تستخدم في هذا السياق لا تقتصر كما قد يتبادر إلى الذهن على

مدلولاتها الفيزيقية فحسب، وإنما القوة تشمل في عمليات الاتصال كل الأوجه المباشرة وغير المباشرة والسمات الظاهرة والخفية والعناصر الفعلية والمحتملة. والاستخدام الكفء لعناصر القوة المختلفة هو ذلك الذي لا يقف عند فعالية الفعال منها فحسب، وإنما الذي يأخذ أيضاً في حسابه عناصرها المحتملة التي تحسن استغلال الإيهام. وكلمة، الإيهام أو الإيحاء، هذه تنتقل بنا إلى ركيزة هامة من الركائز التي تقوم عليها عملية الإعلام Information. ولا يعني هذا أن العمليات الاتصالية الإعلامية تقوم في الأساس على الإستفادة من الجوانب السيكولوجية فحسب، وإن كانت هذه الجوانب بالغة القيمة في إحداث الأثر المطلوب.

والواقع أننا نرى أن الايديولوجيات في العصر الحديث لا تقف في عملياتها الاتصالية أو الإعلامية عند طرح استخدام حقائقها الأولى في الاستحواذ على مشاعر الجماهير وتسييرها. وإنما تضع في اعتبارها الكثير مما ترسب في وجدانات الناس عبر قرون طويلة من قيم ومعتقدات قد تتصادم مع ما تحاول هذه الايديولوجيات طرحه. كما تضع في اعتبارها مقولات الايديولوجيات الأخرى، ولذلك فإنه تظهر في عملياتها الاتصالية مرونة وتكيفاً قد لا يتفقان في كل حال مع الالتزام المطلق بالأفكار الأساسية التي تقوم عليها الايديولوجية.

التأثير المتبادل بين الايديولوجية والاتصال: [1]

من اللازم قبل الشروع في إيضاح تأثير الايديولوجية في الاتصال وتأثير الاتصال في الايديولوجية أن نحاول بعد أن استعرضنا المفاهيم الأساسية

(١) هناك معالجة هامة وواعية لمفهوم الايديولوجية في:
Karl Mannheim, Ideology and utopia, London: Routledge & Kegan Paul. Ch. II.

للاتصال وارتباطها بالقوة، أن نقف على المعاني التي تعبر عنها لفظة الايديولوجية كمصطلح.

قد ترتبط لفظة الايديولوجية في أذهان الناس بالماركسية على نحو يؤثر في ردود أفعالهم إزاء المفهوم الذي تنطوي عليه. وواقع الحال أن اللفظة في حد ذاتها لا ينبغي أن تصرف أذهاننا عن أن ما ينطوي عليه هذا المصطلح من معان أو مدلولات يرتبط بالأفكار المختلفة التي شكلت وتشكل أسس فكر الانسان منذ القدم، ومذ بدأت ملكاته الفكرية تطور القدرة على رؤية العلاقات بين الأشياء واستكناهها.

وتبدأ معالجتنا لمشكلة الايديولوجية بمحاولة تحديد مفاهيمها. وذلك باستخلاص معانيها المتداخلة وتنسيقها على نحو يضفي شيئاً من الوحدة على ما يتصل ببعضه البعض من هذه المعاني. لأن تحديد هذه المعاني والربط بينها على النحو الذي تستخدم به في عالمنا المعاصر يتيح لنا القدرة على تحليل معنى الايديولوجية من الناحية السوسيولوجية والتاريخية.

والنظر إلى الايديولوجية بهذه الطريقة التحليلية يظهر لنا أن للايديولوجية معنيين محددين ـ كما يقول كارل مانهايم ـ يمكن الفصل بينهما: أحدهما خاص والآخر كلي. ونحن نتجه إلى استخدام لفظة الايديولوجية بمعناها الخاص للدلالة على أننا نتشكك في أفكار الآخرين، أو فيما يطرحونه. إذ أننا في هذه الحالة نقدر أن هذه الأفكار إن هي إلا ستر خفية تخفي وراءها مواقفهم الحقيقية، لأن إتاحة الفرصة للغير للتعرف الصحيح على هذه المواقف قد لا يتفق مع مصالحهم، فهم يعمدون إلى الكذب المتعمد حيناً أو شبه المتعمد حيناً آخر، أو الاخفاء الحاذق للحقائق، وذلك كله بطريقة تقوم على الحساب الدقيق للغاية والوسيلة الذي قد يؤدي إلى إيهام الغير وإيقاعهم في خداع الكذب.

وهذا المفهوم للإيديولوجية، الذي إن هو إلا تطوير تدريجي لفكرتنا عن الكذب. ، مفهوم خاص من أوجه عدة، وتبرز خصوصيته إذا ما قارناه بالمفهوم الكلي. وفائدة هذا التعريف لنا من الناحية المنهاجية أنه يعكس الصلة الوثيقة بين الايديولوجية والاتصال، وليس ذلك فحسب، وإنما يبين بشكل مباشر أثر الغاية المرجوة من العمليات الاتصالية على ما قد تطرحه الايديولوجية.

ــ وعندما نتناول الايديولوجية بمعناها الكلي فإننا نعني بذلك إيديولوجيةعصر بعينه أو جماعة اجتماعية تاريخية محددة كما هي الحال عندما نتناول على سبيل المثال طبقة من حيث خصائصها والبناء الكلي لفكر هذا العصر أو تلك الطبقة.

ونستطيع من خلال ذلك أن نرى بوضوح معايير التفرقة بين ما هو خاص وما هو كلي في الايديولوجية. فالعنصر المشترك بين هذين المفهومين أننا لا نعتمد في محاولة فهمنا لمقاصد أصحاب الايديولوجيات على ما يطرحونه أو ما تعكسه آثار الحقبة التاريخية المدروسة من أفكار.

ويقع أثر الإيديولوجيات بأي من معنييها المذكورين على الفرد أو الجماعة الذي أو التي يحاول أو تحاول فهمها، أو الذي تتجه الايديولوجية إلى طرح فكرة أو نسق من الأفكار عليه أو عليها. وللفرد الذي تتمثل فيه وحدة التلقي الأولى أفكاره الخاصة التي نمت وتشكلت نتيجة لخبراته، وهذه الأفكار في حقيقتها إن هي إلا وظائف Fonctions يدور حولها وجوده. وهذا يعني أن الآراء والأقوال والفروض وأنساق الأفكار التي قد تطرحها الايديولوجيات لا تؤخذ على المعنى الظاهري لها وإنما تفسر في ضوء مواقف حياة الفرد الذي يعبر عنها. كما أن ذلك يعني أن الطابع النوعي والموقف الحيادي للفرد يؤثران في آرائه ومفاهيمه وتفسيراته.

ولذلك فإن هذين المفهومين للايديولوجيات يحاولان أن يجعلا من «الأفكار» وظيفة للفرد الذي يأخذ بها، ولموقفه من بيئته الاجتماعية وبالرغم من أن هذين المفهومين للإيديولوجية يلتقيان في بعض الجوانب، إلا أنه توجد فوارق هامة بينهما نذكر أبرزها فيما يلي:

أولاً: بينما يركز المفهوم الخاص للإيديولوجية على جزء فقط مما يطرحه المعارض ويرى أن هذا الجزء هو الايديولوجية، وذلك بالطبع فيما يتعلق بمحتوى ما يعرض، فإننا نلاحظ أن المفهوم الكلي للإيديولوجية يضع في اعتباره الاتجاه الفكري العام أو الكلي للمعارض على أساس أنه نتاج للحياة الجمعية التي يشارك فيها.

وقبل أن نعرض للفارق الثاني بين مفهومي الايديولوجية، ينبغي لنا أن نقف وقفة نوضح فيها المعنى الذي نقصده ببعض المصطلحات المستخدمة في هذا السياق ونحسب أن ذلك يتأتى على وجه يقترب من الكمال إذا ما طرحناها مستخدمة في تعريف للإيديولوجية وصفه واحد من علماء العصر البارزين هو «كارل مانهايم» الذي يرى أن: «الايديولوجية نتاج عقلي وظيفته حجب الطبيعة الحقيقية لمجتمع ما، وهي تنبع تلقائياً من عقول أولئك الذين يستهدفون تثبيت نظام اجتماعي بعينه. واليوتوبيات إن هي إلا أحلام تمن تلهم العمل الجمعي لجماعات المعارضة التي تهدف إلى تغيير المجتمع تغييراً كاملاً»[1].

فهذا التعريف للإيديولوجية على اقتضابه يلم بالنوعين الهامين العامين اللذين يمكن أن ندرج تحتهما الأفكار، وهي العملي والخيالي، ثم يبين لنا الطرفين أو العنصرين المجتمعين اللذين يميل كل منهما بحكم الموقع إلى الأخذ بأي من هذين النوعين من الأفكار، وهذان العنصران هما ممارسو

(١) انظر: K. Mannheim, OP. Cit., PP. 174 and 122 and 122 - 24.

القوة أو هؤلاء الذين يقومون بالحكم من ناحية، ومعارضوهم من ناحية أخرى[1] فعلى حين يفرض الأمر الواقع نفسه على الإيديولوجية التي يستلهمها الحاكمون ويحاولون تطبيقها، فإننا نرى أن المعارضين يطرحون أفكاراً يوتوبية تنشد المثل الأعلى على غير المتحقق بقصد مخاطبة رغبات الجموع كوسيلة للتمهيد للوصول إلى الحكم.

ويظهر شرحنا لتعريف «مانهايم» الأطراف الداخلة بالضرورة في التفاعل الايديولوجي الذي يرتكز في الأساس على العمليات الاتصالية، وهذه الأطراف تنقسم في النظرة العامة إلى ثلاثة أقسام هي:

طارح للإيديولوجية ومعارض لها وجموع أو نسق اجتماعي بينهما يتأثر بها ويؤثر فيها وتوحي النظرة المدققة بأن تعريف الإيديولوجية على هذا النحو يبرز في جلاء الصلة الحيوية بين الايديولوجية والاتصال، إذ من الممكن في في بساطة أن نستبدل لفظة طارح الايديولوجية بلفظة «المصدر» وأن نستبدل لفظة «الجموع» «بالمتلقين»، والمعارضون بالضرورة ضرب من المتلقين وإن كان يمكن إضفاء فعالية أكثر على دورهم في المجتمع.

وفضلاً عن القيمة الايضاحية للمصطلحات التي ينطوي عليها شرحنا السالف، فإن هذا الشرح يبرز في الوقت نفسه حقيقة هامة هي مدار هذا البحث كله، وهي الترابط العضوي بين عناصر القوة والاتصال والايديولوجية وبالتالي الرأي العام.

ثانياً: والفارق الثاني بين مفهومي الإيديولوجية هو أن المفهوم الخاص للإيديولوجية يقوم بتحليل الأفكار على مستواها السيكولوجي الخالص، فإذا

---

(١) انظر معالجة للايديولوجية السياسية في

Harvey Wheeler, Democracy in a Revolutionary Era, Harmondsworth, Penguin Books, 1971, P. 197. Seq.

ما ادعى على سبيل المثال أن المعارض أو الخصم يعمد إلى الكذب أو إخفاء أو تشويه موقف فعلي معين، فمعنى ذلك أن كلا الطرفين - أي طارح الفكرة ومعارضها - لهما معايير مشتركة لقياس صحة الأفكار ويفترض تبعاً لذلك أنه من الممكن دحض الأكاذيب وإلغاء مصادر الخطأ بالرجوع إلى معايير موضوعية متفق عليها ويقبلها الجانبان.

ـــ أما المفهوم الكلي للإيديولوجية فمختلف عن ذلك، فإننا عندما نعزو إلى حقبة تاريخية معينة إطاراً فكرياً معيناً يختلف عن إطارنا الفكري، أو عندما نفكر في طبقة إجتماعية تاريخية على أسس تخالف أسسنا الفكرية، فإننا في هذه الحالة لا نرجع إلى المحتوى الفكري الفردي، وإنما نرجع إلى أنساق الفكر التي تتشعب أصولها وإلى أنماط الفكر والخبرة التي تختلف إختلافاً بالغاً.

ثالثاً: وللفارق الثالث بين مفهومي الإيديولوجية هو أن المفهوم الخاص بالإيديولوجية يعمل من خلال سيكولوجية مصالح، بينما يستخدم المفهوم الكلي للإيديولوجية ضرباً من التحليل السيكولوجي الشكلي الوظيفي، دون الرجوع إلى الدوافع، مقتصراً على الوصف الموضوعي للاختلافات البنائية في العقول التي تعمل في إطارات اجتماعية مختلفة.

خلاصة:

لقد عنينا في هذا الفصل بإيضاح الوجوه النظرية التي يمكن من خلالها تناول «الأفكار» على أنها إيديولوجيات تستخدمها عناصر القوة في المجتمع لإقامة أو تعديل أو تغيير النسق الاجتماعي السائد من خلال عمليات وتكنيكات الاتصال التي تخلق الرأي العام وتشكله. بيد أننا لم نعرض على سبيل التمثيل لإيديولوجية بعينها مبينين أثرها أو آثارها في مجتمع معين أو على حقبة تاريخية معينة، ورأينا - على نحو يتسق مع منهجنا في هذا البحث الذي

يتوخى القيمة الحضارية لعلاقات القوة والاتصال والرأي العام دون التركيز على الوسائل التكنيكية التي تتضاءل قيمتها في المنظور الحضاري الشامل - أن نؤجل ذلك (التمثيل) إلى أجزاء هذا البحث التي تعالج قضايا صناعة الرأي.

الفَصْلُ الثَّالِث

وَسَائِل الاتصَال

- تمهيد .
- وسائل الاتصال الجماهيري .

تمهيد :

تناولنا الإيديولوجية ببحث تحليلي في الفصل السابق، يظهر العلاقة بينها وبين القوة، ويعين الدارس على تبين جوانب هذه العلاقة وفهم طبيعتها. ويعنينا الآن أن نعرف الإيديولوجية على نحو يعكس رغم بساطته القيمة التي تترتب للاتصال تبعاً لذلك، فنقول: إن الإيديولوجية بالمعنى الذي يخدم السياق الحالي من البحث إن هي إلا: الأفكار التي تقوم عليها النظرية أو النسق السياسي[1].

وهذا التعريف على بساطته يلم بأطراف كل الأنساق الفكرية فلا تندرج تحته الأوجه المختلفة للمعتقد الديني في تطوره وضعياً كان أم إلهياً وحسب، وإنما الأنماط المتباينة للإنسان الفكرية السياسية في تطرفها واعتدالها كما هي الحال في الفاشية والنازية ومضادة السامية والتمييز العنصري والإشتراكية والشيوعية والرأسمالية إلى غير ذلك.

وتكمن القيمة الحقيقية للإتصال في كونه أداة كل هذه الأنساق في الوصول إلى السيطرة على مشاعر الناس وآرائهم وتشكيل نظرتهم ومواقفهم وما يعتقدون إزاء شتى الموضوعات التي ترتبط بالمجتمع كأفراد وجماعات.

---

(١) انظر The Concise Oxford Dictionary, "Ideology"

وهذا التشكيل إن هو إلا صياغة للرأي العام [illegible] الرأي العام يصنع من خلال الاتصال، وتتم عمليات الاتصال بالطبع من خلال قنوات ووسائل معينة، وهذه الوسائل وإن كنا لا نركز عليها في هذا البحث لارتباطها من حيث النوع بالجانب الميكانيكي للعملية الاتصالية ولا تعكس في ذاتها قيمة حضارية تعدو قدرة الانسان على ابتكار وسائل تؤدي أغراضاً. ويستبين من هذا أن الإنسان خلق واتصل وعاش وأقام النظم وبنى الحضارات قبل أن توجد هذه الوسائل التي يوليها الكثير من الباحثين أهمية بالغة كما لو كانت هي صانعة الحضارة، في حين أنها من نتاج جانب من جوانب النشاط الانساني ووسيلة من وسائل تفاعله. وهذا لا يعني بالطبع أننا نقلل من أهميتها بأي حال من الأحوال ولكن همنا ينصرف في الأساس إلى الجوانب الحضارية الخلاقة.

وقبل أن نتناول وسائل الاتصال بالعرض السريع نشير إلى أن عمليات الاتصال الجماهيري، سواء أكانت تتم بين الجماعات أو المجتمعات أو الدول أو الثقافات[1] فإن هذه العمليات تمثل أنساق اتصال تقوم على الصلة المشتركة Inter - Linkage بين أنساق إتصالية تحتية تعمل مع بعضها البعض وتشترك في إحداث الأثر.

وتتركب هذه الأنساق التحتية من أنساق تحتية أصغر تتركب بدورها من وحدات اجتماعية أصغر يعتبر الفرد وحدتها الأساسية. ويتبين من هذا إذا ما اتجهنا بنظرنا إلى مجتمع معين - أن هذا المجتمع إن هو إلا نسق إتصالي مركب.

ومن خلال العمليات الاتصالية أو الإعلامية في نطاق هذا النسق الشامل تنشأ الآراء التي يكونها الفرد إزاء العالم الذي يحيا فيه وتستمد

---

(١) انظر: Edmund Leach, Culture and Communication, Cambridge Univ Press, 1976.

عناصر دوامها أو تغيرها . ووواضح أن عملية الاتصال في النسق التحتي الذي يتكون من فردين أو أكثر يترتب عليه تنظيم جماعي واجتماعي يستمر من خلال الاتصال الاجتماعي Social Communication . ومن خلال هذا الاتصال الاجتماعي تعرف أو تتحدد المعرفة والمعايير والقيم والقوانين والقواعد والأخلاق والأدوار (أي كل موضوعات الاتصال) وتنشر بين الأفراد الذين يتكون منهم النسق الاتصالي . وهذا يوضح كما أسلفنا في مواضع أخرى أن العمليات الاتصالية تلم بكل الجوانب العقائدية والسياسية التي تحدد اتجاه المجتمع وتلم بدرجة كبيرة بأطراف هذا المجتمع من خلال وسائل الاتصال الجماهيري .

وتنشأ أهمية دور وسائل الاتصال من أنها تقوم على تعليم الأجيال المتعاقبة ما ينبغي لهم أن يعرفوه عن ماضي الانسان وحاضره وحضارته والكون المحيط.

وسائل الأتصال الجماهيري :

لقد لعبت وسائل الاتصال الجماهيري[1] وتلعب دوراً بالغ الأهمية في إضفاء قسمات عصر التكنولوجيا على وجه العالم المعاصر. وقد أضفت هذه الوسائل على عمليات الاتصال قدرة على سرعة إحداث الأثر المطلوب من ناحية ووسعت دوائره من ناحية أخرى على نحو جعلها تتعدى النطاقات المحلية والقومية ، فاتسعت مجالات الاهتمامات الانسانية ، وأوشك المقيمون في أطراف الأرض المتنائية أن يصبحوا جيراناً مصاقبين .

---

(١) انظر دراسات حول وسائل الاتصال الجماهيري في :

Erih Barnouw, Mass Communication, N.Y., Holt, Rinehart and winston, 1956; R.K. Chatterjee, India, National Book Trust, 1973; Ronald T. Farrar and John D. Stevens, Mass Media and the National Experience, N.Y., Harper & Row, 1971.

ومن ثم فقد أصبحت وسائل الاتصال الجماهيري من كتب وصحف وشتى ضروب الكلمة المطبوعة إلى الإذاعة والتليفزيون والسينما ومختلف أشكال الكلمة المسموعة والصور المنقولة أدوات يستعين بها الانسان في الدعاية لفكره وإقامة نظمة والتصدي لأفكار ونظم الآخرين على نحو جعل المناجزة بالكلمات تسبق وتصاحب وتلاحق قعقعة السلاح.

ويبقى الانسان دائماً في حاجة إلى منطق الكلمة وقهرها قبل وبعد اللجوء إلى أسلحة الحرب وقسرها، على ما في الأولى من بيان إذا غلب الانسان منطق الحق وما في الثانية من إذعان إذا غلبت الإنسان أهواؤه أو تحرك لتحقيق ما ينبغي أن يحقق. ولا نحسب أن وسائل الاتصال تعنينا في البحث من نواحي تعريفها كأجهزة وأدوات فنية أو ميكانيكية، ثم إننا لن نتعرض بالمناقشة للصحافة أو الإذاعة أو غيرهما كمهن، وحسبنا أن نهتم بها كوسائل إتصالية ناقلة تقوم بأدوار بينية وما يترتب على ذلك من آثار اجتماعية وسياسية على النحو الذي تتضح به موضوعات هذا البحث، فضلاً عن الآثار العلمية والثقافية.

ولا يفوتنا قبل الانتقال إلى الفصل التالي من هذا البحث أن نشير إلى حقيقة بالغة الأهمية ترتبط بتطور وهيمنة وسائل الإتصال الجماهيري، مؤداها أن هذه الوسائل أتاحت لممارس القوة قدراً غير عادي من الرقابة على نحو قد ينطوي على الكثير من الجوانب السلبية المرتبطة بفرض أطر معينة من الأفكار على ما بها من مؤازرة للأشكال السيئة لممارسة القوة بمعناها الفيزيقي والإيديولوجي، وتوشك بذلك أن تتحول وسائل الاتصال الجماهيري إلى أدوات، تعميمية تحجب عن رؤى الجماهير عناصر هامة قد تكون لازمة لصياغة الرأيَ العام على أساس سليم.

الفصل الرابع

الرأي العام

- تمهيد .
- الإذاعات ودورها في الرأي العام .
- الرأي العام والاغتراب .
- الرأي العام وعملية الانتخاب .
- الرأي العام والكارزما .
- الرأي العام والقوة العلمية .
- الرأي العام في منظور التاريخ .

تمهيد :

أشرنا في الفصل السابق إلى أن وسائل الاتصال في حد ذاتها لا تعنينا كأدوات فنية وإنما تعنينا من حيث قيمتها الحضارية ، أي من حيث استخدامها استخداماً فعالاً في العمليات الاتصالية التي تستهدف نشر أفكار ومعتقدات يمكنها أن تصوغ الرأي العام على نحو يؤثر في كل ما يتصل بحياة الانسان من أمور في المواقف الخاصة والعامة للأفراد والجماعات في النطاقات المحلية والقومية والدولية على شتى مستويات المعرفة والممارسة ، وما لذلك كله من تأثير على مسيرة البشر عامة .

ومن الطريف أنني لم أكد أفرغ من كتابة نهاية الفصل السابق ، وبينما أجلس إلى مكتبي[1] والأوراق والأقلام لم تزل أمامي ، وسياق الفكر ينحو مناح شتى ليجمع الشاردة إلى الواردة ، إذ حركت أصابعي مؤشر وسيلة الاتصال القريبة مني لأسمع التعليق اليومي الذي تذيعه هيئة الإذاعة البريطانية كل يوم عقب نشرة أخبار الحادية عشر مساء بتوقيت جرينتش ، وتصادف أن كان التعليق يتناول بالمناقشة موضوعاً يطرحه مؤتمر «منظمة اليونسكو» في هذه الآونة في باريس ، ويتناول المؤتمر المشار إليه موضوع

(١) مساء الأحد التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٧٨ .

الحاجة إلى فرض نوع من الضبط على الأخبار والمعلومات التي تتداولها وسائل الاتصال الجماهيرية في العالم بأسره، أو بلغة أدق إخضاع هذه المواد في كل دولة إلى ضرب من الرقابة الفعالة. وذلك بقصد خدمة السلام العالمي والحيلولة دون نشر الأفكار التي تؤدي إلى النزاع أو الشقاق الدولي من ناحية، وإلى التأثير على القيم السائدة في المجتمعات من ناحية أخرى.

وخبراء اليونسكو يحاولون إصدار بيان عالمي بهذا الشأن بعد دراسة بدأت منذ ست سنوات وبعد أن استرعت انتباههم الآثار السلبية الجسيمة التي تقع على مجتمعات دول العالم الثالث، نتيجة للهيمنة الكاملة أو شبه الكاملة للمؤسسات الإعلامية وقنوات الاتصال الكبرى التي تتمثل في الإذاعات ووكالات الأنباء الغربية التي لها على قلة عددها قدرة وفعالية في مجالات ما يسود العالم الآن من اتجاهات وحرب دعائية واسعة النطاق وعميقة الأثر. وتبرز أهمية أدوار هذه القنوات الإتصالية إذا ما استحضرنا في الذهن النظم والأحوال السائدة بعامة في بلدان العالم الثالث من ناحية، والإيديولوجيات التي تستلهم قنوات الاتصال العالمية الوحي منها من ناحية أخرى.

وليس من الغريب أن نرى أن المعلق البريطاني يتخذ موقفاً مضاداً للاقتراح الذي يطرحه خبراء منظمة اليونسكو، ويقول أن فرض هذا النوع من الضبط ينطوي فيما يتعلق ببلدآن العالم الثالث على شكل من أشكال التمييز العنصري، إذ أنه يعني أن شعوب هذه البلدان لم ترق بعد إلى المستويات السائدة في البلدان الغربية، ويقول إن وسائل الاتصال الجماهيري في هذه البلدان قام الاستعمار بإقامتها قبل رحيله عنها لتحقيق أهداف ثلاثة على التحديد هي: الإعلام والترويح، والتعليم، ويقف عند ذلك دون أن ينتهي إلى ما آل إليه أمر هذه الوسائل في ظل النظم التي سادت بعيد فترة الاستعمار، وما لهذه النظم من إنتماءات إيديولوجية تتأرجح بين شرق

وغرب، ونادراً ما تثبت داخل نطاق تراثها الحضاري.

الاذاعات ودورها في الرأي العام:

إن عنونتنا لهذا الجزء من الفصل لا تعني أننا نقصر اهتمامنا على الإذاعات في معالجتنا لوسائل الاتصال الجماهيري، فمن منا لا يمكنه أن يلحظ الأدوار الفعالة لوسائل الاتصال الجماهيري الأخرى من كتب وصحف وسينما وأشرطة تسجيل وغيرها من كافة المصنفات الأخرى؟ ولكننا نركز على الإذاعات المرئية والمسموعة لاتصالها المباشر بالجماهير الغفيرة بشتى قطاعاتها من الصفوة Elite إلى الأميين من العامة، على ما هنالك من فارق بين الإذاعات المسموعة التي تتحدى النطاقات المحلية والقومية والإذاعات المسموعة المرئية التي تلعب دورها في نطاقات محدودة.

وإذا ما شئنا أن نضرب المثل بإذاعة معينة فإن اختيار هيئة الإذاعة البريطانية B. B. C. يفرض نفسه علينا، إذ فيها تتمثل الخدمات التي تخاطب المستويات المحلية من ناحية والمستويات العالمية من ناحية أخرى، بشكل يوشك أن يبلغ مرتبة الكمال، إن كان الكمال في وسع الإنسان. ومعالجة دور الإذاعة البريطانية من الناحية المحلية أمر لا يتصل بسياقنا الحالي وكذلك فإنه لا يعنينا في كثير الدور الذي تلعبه «جامعة الهواء» على سبيل المثال فيما تهيؤه من فرص ثقافية للشعب البريطاني.

ودعنا نلقي نظرة على الخدمة العالمية World Service لنتبين ما يمكن أن يكون لبرامجها من أثر وخطر. فهي تعنى بتتبع مسار الأحداث في كل بقاع العالم وتذيع أخبارها في أوقات ثابتة ومتكررة على نحو يضمن وصولها إلى شعوب مختلف البلدان في أوقات تلائمهم.

وهذه الأخبار تصاغ على نحو ديدنه الحيدة، وليس من الممكن بالطبع أن تكون الحيدة مطلقة، إذ أن مثل هذه الحيدة تجاوز طوق الإنسان ولا

أحسب أنه مطالب بها إلا على سبيل الإدعاء الذي يتجاهل تركيب الإنسان وخلفيته .

ولكي تضفي هذه الإذاعة على أخبارها حيوية تستهدف الاستحواذ على أذن السامع فإنها تتبعها عادة إما بتعليقات تتناول قضايا الساعة التي تدور حولها هذه الأخبار ، أو رسائل صوتية من مراسليها في مختلف البلدان الذين يتابعون هذه الأحداث عن كثب .

وإذا ما انتقلنا إلى البرامج الأخرى فإنها تتنوع على نحو ، ليس سياقنا مجالاً له . ونكتفي ببرامج قليلة على سبيل التمثيل . ففي المجال الثقافي نجد معالجات إذاعية لنتاج الأدب الانجليزي على نحو يتراوح بين القصة البوليسية والأعمال الخالدة للأدباء العظماء من أمثال «وليم شكسبير» ، ولا نشير إلى مجالات الإبداع الأخرى كالموسيقى وغيرها .

وهذا الضرب من البرامج يعكس ولا شك قسمة من قسمات حضارة بعينها . وهناك أيضاً برامج سياسية تقوم على تحليل الأحداث الكبرى وتمثل لها بالبرنامج الذي يذاع في الوقت الحاضر من حلقات أسبوعية تحت اسم "Why Many Resons" فهـذا البرنامج يتناول بالمعالجة المستفيضة التورط الأمريكي في فيتنام ، من أسبابه ودواعيه وحتى النتائج المترتبة على إنهاء هذا التورط بعد اتفاق باريس وقد عني مقدمو هذا البرنامج بإجراء النقاش مع كل من كانت لهم صلة بهذه الفترة الهامة في التاريخ المعاصر . فنسمع في هذا البرنامج آراء أشخاص كالرئيس نيكسون ، والرئيس «ثيو» آخر رئيس لفيتنام الجنوبية قبل سقوط سيجون ، والمستر «كولبي» الرئيس السابق لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية C. I. A. ووزراء الخارجية المعنيين ، ومستشاري الرؤساء الأمريكيين الذين تعاقبوا في هذه الفترة ، ومستشاري البنتاجون والقادة العسكريين ، وأساتذة السياسة والصحفيين والمعلقين ،

وغيرهم. كل ذلك على نحو يتيح للمتلقي إلمامة شاملة لكل جوانب الموضوع وخفاياه.

بيد أننا نلاحظ أن الوجوه السائدة في البرنامج توشك أن تكون أنجلو سكسونية وحسب، على نحو يمثل وجهة نظر غزبية - وإن كانت محايدة في نطاق الغرب - مع أنها موجهة إلى متلقين تتباين أماكنهم على خريطة العالم.

ومن الناحية الدينية فإننا نلاحظ أن هذه الخدمة العالمية تعنى بالبث المنتظم للبرامج الدينية، بالرغم من أنه يفترض أنها لا تخاطب أصحاب دين واحد، بل تخاطب الناس جميعاً دون الإلحاح على مفهوم ديني معين.

ويتضح من هذا أن هذه البرامج وغيرها تحمل في مجملها قسمات حضارة معينة، في محاولة لتوسيع نطاقات نفوذ إيديولوجية هذه الحضارة. وليس هذا بمستغرب بالطبع، إذا وجدنا أن مصدري دائرة المعارف البريطانية - وهي أداة إتصالية هامة على المستوى العالمي - يقدمون أحدث طبعة لها على أنها تمثل التراث الغربي بعامة من المملكة البريطانية وحتى أستراليا. ولعل ذلك كما أسلفنا هو السبب في اختيارنا الجزء الخاص من هذا البحث بالرأي العام للكلام فيه عن وسائل الاتصال الجماهيري.

هذا من ناحية المنهج، وقبل أن ننتقل إلى النقطة التالية نحب أن نشير إلى أن دول العالم المختلفة، تقديراً منها لما لهذه الوسائل من خطر، سوف تعقد في هذا العام مؤتمراً في مدينة جنيف هو المؤتمر العالمي للإذاعات الحكومية. وتستعد لذلك من الآن بدراسات مستفيضة إذ بدأ الخبراء في دول العالم النامي يستشعرون خطراً داهماً يتمثل في أن الدول المتقدمة توشك أن تستنفذ النطاق الاليكتروني وهو النطاق الذي تعمل من خلاله الموجات اللاسلكية المختلفة المستخدمة في شتى ضروب الاتصال من الإذاعات إلى الأقمار الصناعية على نحو قد لا يتيح لهذه الدول الاستفادة بهذا النطاق أو

بلغة أدق قد لا تجد لها مكاناً فيه ، إذا ما تهيأت لها فيما بعد الإمكانيات التكنولوجية التي تستطيع بوساطتها أن توسع مجالات خدماتها في هذا الاتجاه أو أن تطلق أقماراً صناعية . ونرى مثلاً أن إحدى اللجان المتخصصة في الكونجرس الأمريكي ترى في الدراسة التي أعدتها عن هذا الموضوع أن ما تستحوذ عليه الولايات المتحدة الأمريكية من حيز في هذا النطاق الإليكتروني تتمثل فيه أهميات بالغة ترتبط بحياة الشعب الأمريكي وأمنه القومي ، إذ أنها تستخدمه في مجالات الإعلام على المستويين الداخلي والعالمي ، وفي شتى المجالات العلمية وغيرها ابتداء من تقدير المحصول العالمي للقمح وانتهاء إلى مراقبة مدى التزام الاتحاد السوفيتي في صنع صواريخه بما اتفق وما يتفق عليه في مباحثات S. A. L. T.[1] ومن ناحية أخرى نجد أن بين الدول التي ستشترك في المؤتمر وعددها يناهز المائة دولة سوف تصر على أن يحتفظ بحيز غير مستخدم في النطاق الإليكتروني إلى أن تتهيأ لها فيما بعد سبل استخدامه .

ولعله ما كان للباحث أن يلم بتفاصيل مثل تلك التي أوردناها في هذا السياق دون الاستعانة في استقرائه لما يجري في عالمنا المعاصر بما هو متاح الآن من وسائل الاتصال التي تتناول برامجاً تعكس في نفس اللحظة ما يدور هنا وهناك على المستوى العلمي وغير العلمي عن وسائل الاتصال الجماهيرية .

وينقلنا هذا السياق إلى ضروب أخرى من الاذاعات نكتفي هنا بمجرد الإشارة إليها ، كالإذاعات التي تقصر جهودها على الدعاية لدين معين أو فكر معين والتبشير به . كما أنه لا يفوتنا أن نشير إلى الدور الذي تلعبه الإذاعات الموجهة على وجه العموم في الربط بين أصحاب الإيديولوجيات الواحدة

(١) مفاوضات تحديد الأسلحة الإستراتيجية Strategic Arms Limitation Treaty.

وإن تبعثروا في أماكن متفرقة من العالم.

ومن الكلمة المسموعة التي آثرنا أن نبدأ بها لاتساع نطاق تأثيرها ننتقل إلى الكلمة المسموعة المقترنة بالصورة كما تتمثل في التلفزيون والسينما. والتلفزيون على ضيق مجاله نسبياً بالمقارنة بالإذاعة، يلعب في العصر الحديث دوراً بالغ التأثير في النطاقات المحلية والقومية خاصة، لقدرته على استهواء الناس، وهو ولا شك من أهم، أو أهم، وسيلة اتصال جماهيرية تستخدم على أوسع نطاق في مجالات الإعلام والتعليم والتسلية. وهذه المجالات جميعاً ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعمليات صياغة الرأي العام من خلال إيديولوجيات القائمين عليها، وإن كان بعضها يتوشح بأردية التلقائية المفتعلة التي تنأى بها عن شبهة الانحياز.

ولا يزال للسينما دوراً تلعبه في الاتجاه نفسه، وإن كان التلفزيون قد حد من دورها نسبياً بقدرته على أن يغزو بيوت الناس من ناحية، في حين أن السينما تطلب من الناس أن يسعوا إليها، وأن التلفزيون من ناحية أخرى يستفيد من إمكانيات السينما، هذا وقد بدأ التلفزيون في الآونة الأخيرة يستعين في تخطي الحواجز القومية بما أتاحته التكنولوجيا المعاصرة من أقمار صناعية.

ومن الكلمة المسموعة والكلمة المسموعة المقترنة بالصورة، ننتقل إلى أقدم أشكال الكلمة وأبقاها أثراً، وهي الكلمة المطبوعة، التي استطاع الإنسان بوساطتها أن يحفظ تراثه في شتى المجالات، والتي كان وسيبقى لها من الخطر ما لا يمكن للباحثين أن يقيموه بأي حال من الأحوال والكلمة المطبوعة تأخذ أشكال الكتب والصحف في مختلف أنواعها ولها جميعاً فعالية وسائل الاتصال والإعلام الجماهيرية مع القدرة على استدامة الأثر.

ويغرينا هذا بالإشارة أيضاً إلى الدور الجسيم الذي تلعبه الصحافة في

حياة الإنسان وحضارته على تدرجها من الصحافة الصفراء إلى الدوريات التي تعالج أدق قضايا الفكر والعلم.

وخلاصة القول هو أنه لوسائل الاتصال الجماهيرية بشتى أشكالها قيمة حضارية فعالة، وإن هذه القيمة هي التي تعنينا في هذا البحث لما لها من أثر في صياغة الرأي العام.

الرأي العام:

إن النظر إلى الأحوال السائدة في العالم على سعته وفي المجتمعات التي يضمها يوحي ـ مع التأمل ـ بتلك الصعوبات الجسيمة التي تكتنف محاولة وضع تعريف شامل أو جامع مانع لما اصطلح على تسميته بالرأي العام، وقد يكون النظر إلى قضايا الرأي العام أمر يقل صعوبة عن استكناه مثل هذا المفهوم الشامل، ولكن المشكلة تكمن في أن النظر إلى الرأي العام من خلال قضاياه ينتهي بنا لا محالة إلى عدد من التعريفات للرأي العام وليس تعريفاً واحداً على النحو الذي تقتضيه المحاولة العلمية للتقنين. وهذا يعني أن الباحث قد يضطر إلى الركون إلى ما هو إجرائي في حين أنه يحاول أن يجمع كل العناصر الداخلة في إلمامة شاملة.

ومن ثم فلنحاول بادىء ذي بدء أن نقصر النظرة في نطاق يحد فنتناول قطاعاً محلياً يحاول صناع القرار فيه أن يتبنوا سياسة معينة إزاء موضوع بعينه، فإنهم ولا شك لا يستطيعون المقامرة بمكانتهم الاجتماعية Social Status أو بهيبتهم، أو بشعاراتهم المعلنة التي قد تكون من عوامل تعزيز هذه المكانة أو الهيبة. ولهذا فقد يعتسفون قرارات تتضاد مع العواطف والاتجاهات السائدة بين الجماهير. وهم هنا يجابهون أحد أمرين: إما أن يحاولوا أولاً التأثير في هذه العواطف أو تلك الاتجاهات من خلال وسائل الاتصال على نحو يهيىء الناس لتلقي ما يتخذوا من قرارات أو أن يستلهموا

هذه العواطف والاتجاهات ويحاولوا التوفيق بينها وبين قراراتهم.

ومحاولة التأثير في مواقف الناس أو تغييرها ليس بالأمر الهين إذ أن هذه المواقف ترتبط بعناصر عديدة قد تستمد أصولها من تراث أو معتقدات تدعي لنفسها صفة الدوام، ويتشكل بمقتضاها ما يمكن أن يسمى برأي عام. ومن هنا نستطيع القول بأن الرأي العام في تعريف بسيط هو: «حصيلة الآراء والمواقف والمعتقدات التي تعكس اتجاه نسبة مؤثرة من أفراد مجتمع واحد أو مجتمع ما إزاء موضوع بعينه»[1].

وعلى وجه العموم فإن كل رأي يرتأيه الإنسان يرتبط أو يتعلق بشيء ما، وبقدر ما تتعدد الأشياء، ويتعدد الأفراد تتعدد الآراء، وكون الرأي العام «محصلة» لا يعني بالضرورة اتفاق الجزئيات لدى جميع الأفراد إزاء شيء ما لتنوع خلفيات الأفراد وتعددها إذ أن الناس يختلفون ثقافة وفهماً بالرغم من تشاركهم في بيئة واحدة أو نسق اجتماعي واحد، على نحو يوحي بأن الرأي العام ليس مجرد حصيلة بسيطة وإنما حصيلة مركبة بالغة التعقيد. ويترتب على ذلك بالتبسيط أننا إذا افترضنا ثبات عدد جماعة معينة فإن الأفراد الداخلين منها في محصلة الرأي إزاء موضوع معين ليسوا بالضرورة نفس الأفراد الذين يدخلون في محصلة رأي معين إزاء موضوع آخر، وإن كان الرأي العام في كلتا الحالتين ينسب إلى نفس الجماعة، وهكذا دواليك بحسب تراكب وتعقد البناء الاجتماعي وتعدد موضوعات الرأي فيه. وكون الرأي العام حصيلة متغيرة على هذا النحو يقتضي أن ننصرف به إلى قضايا أو نطاقات معينة كلما حاولنا معيرته أو قياسه.

ولذلك فإننا نلاحظ أن الباحث في مجال السياسة يعني بأوجه أربعة يرتبط بها الرأي العام هي:

---

(١) انظر: Public Opinion, in: Encyclopaedia Britannica

أ ـ النسق السياسي.

ب ـ النظام السائد.

ج ـ الإطار الدستوري.

د ـ الطريقة التي تحسم بها القضايا.

والترابط بين هذه الوجوه الأربعة وترتيب التالي فيها على السابق تتمثل أهميته في أنه المحور أو الموضوع الذي يتعلق به محصلة آراء الناس.

وهذه الآراء التي قد تكون عميقة الجذور تشكل اتفاقاً عاماً. وبالرغم من أن هذا الاتفاق لا يمكن أن يكون مطلقاً إلا أنه هو الأساس الذي يضفي الشرعية على النظام القائم ويترتب على ذلك أن الاختلاف البين فيه يؤدي إلى إنهيار ذلك النظام.

الرأي العام والاغتراب:

والباحثون في السياسة والرأي العام إذ يفصلون في نظرتهم في هذا المجال بين ما هو سياسي Political وما هو اجتماعي Social إنما يحاولون التفرقة بين ما له أثر مباشر على شرعية النظام وبين ما لا يتأتى أثره إلا بالتراكم. ويمكننا هنا أن نفرق بين الرأي العام المرتبط بالنظام وقضاياه السياسية العامة وبين الآراء العامة التي ترتبط بالمشكلات الاجتماعية. والبناء الاجتماعي السياسي المتين هو ذلك البناء الذي يستطيع صياغة الحصيلة المركبة للرأي العام على نحو يكفل اتفاقاً لا يؤدي في أحسن الأحوال إلا إلى إغتراب Alienation [1] الحد الأدنى من الأفراد والجماعات الداخلة في تكوين المجتمع إذ أن في الاغتراب يتجسد النفور واللامبالاة Apathy

---

(١) انظر:

Richard Schacht, Alienation, N.Y. Anchor Books, 1970, PP. 183 - 199.

اللذان يعكسان شعور الفرد بعدم الانتماء على نحو يخرب القدرة الانسانية على الإسهام أو المشاركة Participation ومن هذا يستدل على الأهمية الجوهرية للتأثير الاتصالي والإعلامي على نحو يضمن مؤازرة المحصلة المركبة للرأي العام للنظام.

فالاغتراب إذن هو: النتيجة الحتمية لفشل صناعة الرأي في النسق السياسي السائد، في صياغة وتشكيل الرأي العام.

وقد يتصور البعض مما أسلفنا أن الاتفاق العام في الرأي قد يعني أن النسق السياسي المعين لا يمكن أن تنبثق عنه إلا جماعة سياسية واحدة تتخذ شكل حزب واحد مثلاً، ولكن هذا في الواقع غير صحيح، إذ في بلد مستقر من الناحية السياسية كالمملكة المتحدة، مثلاً نجد أن هناك اتفاقاً عاماً على الناحية الدستورية أي من حيث كيفية الإدارة واتخاذ القرار، ولم يحل ذلك دون قيام أحزاب متعددة تتبنى أفكار متباينة ولكن في نطاق الدستور غير المكتوب، وتستطيع هذه الأفكار بالتحاور أن تصل إلى أحسن السياسات التي ينبغي أن تطبق في المجالات الداخلية والخارجية. فالسياسات إذن تختلف من حيث التفاصيل ولكن الممارسة وصنع القرار يرتبطان بأشكال مصطلح عليها.

بيد أن ذلك لم يحل في الوقت نفسه دون بروز ظاهرة، ترتبط بقرننا الحالي وهي تصميم بعض الايديولوجيات على أن تطرح نفسها كمجال وحيد ينبني من حوله الرأي العام. ويلاحظ هذا في النظام السائد في الاتحاد السوفيتي على سبيل المثال، إذ أن الماركسية ترى أنها وليدة جدل تاريخي تمثلت فيه عبر الحقب كل مراحل الأخذ والعطاء على نحو هيأ ظهور النظرية الماركسية كإيديولوجية متكاملة يمكن للبناء السياسي الاجتماعي أن يقوم عليها وحدها دون ما حاجة إلى صراع فكري داخلي، ولذلك فإن أجهزة

الاتصال والإعلام هناك تلتزم بصياغة المحصلة المركبة للرأي العام على نحو يتمشى مع هذا المفهوم، وإن كان قد بقي لهذه الايديولوجية أن تناطح غيرها من الايديولوجيات السائدة في بلدان أخرى من العالم.

وإذا ما انتقلنا بنظرتنا إلى الأنساق السياسية السائدة في العالمين الثالث والرابع نجد أن معظم هذه الأنساق قد تقوم على شعارات فارغة المضمون، وتستمد بقاءها من خلال الاستحواذ على السلطة العسكرية كما هي الحال ـ على سبيل المثال ـ في جمهوريات أمريكا الجنوبية وبلدان أخرى لا تكاد تخرج من انقلاب حتى تدخل في آخر، وسند مثل هذه النظم في البقاء هو الممارسة المطلقة للقوة كما أسلفنا، أو التبعية للأنظمة الأمبريالية. ذلك فضلاً عن الظاهرة الفريدة التي تتجلى في بعض دول العالم الرابع التي تضيق فيها دائرة الاغتراب إلى أدنى حد ممكن برغم غيبة كل الأشكال التي يتعارف عليها عادة في الأنساق السياسية اللهم على سبيل الادعاء والتي لا تتعرض تبعاً لذلك لاضطرابات سياسية تؤدي إلى تغيير أو قلب النظام. وذلك مرجعه إلى الثراء العريض الذي أتيح لهذه المجتمعات على حين غرة، وترتب عليه رخاء يكاد يعم كل الناس، فضلاً عن الإفلاس الفكري السائد وما يرتبط به من استرخاء عقلي.

ويستطيع الباحث السياسي أن يلمح أعراض عدم استجابة الرأي العام لما تطرحه أجهزة بعض هذه الدول نظراً لاستئثار فئة أو طبقة معينة بكل عوائد ما أتيح لهذه البلدان من ثروات ويتجلى ذلك في الاضطرابات التي نسمع عنها في الآونة الحاضرة في إيران[1].

ونعود بالسياق إلى ظاهرة الأحزاب ـ طالما أننا نعنى في هذا الجزء بالنواحي السياسية، إذ أن الولاء الحزبي في المجتمع على تعدد تنظيماته

---

(١) تكتب هذه السطور خلال شهر أكتوبر ١٩٧٨.

يجسد صورة الارتباط الفعال للأفراد والجماعات على نحو يمكن من اتخاذ القرار الحاسم في نهاية الأمر. وبالتالي فإن هؤلاء الأفراد وهاتيك الجماعات تجد نفسها وتتوحد في الأحزاب. وهذا الولاء الحزبي لا يتأتى إلا من خلال الالتفاف حول شعارات تتبنى مصالح هؤلاء الأفراد والجماعات الذين لا يستشعرون ذلك على نحو يضمن ولاءهم إلا من خلال عمليات فعالة لصياغة الرأي وتشكيله.

ويستنتج من هذا كله أنه على الباحث السياسي أن يركز انتباهه على ولاء الفرد للجماعة أو الحزب إذا شاء أن يستكنه مفهوم الرأي العام في جانبه السياسي المؤثر على مجريات الأمور. إذ أن الولاء في التحليل النهائي هو الذي يحدد الاتجاهات العامة التي يترتب عليها تبني رأي بعينه أو سياسة بعينها أو اختيار الناس للزعامة التي يعهدون إليها بإدارة شئونهم.

ويقوم اختيار الزعامة أو اختيار الناس للزعيم في الأساس على عمليات صياغة وتوجيه للرأي العام تضيق بمقتضاها دائرة الاختيار وتنحصر في نطاق أشخاص تتمثل فيهم من خلال الخرافة أو انواقع القدرة على تهيئة العوامل والظروف التي تكفل تحقيق مصالح الحد الأعلى من الأفراد والجماعات التي صيغ فيها الرأي العام على نحو يكفل إقناعهم بذلك.

الرأي العام في عملية الانتخاب:

ومن الواضح بالطبع أننا لا نعني بالزعامة القادة على المستوى القومي وحسب وإنما يتدرج تحت مفهوم القيادة كل أولئك الذين يلعبون دوراً قيادياً في تسيير أمور مختلف الجماعات الداخلة في المجتمع.

ولا بد أن يسترعي انتباهنا هنا ظاهرة تواضع الناس في مختلف المجتمعات على أن وجودها يعتبر مؤشراً يدل على أن للديمقراطية مكاناً في المجتمع، إذ أن القوة في ظهورها وخفائها تميل إلى أن تتوشح بغلالات

أردية تخفي وراءها ما تنطوي عليه من قدرة على تحقيق الاذعان على نحو يظهر العبد وكأنه اختار لنفسه بنفسه أن يرزح تحت نير عبودية أو أخرى ونعني بهذه الظاهرة «عملية الانتخاب»[١] التي نرى أن المجتمعات التي تدعي أنها ليبرالية وتلك التي يدعي الليبراليون أنها شمولية تتمسك جميعها بعملية الانتخاب على أنها سمة من سمات الديمقراطية التي يحاول الانسان أن يدعيها لنفسه منذ عاش في دولة المدينة City - State الإغريقية[٢] وحتى انتهى إلى مجتمعات القرن العشرين على اختلاف أوصافها. ومرجع عنايتنا بالوقوف إلى حين عند هذه الظاهرة ـ عملية الانتخاب ـ هو أن المحاولة الظاهرة لصياغة الرأي العام، على مختلف المستويات تتجلى فيها على نحو كبير سواء أكانت هذه العملية الانتخابية تتم لاختيار أعضاء الكونجرس الأمريكي[٣]، أو مجالس السوفييت أو مجلس العموم البريطاني أو أي مجلس نيابي أياً كان موقعه في هذا العالم المدعي.

والدلالة الحقيقية لذلك كله هي أن جموع الناس تسير من خلال عمليات الاتصال والإعلام التي تصوغ الرأي العام إلى اتخاذ مواقف تحقق في التحليل النهائي مصالح الطبقات الضابطة المسيطرة وإن كانت هذه

(١) D.E.G. Plowman, "Public opinion and the polls", B.J.S. Vol. XIII, Dec.1962, P.P. 331-345; Paul A. Palmer, The concept of public opinion in political theory, London, 1936; D. Riesman and N. Glazler, "The meaning of opinion", public opinion Quarterly, 1948 - 9,12, P.P. 633 - 48.

(٢) انظر: لطفي عبد الوهاب يحيى، الديمقراطية الأثينية ـ الطبعة الأولى، مركز التوزيع الجامعي بالاسكندرية، ١٩٦٦، الفصول ١ ـ ٣.

(٣) من الظواهر الطريفة وذات الدلالة أن أحزاب ما قبل الثورة في مصر كانت تعمد عندما تكون في السلطة إلى إعادة تغيير الحدود الإدارية للدوائر الانتخابية على النحو الذي يكفل شموله لأكبر عدد من أنصار مرشحيها، ويحق للحزب صاحب الأغلبية في الولايات المتحدة الأمريكية أن يعيد تخطيط الدوائر بنفس الطريقة. وهذه العملية إن هي إلا محاولة لحصر رأي عام معين في نطاق معين بقصد تهيئة إحدى الركائز الهامة للبقاء في السلطة.

الأخيرة إذا أتيح لها قدرة من الاستنارة ـ تعمل على رعاية مصالح الناس في الحدود التي تحفظ لها أمنها واستقرارها.

الرأي العام والكارزما:

إن تاريخ الإنسان، قديمه وحديثه ـ وخاصة في أشد نقاط التحول أثراً أو خطراً ـ أعطانا أمثلة لأشخاص تتجسد فيهم القدرة على اجتذاب جموع الناس واستثارة الاستجابة التلقائية لديهم لما يطرحه هؤلاء القادة من معتقدات وما يفرضونه من سياسات.

ووقف الباحثون ملياً أمام هذه الظاهرة التي أثرت على مسار الحضارات سلباً وإيجاباً محاولين الكشف عن حقيقة العناصر الداخلية فيها ويبدو أنه بعد أن استنفذوا المناهج التي ترتبط بصرامة التحليل، إن كان للتحليل في كل حال صرامة، جنحوا إلى ضروب من التعليل الميتافيزيقي ورأوا أن لهؤلاء القادة قدرة فريدة على استقطاب عواطف الجماهير ومشاعرهم، وأن هذه القدرة هبة سماوية، أطلق عليها الباحثون الغربيون لفظة كارزما Charisma ويعنون بها الصفات غير العادية التي يتميز بها القائد المجدد أو الثوري، والتي تقوم على اعتقاد بأنه له قوى دينية أو سحرية على سبيل المثال. ويمكن أن ينسحب معنى هذا المصطلح إلى الرموز Symbols أو النظم Institutions التي ترتبط بهذه القيادة[1]. ومصطلح الكارزما، يشتق من الكلمة اليونانية التي تعني «هبة العناية الإلٰهية» وتعريف الكارزما على النحو السابق يظهر في الحقيقة أنها تقوم في الأساس على حسن صياغة الرأي العام على نحو يكفل نجاح العملية الاتصالية بين القائد وما يمثله وبين جموع الناس. ويتضح ذلك من أن هناك ارتباطاً بين قدرة الكارزمية على البقاء وبين استطاعتها أن تحقق الآمال التي ألهمتها

---

(١) G.K. Roberts, A Dictionary of political analysis, London, Longman, 1971, p. 28.

للجماهير، ولا تستطيع الكارزمية في حد ذاتها أن تفعل ذلك دون الاستعانة بقوى المجتمع، ولكنها تهيىء أكثر الفرص مواتاة وقدرة على توجيه الرأي العام في الاتجاه المطلوب، وهذا في حد ذاته قد يكفل لها النجاح في إنجاز ما تستهدفه إذا استطاعت أن تحسب هذه القوى حساباً دقيقاً وتحسن استخدامها.

ويلاحظ أنه بعد أن تتهيأ للقائد الكارزمي فرصة الظهور على سطح الأحداث والإمساك بمقاليد الأمور، يستطيع هذا القائد أن يخاطب قلوب وعقول الجماهير التي أصبحت متعلقة به وبما يمثله مباشرة دون الحاجة إلى العمليات التلفيقية والتوفيقية المركبة التي تقوم عليها صناعة الرأي، إذ أنه لا يحتاج لأكثر من أدوات أو وسائل تسهل عليه عملية الاتصال بينه وبين الجموع التي أصبح في مقدوره أن يحيي آمالها ويداعب أحلامها.

والتاريخ في عصره الحديث يعطينا هتلر ونكروما وجمال عبد الناصر وماوتسي تونج وفيدل كاسترو وتيتو كأمثلة للقيادة الكارزمية.

ومن الآثار بالغة السلبية للكارزمية ـ أو للرأي العام إذا استطردنا في التحليل ـ أنها تجمع القوى في محصلة سلطة يمارسها قائد واحد بحيث يصبح نجاحه وفشله متوقفين على قدراته، ويجني المجتمع بأسره الثمرة في نهاية الأمر أو يدفع ثمن ولائه.

* * *

وكلامنا عن الرأي العام ودوره في الجانب السياسي لا بد وأن يفضي بنا إلى شتى الجوانب الأخرى التي يقوم عليها النسق الاجتماعي. فإننا نعرف أن القوة السياسية ـ كما أسلفنا في الفصل الثاني ـ محصلة لعدة قوى هي القوة الدينية والقوة الاقتصادية والقوة العسكرية والقوة العلمية. ونشير هنا إلى أن هذه القوى جميعاً ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالرأي العام أي بتراكيب عمليات الاتصال.

فالقوة الدينية ـ على سبيل المثال ـ تنبني في الأساس على نشر معتقد أو معتقدات بعينها تقر في نفوس الناس مستمدة سلطانها من مخول ميتافيزيقي أو عقلي. وتؤثر في مواقفهم إزاء بعضهم البعض كأفراد وتنظيمات ونظم وإزاء ما يسمى بحقائق الأشياء تأثيراً ضارب الجذور، وبالغ الأثر في التاريخ بأسره ولم يقتصر أثر الرأي العام في الجانب الديني على تشكيل معتقدات الناس على نحو معين فحسب ولكن كما هي الحال في الجوانب الأخرى للرأي العام كان لهذا الرأي أثر في تشكيل المعتقد الديني أو تطوره. فإذا ما رجعنا إلى القرن الرابع الميلادي والمؤتمر الديني الذي عقد في «نيقيا» عام (٣٢٥م) والذي تحددت فيه السمات الأساسية للعقيدة «الكاثوليكية»، نلاحظ أنه كانت هناك عدة معتقدات فيما يتعلق بالطبيعة الإلهية والتثليث، وكان الآريوسيون[1]: قد صالوا وجالوا وطرحوا أفكاراً لا توافق المعتقد الكاثوليكي، وناقش مجمع نيقيا، كل الأفكار التي كانت مطروحة وانتهى إلى مقررات معينة أصبحت فيما بعد أساس العقيدة الكاثوليكية.

وتتضح صلة ذلك بالرأي العام مما ننقله فيما يلي بنصه عن العلامة الإنجليزي الشهير "Edward Gibbon": «ولو أتيح لأساقفة مجمع نيقيا أن يتبعوا مقتضيات ضمائرهم غير المنحازة، لما كان بوسع آريوس ورفاقه، أن يمنوا أنفسهم بنيل أغلبية أصوات لصالح افتراض يتضاد مباشرة مع رأيين من أكثر آراء العالم الكاثوليكي شعبية وسرعان ما أدرك الآريوسيون خطورة موقفهم واتخذوا بوحي من العقل، تلك الفضائل المعتدلة التي يندر أن يمارسها أو حتى يمتدحها في حمأة الخلافات الدينية وغير الدينية غير الجانب الأضعف. فأوصوا بممارسة المحبة والإعتدال المسيحيين واحتجوا بأن موضوع الجدل

---

(١) تقول دائرة المعارف البريطانية أن الآريوسية Arianism هرطقة مسيحية، كان آريوس Arius شيخ الكنيسة السكندري أول من طرحها في أوائل القرن الرابع الميلادي. وهي تؤكد أن المسيح ليس في الحقيقة إلهاً ولكنه مخلوق. (انظر الملحق الأول في الملاحق الإنجليزية).

ذو طبيعة مستغلقة واستنكروا أية ألفاظ أو تعاريف لا يمكن العثور عليها في الكتاب المقدس وعرضوا أن يسترضوا معارضيهم بتقديم تنازلات سخية جداً دون تخل عن صحة مبادئهم الخاصة وتلقي الجانب المنتصر كل مقترحاتهم - أي مقترحات الآريوسيون - بارتياب متعال، وجدوا في البحث عن نقطة خلاف تستعصي على الاتفاق ويؤدي رفضها إلى توريط الآريوسيون في إثم الهرطقة وما يترتب عليه[1].

وبصرف النظر عن الخلافات الثيولوجية التي لا تعنينا في هذا المقام فإنه ما كان للآريوسيين وهم يعتقدون أنهم يمثلون وجهة نظر تتفق مع الكتاب المقدس أن يقترحوا التراجع عما يعتقدون. ويستبين من النص المستشهد به أثر الرأي العام في ذلك.

وإن كان العرض السابق يظهر علاقة المعتقد بالرأي العام تأثيراً فيه وتأثراً به فإن للمسألة جانباً آخر يؤكد أهمية صياغة الرأي العام في معتقد شامل على نحو يكفل لأصحاب السلطان تحقيق ما يستهدفونه من استقرار النظام القائم[2]. ولذلك فإننا نرى أن الباحثين ينفقون الكثير من الجهد في تناولهم لدوافع تبنى الامبراطور قسطنطين المعتقد المسيحي كدين للامبراطورية الرومانية وعلى الأسباب السياسية التي حدت بها إلى ذلك. ولا يفوتنا أن نشير إلى أن العلاقة بين العقيدة والرأي العام لا يقف أثرها عند الحدود الإقليمية للنسق السياسي المعين، إذ أن العقيدة - سواء قامت على أساس من الوحي أو على أساس من الوضع - تجاوز الدعوة إليها حدود المجتمعات المعينة، فإن الايديولوجيات تحاول دائماً أن تخاطب الانسان بعامة.

---

(١) Edward Gibbon, Decline and fall of the Roman Empire, Harmandsworth, Pelican Books, 1963, P. 313. See Appendix II.

(٢) انظر: الملحق الثالث في الملاحق الانجليزية.

الرأي العام والقوة العلمية:

تستند إدارة الدولة بمعناها الحديث إلى عديد من المؤسسات ومن بينها مؤسسة قد تتوزع عناصرها في مؤسسات مختلفة. وتتمثل في هؤلاء الأفراد الذين لهم من الخبرات العلمية ما يجعل لآرائهم قيمة في تسيير أمور النسق السياسي القائم وهؤلاء هم الذين نعنيهم في حديثنا عن القوة العلمية الداخلة في تركيب القوة السياسية وسواء تفرق هؤلاء الخبراء في أماكن مختلفة في النسق الاجتماعي أو اجتمعوا تحت صفة أكاديمية أو غيرها فإنهم في ظل إيديولوجية معينة يشكلون أداة هامة من أدوات توجيه الرأي العام. ولنوضح ذلك نفترض مثلاً أن الايديولوجية التي يراد تطبيقها في النسق الاجتماعي تستلهم وحيها من النظرية الاشتراكية، فإنه ينبغي أن يكون هؤلاء الخبراء جميعاً من المؤمنين ـ حقيقة أو ادعاء ـ بتلك النظرية إذ أنهم يشكلون في هذه الحالة المصدر الذي تنبثق منه الأفكار التي ستطرح على الناس وذلك يعني أن لهؤلاء الخبراء دوراً هاماً في صياغة الرأي العام وتوجيهه. وذلك يعني أيضاً أن دور هؤلاء الخبراء لا يقتصر على مناجزة خصوم العقيدة الاشتراكية في داخل مجتمعاتهم وحسب، وإنما يتعدى الحدود الإقليمية للنسق السياسي ليتصدى لأعداء العقيدة في العالم بأسره.

ولقد ذكرنا ذلك حتى يمكننا الانتقال إلى الدور الذي تلعبه فروع العلم المختلفة في صياغة الرأي العام العالمي والمحلي إزاء الايديولوجيات ودورها التاريخي. وإذا شئنا أن نمثل لذلك فإننا نقول للدارس أن عليه أن يلقي نظرة على تاريخ العالم أو على تاريخ أمة بعينها من خلال الكتابات التاريخية التي قام بها كتاب ينتمون إلى إيديولوجيات مختلفة فإنك واجد ولا شك أن هذا التاريخ ـ سواء كان تاريخ العالم أو تاريخ أمة معينة ـ يصطبغ بطابع الفكر الذي ينتمي إليه كاتب التاريخ. ويتجلى ذلك في أوضح صورة إذا ما قرأنا التواريخ التي يصدرها العالم الغربي والتواريخ التي يصدرها الشق الماركسي من العالم.

وليس ذلك فحسب فإن نعرات التراث القومية أحدثت أثرها في فوارق نلحظها في التواريخ التي يكتبها أناس ينتمون إلى حضارة واحدة كما هي الحال فيما نقرأه من تواريخ كتبها الفرنسيون والانجليز والامريكيون.

وإذا شئنا أن نضرب مثلاً يعبر عن هذه الحقيقة في واحد من جوانبها، ويظهر ما يمكن أن يشوب نظرة المؤرخ حتى في معالجته لأحداث الواقع الذي انقضى والتي يفترض أنها تخضع لمنطق التحليل والتعليل، فإننا لا نعود إلى أبعد من السنوات الأولى للحرب العالمية الثانية عندما استقر الأمر لهتلر في بولندا بإخضاعها في أوائل عام ١٩٤٠، ثم قفزت قواته بغتة من شرق أوروبا للعمل في غربها، ووجهت ضرباتها والعالم لا يكاد يفيق من ذهوله إلى دولتين محايدتين هما الدنمارك والنرويج. وسرعان ما سقطت الدنمارك دون مقاومة تذكر، واستبسل النرويجيون دفاعاً عن وطنهم بعد أن أفاقوا من وقع هذه المباغتة. وفي تلك الآونة اندفعت القوات البريطانية على عجل لتعين النرويجيين في صد الهجوم الألماني؛ وبدا عندئذ أن نجاح الغزوة الألمانية أمر مشكوك فيه، ولكن الألمان أثبتوا في نهاية الأمر أن البريطانيين والنرويجيين لم يكونوا أنداداً لهم. وأكرهت القوات البريطانية والنرويجية على الفرار إلى بريطانيا، وسقطت النرويج في أيدي الألمان، وعهد بحكمها إلى نرويجي خائن هو: فيدكون كويزلنج Vidkun Quisling الذي أضاف اسمه إلى قاموس اللغة الانجليزية كلمة Quisling التي تعني «خائن على استعداد لأن يحكم بلاده لصالح غاز أجنبي» (انظر Oxford) . وأتاح غزو الدنمارك والنرويج للألمان الاستيلاء على سلسلة القواعد البحرية الهامة في بحر الشمال التي تقع في مواجهة الساحل البريطاني مما يقوي مركز هتلر بشكل خطير في قتاله مع بريطانيا ثم عاود هتلر توجيه ضرباته، وغزت القوات الألمانية فجأة دولتين محايدتين أخريتين، وهما بلجيكا وهولندا، وسرعان ما قضت على قواتها. ودفع بقوات بريطانية وفرنسية لتعين هاتين الحليفتين

الجديدتين ، ولكنها عجزت عن إيقاف الضربات القاضية والسريعة التي وجهتها مجموعات الدبابات السريعة ـ فرق البانزر The Panzer divisions ـ التي كانت تؤازرها أسراب كبيرة من الطائرات القاذفة . وتفتت القوات المتحالفة تحت وطأة هذه الضربات المروعة .

ويصف المؤرخ الأمريكي «سوثورت» ما حدث بعد ذلك قائلاً : «إن ليوبولد الثالث ملك بلجيكا ، وقد عجز عن أن يهضم أن تذبح قواته ، أمر كل الجنود البلجيكيين أن يلقوا بأسلحتهم» .

...King Leopld III of Belguim, unable to stomach the slaughter of his troops, ordered all Belgian soldiers to throw down their arms(١).

وهذه العبارة على بساطتها ترتب خطوة «ليوبولد» الثالث كنتيجة حتمية لما سبقها من أحداث . ولكننا نجد أن المؤرخ البريطاني «هربرت جورج ويلز» يرى رأياً آخر في ذلك ، إذ يقول :

«وخطر للملك ليوبولد ، الذي كان قد لجأ إلى فرنسا وبريطانيا ليعيناه عندما غزى بلده ، أن الوقت كان مؤاتياً عندئذ لعمل من أعمال الجبن الفائق والخيانة» .

"It occurred to King Leopold, who had appealed to France and Britain for assistance When his country was invaded, that the time was now oppertune for an act of sapreme cowardice and treachery" (٢) .

هذا ما يقوله ويلز ، بالرغم من أنه ينعى على الفرنسيين في الصفحة نفسها من تاريخه أنهم لم يمدوا خط ماجينو إلى ما وراء الحدود البلجيكية ، وأن

---

(١) J.V. Southworth, The Story of the World, P. 435.

(٢) H. G. Wells, A short History of the World, Harmondsworth, Pelican Books, 1956, P. 339.

خطة الحلفاء للتحرك العسكري من ناحية اليسار المكشوفة كان يعتورها نقص شديد.

"The French had never prolonged the Maginot Line beyond the Belgian frontier, and the plan of the Allies for a war movement on the exposed left was very incomplete".

ونحن نقدر تفهم «سوثورت» لموقف الملك ليوبولد الثالث، ونقدر في الوقت نفسه دوافع «ويلز» في موقفه منه، والذي يهم هو الحقيقة التي نخرج بها من تفهم موقف هذا وموقف ذاك، وهي أنه إذا كان الأمر كذلك فيما يتعلق بحدث ـ أياً كان مبلغه من الجسامة ـ له مقدماته التي لا ينبغي لمفكر أن يتجاهلها إذا كان يتوخى الموضوعية العلمية، فماذا ستكون الحال إذا كان الأمر يرتبط بالمعتقدات والإيديولوجيات وما بينهما من سياسات؟.

وهذا يلمثال كما قلنا يظهر جانباً واحداً من جوانب المسألة التي تتعقد أيما تعقد إذا حاولنا أن نعدد أمثلتها ومجالاتها على امتداد تاريخ الإنسان في عجزه القديم عن الحيدة الموضوعية التي تضيف إليه الإيديولوجيات المعاصرة والاتصال الحديث في كل يوم جدة وحدة.

ومن هنا نلاحظ أن فرعاً علمياً كالتاريخ وفلسفته أصبح لا يعنى فقط بتسجيل الواقع التاريخي كأحداث، وإنما يعنى أيضاً بالكيفية التي يكتب بها هذا التاريخ. وأن فرعاً علمياً آخر كعلم الاجتماع أصبح يدرس ويقارن الظواهر الاجتماعية من خلال منظور الايديولوجية التي التي ينتمي إليها الباحث، والفارق بين علم الاجتماع الماركسي ومدارس علم الاجتماع الغربي أوضح من أن نتناوله هنا بتفصيل. وهذه الكيفية التي يكتب بها التاريخ أو تعالج بها مسائل علم الاجتماع هي التي تنبي عن الخلفية الايديولوجية للباحث.

الرأي العام في منظور التاريخ :

إن مصطلح «الرأي العام» الذي لم يتداول إلا في العصر الحديث قد يضفي على مفهوم الرأي العام غلالة من الحداثة توحي بأنه لم يرتبط بحياة الناس إلا في حقبها المتأخرة على حين أن الظاهرة التي يطلق عليها هذا المصطلح قديمة قدم قدرة الإنسان على استخدام كلمة تعكس رأيه .

ولقد حاولنا حتى الآن أن نشير إلى بعض العناصر العامة التي يمكن أن يستخرج منها مفهوم للرأي العام، ولم نجد هذه العناصر في النطاقات المعاصرة فحسب وإنما عدنا إلى الوراء في خطى محسوبة ووقفنا إلى حين عند الفترة التي بدأ فيها معتقد شامل يطرح نفسه عبر كيان سياسي واسع يضم عناصر قومية مختلفة وذلك قبل ظهور قوميات العصر الحديث على النحو الذي تجلى ذلك فيه بطرح المسيحية نفسها كعقيدة للبشرية بأسرها، فابتدأنا كضرورة منهاجية بالقرن الرابع الميلادي وأغضينا عن اليهودية مثلاً رغم سبقها التاريخي في الوجود لكونها إيديولوجية مغلقة تطرح نفسها على قوم معينين يرون أنهم شعب الله المختار.

وظهرت في القرون التي سبقت المسيحية دعوات وفلسفات أخرى كثيرة في الاتجاه الديني ترتبط بمحاولة الإنسان إيجاد إله له والوصول إلى خالق الكون وهذه المحاولات قديمة قدم الإنسان منذ أن كان إنساناً بلا تاريخ مكتوب وبعد أن أصبح قادراً على تدوين تاريخه على ألواح أو جدران أو أوراق بردي . وطالما أنه كانت هناك آراء تحاول أن تتعدى نطاق العقل الذي انبثقت منه إلى عقول أخرى، ومع تعقد صور اجتماع الناس فإنه كانت هناك ولا شك محاولات لإحداث تغيير في رأي الآخرين يترتب عليها إعادة توجيه للمواقف التي لم تنحصر في النطاق الديني وإنما تعدته بالضرورة إلى السلوك الاجتماعي. وقراء التاريخ يقعون على هذه المحاولات وما يترتب

عليها من آثار في مسيرة البشرية في تاريخ مصر القديمة وبابل وآشور وما تلاها من حضارات.

فنرى مثلاً - إذا ما رجعنا إلى العهد القديم من الكتاب المقدس أن أنبياء بني إسرائيل كانوا يحاولون حيناً أن يسوغوا ما صنعه الحكام لدى جمهور الناس، ونراهم في حين آخر يحاولون التأثير في هذا الجمهور على نحو يؤثر في سلوك الحاكمين، ثم إذا ما انتقلنا بالنظرة إلى اليونان القديمة نجد أن تصريف الأمور فيها كان يقوم في الأساس على ما يراه الناس، أي على قدرة هؤلاء الذين كان بوسعهم أن يؤثروا في هذه الآراء أو يغيروها، ومن هنا تبرز الأهمية الخاصة الدور الذي كانت تلعبه الخطابة في ذلك العصر.

وإذا ما تجاوزنا النطاق الضيق نسبياً للمدينة اليونانية التي كانت فصاحة الفصحاء ومنطقهم يضفيان على وجه الحياة فيها قسماته، إلى الامبراطورية الرومانية التي كانت كياناً سياسياً Body Politic معقداً بالقياس إلى دولة المدينة اليونانية، نجد أن «الكلمة والخبر»، كان لهما أبلغ الأثر في تشكيل الرأي العام. وكانت الكلمة تنتقل من خلال الاتصال الشخصي من ناحية فضلاً عن أن الامبراطورية الرومانية استطاعت أن تبني لنفسها شبكة من الطرق تربط بين أطرافها المتنائية وأقامت على هذه الطرق مراكز لا يفصل بين الواحد والآخر منها، أكثر من مائة ميل روماني، وكل منها مزود بالجياد وما إلى ذلك بحيث يمكن للكلمة سواء أكانت مرسوماً إمبراطورياً أو أمراً عسكرياً أو غير ذلك أن تنتقل بسرعة كبيرة من أقصى الامبراطورية إلى أقصاها.

وفي مرور حضارة الانسان بما اصطلح المؤرخون على تسميته بالقرون الوسطى كان للحياة على وجه العموم طابع تلعب فيه مكانة الفرد دوراً بالغ الأهمية، وذلك بالنظر إلى الترتيب الهرمي الذي كان سائداً على المستويين الديني والمدني في انفصالهما أو تداخلهما. فإذا ما نظرنا إلى

المجتمع الأوروبي في تلك العصور وجدنا أن هذه الهرمية[1]. تزدوج على نحو أدى إلى صراع بين البابوات من ناحية وبين الأباطرة والأسر الحاكمة من ناحية أخرى. وكان على كل هذه الأطراف أن تحاول التأثير في الرأي العام كل بما أتيح له من وسائل تؤازرها السماء أو وسائل تؤازرها الأرض. وكانت الدعاية الدينية المليئة بالسياسة تتخذ أشكال المواعظ. وكان رجال الدين والأمراء والنبلاء لا يعدمون شاعراً مغنياً يتغنى بمعجزات القديسين وأمجاد الحاكمين، وكان هذا الشاعر المغني الجوال يسمى بآل تروبادود Troubadour ، وهي كلمة من التراث الضخم الذي ورثته الحضارة العربية لحضارة الغرب، إذ أنها مشتقة من الكلمتين العربيتين «دور طرب» اللتين قلبتا فأصبحتا «طرب دور».

ولما آذنت القرون الوسطى بانقضاء وبدأت أسوار مدنها تنهار كسمة مبكرة لظهور الدولة القومية كان العامة قد أتيح لهم قدراً أكبر من المعرفة والإلمام بالقراءة والكتابة مما أتاح للكلمة المكتوبة ـ ولو أن ذلك في نطاق لا يقارن بأي حال بما ساد في القرون التي تلت ذلك ـ تلعب دورها في التأثير في آراء الجموع والمساعدة في فرض صيغ اجتماعية أو سياسية أو دينية بعينها. وتعمق أثر الكلمة باختراع الطباعة، وازداد هذا الأثر خطورة عندما بدأ «مارتن لوثر»[2] في ثورته البروتستنتينية «يخاطب العامة بلغتهم بعد أن كانت الصفوة Elite من أصحاب الاتجاه الإنساني Humanists تستخدم اللغة اللاتينية في كتاباتها. وهذا يعني أن أفراداً بعينهم بدأوا يجتمعون تحت لواء أفكار أو مفاهيم بحيث يشكلون جماعات ذات آراء متسقة ومؤثرة تناجز بعضها البعض في كل ما يتعلق بحياة الانسان وفكره من أمور.

---

(١) انظر: إسماعيل علي سعد، نظرية القوة، الفصل الرابع.

(٢) انظر: James Atkinson, Martin Luther and the Brith of Protestantism, Harmandsworth,: Pelican Books, 1968.

ونلاحظ بعد ذلك أن كلاً من السلطة الدينية والسلطة المدنية حاولتا وتحاولان - بالرغم من تشابكهما حيناً وانفصالهما حيناً آخر - أن تخضعا كل مسألة ذات صلة بالتأثير في الرأي العام لضرب من ضروب الرقابة. ونمثل لذلك من الناحية التاريخية بأول مثلين لهاتين السلطتين في اتخاذ الرقابة التي فرضتاها شكلاً ظاهراً، ففي عام ١٥٥٩ أصدر البابا بولس الرابع أول قائمة Index Librorum Prohibitorium تحظر الكنيسة الكاثوليكية بمقتضاها تداول كتب معينة لا ينبغي للمؤمن في نظرها أن يقرأها، وتتمثل في هذا بالطبع محاولة السلطة الدينية فرض رقابة علنية على وسيلة من أهم وسائل نشر الفكر والتأثير في الرأي في ذلك العهد. كما أننا نجد أن شارل التاسع أصدر في عام ١٥٦٣ مرسوماً يقضي بأنه لا ينبغي أن يطبع أي شيء دون الحصول سلفاً على موافقة خاصة من الملك. وفي هذا تتجلى أول محاولة تقوم بها السلطة المدنية لفرض رقابة علنية على الكلمة المطبوعة.

ويلاحظ من ناحية أخرى أن هذه الكلمة المطبوعة كان تداولها في تلك الآونة مقتصراً على دوائر ضيقة نسبياً من الصفوات التي كان الأمر بيدها، وبدأت بعد ذلك بواكير ما انتهى بنا إلى الصحافة ومراكز الأخبار كما نعرفها في الوقت الحالي والتي تطلبت - كما تتطلب الآن - أشكالاً أو أخرى من الرقابة تتناسب مع ما تتناوله من موضوعات لها مساس بشتى جوانب الحياة وبما يدور فيها من صراع اجتماعي سياسي وخاصة تلك الأنماط من الصراع التي تدور بين الجماعات المؤثرة في مسيرة المجتمع أو المجتمعات وحروب العقائد والسلاح التي تنشب بينها. وقد تعقدت هذه الرقابة التي بدأت بقرار بابوي وبمرسوم ملكي، على مر الأيام وبتعقد أمور الحكم والسياسة في عالمنا المعاصر بحيث أصبح الظاهر منها والخفي يمارس بأكثر الوسائل علمية وتعقيداً.

وإذا عدنا بالنظرة إلى الوراء لنتأمل الفترة التي آذنت بانقضاء العصور

الوسيطة نجد أن الأمراء والنبلاء كانوا يعتمدون في حروبهم أول الأمر على أتباع Vassals ولكنهم اضطروا بعد ذلك إلى أن يستأجروا جنوداً ليقوموا بالقتال، وتطلب ذلك مبالغاً كبيرة من الأموال التي لم يكن في طوقهم تدبيرها عند نشوب الحرب مما جعلهم يقترضون هذه الأموال، وكان لا بد لمقرض المال من أن يحاول تبين مدى قدرة المقترضين على السداد الأمر الذي أدى إلى العمل على توفير المعلومات المتعلقة بالمقترض لدى الأوساط المقرضة، فنجد إذن أن هناك رأياً معيناً بخصوص أفراد معينين يجمع عليه مقرضو المال وكان هذا الرأي ولا شك يؤثر في قدرة الحكام على القيام بالحرب أو مواصلتها.

وأثر هذا الرأي الذي تعلق عند نهاية القرون الوسطى بأفراد يتولون أمور أنفسهم أو جماعاتهم، نراه بعد أن تعقد وتعقدت أحوال الدنيا والايديولوجيات من حوله بالغ الأثر فيما يتعلق بأمور الدول وخاصة دول العالم الثالث التي أصبحت القروض والتسهيلات التي تمنح لها والتي تستخدم في أغراض التنمية والتسليح وما إلى ذلك ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآراء التي تشكل عنها في الأوساط المهيمنة على عالم السياسة والمال[1] في عالمنا المعاصر من ناحية ومن انتمائها الايديولوجي من ناحية أخرى، سواء كان المقرض أو مانح التسهيلات مؤسسة يملكها أفراد أو منظمة من المنظمات كالبنوك وصندوق النقد الدولي والسوق الأوروبية المشتركة وليست أخبار اللجان التي يبعث بها البنك الدولي للإنشاء والتعمير لبحث واقع اقتصاد دولة معينة بمنأى عن مسامعنا.

ودون أن نستطرد في ذكر التفاصيل التاريخية التي أعقبت العصر الوسيط ينبغي لنا أن نشير إلى أن الثورة الفرنسية التي قامت بها جموع الشعب

(١) انظر: Fred Hersch, Money International, Harmondsworth, Pelican Books, 1964.

تعتبر فيصلاً بين رأي عام يحد في نطاق الطبقة البرجوازية وبين الرأي العام الذي يسود بين جموع الشعب الغفيرة، وإن كان هذا لا ينفي أن الرأي العام قد يرتبط في الأساس بمصالح الطبقة أو الجماعة أياً كانت تسميتها.

ومن محاولات تعريف الرأي العام المبكرة، المعبرة التي أوردتها دائرة المعارف البريطانية تلك التي قام بها الشاعر الألماني Christoph Wieland إثر قيام الثورة الفرنسية وما تلاها من أحداث جسام في أوروبا:

«إنني أفهم الرأي العام على أنه ذلك الرأي الذي يترسخ بالتدريج بين شعب بأسره وخاصة بين أولئك الذين يكون لهم أكبر تأثير إذا ما عملوا معاً كجماعة. والذي يكون على هذا النحو صاحب اليد العليا بحيث نلقاه في كل مكان. فهو رأي يستحوذ في خفاء على معظم العقول، ويمكن التعرف عليه حتى في المواقف التي لا يجرؤ فيها على التعبير عن نفسه صراحة، من خلال نبرات الهمس المكتوم الذي تعلو نبراته شيئاً فشيئاً، ثم لا يتطلب حينئذ سوى منفذاً صغيراً يتيح له متنفساً ليندفع في قوة. ويستطيع أن يغير كل الأمم في وقت قصير، ويعيد تشكيل أجزاء العالم بأسرها»[1].

وتضيف دائرة المعارف البريطانية أن الفيلسوف الألماني Christian Garve الذي كان معاصراً للشاعر Christoph Wieland يركز على الجانب العقلي للرأي العام إذ يقول: «إن الرأي العام كما يفسره أكثر الكتاب الفرنسيون وضوحاً في تناول الموضوع هو اتفاق الكثيرين من مواطني دولة ما أو غالبيتهم فيما يتصل بالأحكام التي يصل إليها كل فرد على حدة نتيجة لتدبره أو لمعرفته العملية لمسألة بعينها»[2].

ثم تضيف الدائرة أن الفيلسوف الانجليزي Jermy Bentham وهو أول

---

(١) انظر الملحق الرابع (a) في الملاحق الانجليزية.

(٢) انظر الملحق الرابع (b) في الملاحق الانجليزية.

من تناول مشكلة تعريف الرأي العام بالتفصيل في اللغة الانجليزية راعه ما يكتنف هذه المحاولة من صعوبات، فرأى أن هذا المصطلح ينبغي أن يراعي في استخدامه العرف العام، بمعنى أن محاولته تعريف الرأي العام ترتبط بالمجتمع الذي تجرى فيه هذه المحاولة.

ويحسن أن نقف بعرضنا التاريخي المقارن عند هذا الحد لننتقل بعد ذلك إلى محاولات التعريف الحديثة للرأي العام، وينبغي لنا أن نشير قبل هذا الانتقال إلى أنه قد يعن لبعض أصحاب المنهج أن يتساءلوا لماذا تأخرنا بهذا العرض التاريخي المقارن إلى ما بعد الاشارة إلى الرأي العام والايديولوجية ومحاولة تعريفهما وبيان علاقتهما ببعضهما البعض وما تنطوي عليه هذه العلاقة من عمليات اتصالية على سبيل الابتداء، والرد في بساطة هو أننا توخينا أن نعطي القارىء مؤشرات يستطيع بوساطتها أن يستكنه بعض جوانب ما يسمى بظاهرة الرأي العام أو ما يمكن أن يكون رأياً عاماً على نحو أو آخر من خلال هذا العرض التاريخي المقارن. فهذا العرض إذن في مكانه وإن تأخرنا بموضعه على غير ما هو مألوف.

الفصل الخامس

تعريف الرأي العام

- الرأي العام في النطاق المحلي .
- الرأي العام في النطاق الدولي .
- تعريف الرأي العام .

الرأي العام في النطاق المحلي:

إن ظاهرة الرأي العام هي من تلك الظواهر المجتمعية ذات الجوانب المتعددة، وهي على وضوح أثرها في موقف معين لا تلبث أن تراوغ منهج الباحث الذي يحاول أن يلم بها في شمول يستجمع كل جوانبها لا في موقف واحد وحسب، وإنما في كل المواقف التي يرى فيها آثار هذه الظاهرة وهي تحرك الأمور أو تفرض عليها مساراً أو آخر.

والإنسان في محاولته المستمرة للملاحظة والتوصيف والتقسيم والتعريف يجب أن يعرف الأشياء في قوالب ثابتة لها من الجمع والمنع ما يمكنه من فهم حقائقها على نحو لا تلتبس فيها ببعضها البعض. وواقع الأمر أن ثمة فوارق عديدة بين العلم بمعناه المعملي الذي إستطاع أن يهيىء لنفسه معاييراً تقف عند الحجوم والأوزان وما إلى ذلك من صفات أو خواص تقاس على نحو يتيح للباحثين في مجالاته أن يلاحظوا ويقننوا في يسر نسبي، وبين ما يسمى بالعلوم الإنسانية التي تتعرض بالدرس في مجالاتها المختلفة لظواهر تجاوز نطاقها وأحوالها وخواصها كل قدرة معملية على القياس، ويترك الأمر فيها إلى قدرة الباحث على رؤية العلاقات بين الأشياء واستكناه حقيقتها. وهذه القدرة فضلا عن اختلافها من إنسان إلى إنسان ترتبط أيضاً بالمنظور الذي يرى الباحث من خلاله الأمر المعين ويعالجه.

ومن هذا يتبين أن العقل الذي استطاع أن يبتدع معايير يقيس بها في المعمل قياسات يمكن أن تدعي لنفسها قدراً من الدقة، لم يستطع في نطاق العلوم الإنسانية أن يتيح لنفسه مثل هذه المعايير.

وتتجلى هذه الحقيقة أكثر ما تتجلى فيما حاوله ويحاوله الباحثون من تعريف لظاهرة «الرأي العام» فقد انقسموا ولا زالوا ينقسمون بعد طول عناء بين منكر لهذه الظاهرة، ومعترف بها على قصور في القدرة على تعريفها ومسلم بوجودها متصد لمحاولة تعريفها. والواقع أن هذا الإختلاف البين لا يروعنا في كثير، فإذا كانت المادة ـ Matter ـ التي اعتقد الباحثون لقرون طويلة أنها ثابتة في عناصرها الأولى على الأقل وحاولوا تعريفها على هذا الأساس قد كشفت في القرن الأخير عن إمكانية إحداث تغيير في تركيبها بحيث يستحيل العنصر إلى عنصر آخر، مما جعل الباحثين يعرفونها تعريفات مختلفة في أحوال مختلفة، فما الذي يمنع الباحثين في مجالات العلوم الإنسانية أن يتصدوا لتعريف ظاهرة معينة بتعاريف مختلفة إذا اختلف المنظور الذي نتناول منه هذه الظاهرة أو إذا اختلف السياق الذي توجد فيه. ونحن في رأينا هذا لا نناى عن الأصل في التعريف الذي يقوم على تقصي الصفات أو الخصائص المشتركة للأشياء مع استبعاد ما قد يؤدي منها إلى الخلط بين أشياء قد تشترك في سمات وتختلف من حيث الجوهر. فالعبرة إذن ليست في أن الظاهرة تختلف بعض سماتها أو بعض آثارها من مجال إلى مجال، وإنما العبرة في أن هناك خطوطاً من العلاقات الجوهرية تربط بينها بالرغم من اختلاف المنظور أو السياق.

وترتيباً على ذلك فإننا لا نتفق مع هؤلاء الباحثين الذين ينكرون ظاهرة الرأي العام ولا نقتنع بقصور الذين يعترفون بهذه الظاهرة ويحارون إزاء تعريفها، ونجد في كل تعريف وضع حتى الآن لهذه الظاهرة شيئاً منها وإن اختلفت هذه التعريفات، ولا قيمة إذن للإختلافات الموجودة بينها طالما أنها

لا تباعد بين الظاهرة وجوهرها. وحسبنا أن نلقي نظرة على الإتجاهات السائدة في تعريف الرأي العام، ثم نحاول أن نضع تعريفاً أقرب إلى الجمع والمنع بقدر ما تسعنا الطاقة. خاصة وأننا نلاحظ مع ولتر ليبمان [1] أن الإتجاه السائد، في النظم الديمقراطية هو أن الباحثين في مسألة الرأي العام يجنحون إلى الإلغاز من ناحية، ونلاحظ من ناحية أخرى أن العاملين في مجالات صناعة الرأي لا يعنيهم أن يقفوا ليعرفوا الرأي العام بنفس ما تعنيهم محاولة التأثير في ذلك الرأي، فالعاملون في مجال العلاقات العامة أو أولئك الذين يحاولون تهيئة رأي عام إنتخابي معين في الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها على سبيل المثال يصرفون جل همهم إلى التأثير في الرأي على نحو يهيىء الفرص لخدمة مصالح معينة أو تهيئة رأي عام إنتخابي معين.

ونحن نلاحظ أن الباحثين السياسيين وبعض المؤرخين يجنحون في دراستهم لظاهرة الرأي العام إلى التركيز على الدور الذي تنعكس آثاره على إدارة الدولة وتخطيط سياستها على نحو جعلهم ينظرون إلى الرأي العام وكأنه لا يختلف عن «الإرادة القومية»، وبهذا المعنى لا يمكن أن يكون هناك إلا رأياً عاماً واحداً إزاء قضية واحدة في وقت واحد.

وتعريف الرأي العام على أنه الإرادة القومية إزاء موضوع معين في زمن معين صحيح على الإجمال وإن كان لا يتعرض للكيفية التي صيغ بها هذا الرأي ولا العوامل البيئية والنظمية والتاريخية التي تشكل خلفية الأفراد والجماعات الداخلة في تكوين المجتمع الذي يتشكل فيه الرأي العام.

ويلاحظ في الوقت نفسه أن علماء الإجتماع يميلون إلى النظر إلى الرأي العام على أنه نتاج التفاعل الإجتماعي والإتصال. وهذا يعني أنه يرتبط

---

(١) انظر:

Walter Lippmann, Public Opinion, N. Y. Pelican Books, 1946, P. 191 seq.

بالمواقف المعينة التي يتخذها الأفراد والجماعات إزاء قضية معينـة والتي تشكل رأياً عاماً أو آراء عامة متعددة إزاء أي قضية أو كل قضايا المجتمع من خلال العمليات الإتصالية المتنوعة والمستمرة بين الأفراد والجماعات والتي تتعلق بكل شئون الحياة على ما فيها من تفاهة أو مالها من خطر، ولا يستطيع أحد أن ينكر على سبيل المثال أن اتباع نمط معين في الزي أو تصفيف الشعر يشكل معنى من معاني الرأي العام وما يصدق على ذلك ينصرف إلى أمور كثيرة في حياة الناس اليومية. وتناول الرأي العام بهـذه الـكيفية ومـن هذه الجوانب ينأى بهذه الظاهرة نسبيا عما يتعلق بأمور الحكم، ونقول نسبياً لأن هذه الجوانب ليست بمنأى تام عن الإقتصاد وعن أمور قد تكون ذات صلة بما هو سياسي، وإن كان تركيز علماء الإجتماع لا ينصرف في الغالب إلى شئون الإدارة والحكم.

واختلاف الأفراد والجماعات والأذواق يؤدي بالضرورة إلـى وجـود آراء عامة متعددة كما يستخلص ممـا أسلفنـاه، وهـذه الآراء تتفـاوت في الأهمية والخطر، وقد نستطيع أن نسمي بعضها رأياً عاماً مغلقاً، على ما في العمومية من ظهور وما في الإنغلاق من خفاء. ونقصد بالرأي العام المغلق مرحلة من مراحل تكوين الرأي يقتصر فيها الأمر على الهمس الذي يدور بين أفراد الأسرة الواحدة أو جماعة من الأصدقاء والذي يشكل رأياً عاماً ولكنه محدود الأثر وقد يتأتى له أن يخرج إلى الناس ويتسع نطاقه أو يبقى حيث هو كما هي الحال في النظم التي قد لا يتاح فيها لمثل هذه الآراء أن تطفو وتؤثر في النطاق السياسي أو الإيديولوجي.

الرأي العام في النطاق الدولي:

بدأ الإنسان مسيرته في هذا العالم وحيداً، أو يوشك أن يكون وحيداً، ثم دفعت به ضرورات الحياة ومقتضياتها إلـى أن يأتلف في جماعـة بدائية

تعقدت أحوالها بمضي الوقت من ناحية، وتحولت الجماعة إلى جماعات متفرقة لم يكن في وسعها أن تأتلف أو تختلف، إلا في حدود النطاقات التي تهيىء سبيل البقاء للأنسب كما يقول الآخذون بنظرية التطور. ولم تكن هناك وسيلة للإتصال من خلال رموز اللغة التي بدأت بسيطة ومباشرة وترتبط بما هو ملموس والتي قدر لها بعد ذلك أن تستحيل إلى أداة تؤثر التأثير كله في حياة الإنسان على كل مستويات حسه ووعيه وكل ما يتصل بوسائل عيشه وفكره. وقد أوفى القرآن العظيم على كل غاية في الدلالة البالغة التي تنطوي عليها الآية الكريمة التي تجمل ما نحاول التعبير عنه بهذه السطور:

﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[1]. فالمتأمل لمعاني هذه الآية الكريمة يستطيع أن يرى فيها الإنسان إذ بدأ وحيداً، وإنتقالته إلى الجماعة، والعبرة التي تنطوي عليها هذه الإنتقالة من إتصال الناس لتجد الحياة أسبابها وتسعى إلى مقاصدها، وما يترتب على ذلك من حسن إدارة لهذه الحياة إذا إستطاع الإنسان أن يستلهم المثل العليا لمعتقده التي تصلح من شأنه وترتب أوجه حياته.

وبنى هذا الإنسان الذي أُلقي به على درب الحياة وحيداً الحضارات التي دارت ودالت ثم توالت إلى أن انتهت جماعة الإنسان إلى عالم القرن العشرين الذي أوشك الإتصال فيه أن يلغي ما بين الأمم والشعوب من حدود، وتيسرت سبل هذا الإتصال ووسائله على نحو حدا بقائل أن يقول إن العالم قد تقلص حجمه. وكان على هذه الجماعة الإنسانية أن تسعى سعيها، على ما فيها من فوارق الجنس واللغة والمعتقد في سبيل تحقيق القدرة على الإئتلاف وموازنة المصالح بحيث تقل المنازعات وتنتهي الحروب.

---

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

واستطاع الإنسان أن يعطي نفسه قبل الحرب العالمية الثانية «عصبة أمم» ثم أعطى نفسه بعدها «هيئة أمم» يحاول من خلالها أن يتفق على رأي أو آراء بعينه الإجتماع عليها على التقليل من الأخطار التي تهدد أمن الإنسان وسلامته وقوته وثقافته وكل مقومات حضارته[1].

ويستبين مما أسلفنا أنه يستحيل على الإنسان أن ينغلق على نفسه في نطاق الجماعة التي تعورف على تسميتها بالدولة وأنه لابد لهذه الدولة أن تعيش وتتبادل المصالح على شتى المستويات في نطاق مجتمع دولي يتألف من دول العالم كافة. ولما كان لكل دولة أن تحاول تحقيق مصالحها القومية بالتعاون مع دول أخرى كان لزاما على هذه الدولة أن تحترم مصالح هذه الدول. واستطاع الإنسان في مسيرته الطويلة أن يهيىء من الوسائل ما يكفل له تهيئة المناخ الذي يلائم هذا التعاون فأوجد الأعراف والقيم والنظم والتنظيمات التي تعين على تحقيق ذلك، والتي تتمثل ـ على سبيل المثال ـ في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان[2] والقوانين والأعراف الدولية وهيئة الأمم المتحدة والأجهزة التابعة لها.

وإذا ألقينا نظرة على هيئة الأمم المتحدة بجمعيتها العامة ومجلس أمنها نجد أن العمل في تلك الجمعية وهذا المجلس يقوم على أساس عملية التصويت. وذلك يعني أن ثمة عمليات إتصالية لابد من أن تتم لتشكيل أو صياغة رأي معين قبل اتخاذ أي قرار من قرارات الأمم المتحدة والتي تتعلق كما هو معروف بكل ما يهم الجماعة الإنسانية كمجتمع دول. ويترتب على ذلك أن هناك رأياً عاماً دولياً يستطيع في أحوال كثيرة أن يؤثر فيما يسود العالم المعاصر من نظم وسياسات وإيديولوجيات.

---

(١) انظر الملحق الثاني من الملاحق العربية.

(٢) انظر الملحق الثالث من الملاحق العربية.

ولا يقلل من أهمية هذا الرأي أو شأنه أن الإنسان هو الإنسان ـ رغم جهده واجتهاده ـ وأنه كثيرا ما ينزع إلى التعدي والعدوان مدفوعاً بهوى المصلحة تارة وبعصبية العرق أو تعصب الإيديولوجية في تارات أخر. فإذا ما تجاوزنا الجمعية العامة للأمم المتحدة لنقف قليلا عند مجلس الأمن نجد أنه بحق لأي عضو من الأعضاء الخمسة الدائمين[1] في هذا المجلس أن يستخدم ما يسمى بحق الإعتراض Veto أو الفيتو إزاء أي قرار يجمع عليه غالبية الأعضاء الدائم منهم والمنتخب إذا لم يتفق هذا القرار مع مصلحتها أو هواها. والتاريخ القريب بما فيه من حرب باردة وسياسات الإستقطاب والأحلاف السياسية والعسكرية خير شاهد على المصلحة والرابطة بينهما وبين الإيديولوجيات المعاصرة في غير ما حاجة إلى بيان في القرارات التي يتخذها مجلس الأمن من ناحية والجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة من ناحية أخرى في شتى الأمور التي تتصل بقضايا العالم المعاصر والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بأمن الإنسان وحربه.

وغني عن البيان بالطبع أن للأمم المتحدة أجهزة عديدة استطاعت وتستطيع من خلال الإتصال والإتفاق أن تؤدي خدمات جليلة في مجالات ثقافة الإنسان وتنمية قدراته وصحته وأمنه ورعاية طفولته ولاجئيه من ضحايا الفكر وحروب الطبيعة والإنسان إلى ما غير ذلك مما يتجلى في أدوار منظمة «اليونسكو» UNESCO [2] ومنظمة الصحة العالمية WHO [3] ومنظمة الاغذية والزراعة FAO [4] والصندوق الدولي لرعاية الطفولة

---

(١) الأعضاء الدائمين في مجلس الأمن: الولايات المتحدة الأمريكية، واتحاد الجمهوريات السوفيتية والمملكة المتحدة وفرنسا وجمهورية الصين الشعبية.

(٢) United Nations Educational, Scientific & Cultural Organization.

(٣) World Health Organization.

(٤) Food & Agriculture Organization.

UNICEF [1] ووكالة الإغاثة والتشغيل UNERWA [2] .

والرأي العام العالمي - سواء انتهى إلى قرارات تتخذها أجهزة ومنظمات ولجان الأمم المتحدة أو أدى إلى التأثير في مواقف الجماعات الإنسانية من خلال قنوات الإتصال الكبرى أدواراً يلعبها العمل على تصفية الإستعمار والتصدي للإتجهات العنصرية وفرض الجزاءات على الدول كما هي الحال في حالة جنوب إفريقيا وروديسيا، وإن كانت مصالح بعض الدول وجماعات الضغط قد تقف أحياناً حجر عثرة في طريق استكمال هذه الجزاءات لفاعليتها، والمثل القريب الدال على ذلك تلك الفضيحة التي أثيرت في هذه الأيام في بريطانيا والتي يطلقون عليها إسم : Oilgate قياساً على فضيحة Water gate الأمريكية الشهيرة والتي كانت القشة التي قصمت ظهر الرئيس نيكسون - عندما تبين أن شركات النفط البريطانية كانت تقوم بإمداد روديسيا بالبترول بالرغم من قرار الحظر الذي فرضته الأمم المتحدة على ذلك عام ١٩٦٦. والإستخفاء بعمليات الإمداد هذه بالغ الدلالة على أهمية الرأي العام الدولي والمحلي معاً في السياسات المعلنة للحكومات التي كثيراً ما تضطر إلى تبني شعارات تخاطب بها مجتمع الإنسان، ثم تسلك سلوكاً مجافياً لروح هذه الشعارات أو ينبى عن الإنحياز في إطار فكري أو إيديولوجي معين كما هو الحال عندما نلاحظ أن الولايات المتحدة الأمريكية تعلن أنها تتخذ موقفاً متشدداً إزاء الدول التي لا تحترم فيها حقوق الإنسان وتنحي باللائمة على كوبا والاتحاد السوفيتي وتتبنى قضية المنشقين عليه، ثم لا تلبث أن تطيل إغضاء الطرف عما يجري في إيران أو نيكاراجوا وما يلقاه الإنسان من عنت على يدي دكتاتور يهدر كل الحقوق.

---

(١) United Nations International Children's Emergency Fund.

(٢) United Nations Relief & Work Agency.

ومن أقرب الأمثلة على اضطرار الإدارة إلى الإلتزام أمام الرأي العام السائد بين جماهير شعبها بقيم معينة، حتى فيما يتعلق بقضايا لا تصطبغ بالصبغة المحلية المطلقة ما نراه من أن الإدارة الأمريكية لم تستطع قبل انتهاء انتخابات نصف المدة التي أجريت في السابع من نوفمبر ١٩٧٨ Mid-term elections أن تؤيد الحكومة العسكرية التي شكلت في «إيران» على إثر الإضطرابات الأخيرة، ثم أيدت هذه الحكومة تأييدا كاملا بعد ذلك. ونحن نورد هذا المثل لدلالته البالغة على قيمة وأثر الرأي العام من ناحية وعلى أن ما ينتشر بين الشعوب أحياناً من قيم قد يتعارض مع تحقيق أهداف السياسات التي تنتهجها الحكومة وتضطر فيها إلى مراعاة مصالحها القومية بكل سبيل.

تعريف الرأي العام:

ويستخلص من هذا أن قيمة الرأي العام وأثره يتجليان كأوضح ما يتجليان في الفترات التي تسبق الوصول إلى الحكم أو تعاصر إجراء تغييرات تمسه، وهذا ينصرف بالطبع إلى الرأي العام بالمعنى المحلي وإن كان له أثراً أيضاً في الرأي العام العالمي. ويستبين من ناحية أخرى أنه يتمثل في المواقف المعلنة لأصحاب السلطة ومن هم في طريقهم إليها ضرب من ضروب التأثير في الرأي العام أو التأثير عليه، وأن استقرار السلطة يتيح لمتخذي القرار فرص استخدام وسائل الإتصال المتنوعة لتشكيل الرأي العام على نحو يسهل استبقاء أداة الحكم في أيديهم، على أنهم في ذلك كله يتقيدون إلى حد أو آخر بمقتضيات مصلحية وقومية وإيديولوجية معينة، وأنهم لا يستطيعون أن يتناطحوا جهرة وتحت غلالة الديمقراطية مع أماني الإنسان في جماعته المحلية والدولية.

وبعد أن انتهى بنا السياق إلى مناقشة الرأي العام الدولي الذي لاحظنا

أنه لم يحظ حتى الآن بما يستحقه من عناية الباحثين الأكاديميين لابد لنا من أن نحاول وضع تعريف يلم بأطراف ظاهرة الرأي العام على اتساعها الذي يتعدى النطاقات المحلية.

ولعل الأنسب أن نبدأ بتقصي العناصر التي تدخل في هذه الظاهرة أو ترتبط بها عنصرا عنصراً:

١ ـ **الافكار**: من الفكرة الواحدة إلى النسق الفكري (الإيديولوجية أو العقيدة).

٢ ـ **المواقف**: التي تترتب على الأفكار عند الأفراد والجماعات في النطاقات المحلية والقومية، والداخلية والخارجية.

٣ ـ **ونطاقات**: هذه المواقف تشمل كل ما يهتم به الإنسان أو يمس حياته كفرد ينتمي إلى نفسه أو إلى جماعته أو إلى جماعة الإنسان أو كنسق اجتماعي يشترك في سمات قومية وحضارية تحدد قضاياه وتصل أو تباعد ما بينه وبين الأنساق السياسية الأخرى في مجتمع الدول.

٤ ـ **إتفاق أو إتساق**: العدد الأكبر من الأفكار الكاملة أو المواقف في حدود موضوع أو موضوعات بعينها هو الحصيلة التي يعتد بها كحكم أو رأي إزاء هذا الموضوع أو هذه الموضوعات.

٥ ـ **وفاعلية**: هذا الإعتداد نلمس أهميتها على المستوى الرسمي في النطاقات الداخلية في الغالب وعلى المستوى غير الرسمي في النطاقات الخارجية في الغالب.

٦ ـ **دواعي المصلحة**: الفردية أو الجماعية أو دواعي الإنتماء الإيديولوجي هي الدوافع الحاسمة وراء محاولات صياغة وتعديل الرأي.

٧ ـ **صياغة الرأي والتأثير**: فيه يتمان من خلال عمليات الاتصال.

٨ ـ **أثر الرأي العام:** قد يكون جسيماً أو محدوداً تبعاً لمقدار القوة القادرة على تحقيق الإذعان والمتاحة لدى أصحاب القرار.

وهذا يعني أن الحاجة إلى القوة اللازمة لتحقيق الإذعان قد تتناسب عكسياً مع كفاءة الإتصال. وليس ثمة قيمة سلبية مطلقة للفشل النسبي في الإتصال إذا ووزن مثل هذا الفشل بالقدر المناسب من القوة المحققة للإذعان إذا كانت تلتزم بقيمة أخلاقية أو موضوعية.

ويعن لنا بصدد ما انتهينا إليه من اشتراط التزام القوة المحققة للإذعان بالأخلاقية والموضوعية أن نشير إلى أن غيبة هذا الشرط هي الفيصل بين الديكتاتورية المطلقة غير الواعية والفاشية من ناحية وبين الممارسة السياسية الإجتماعية التي تتوخى صالح الناس الذين قد لا يتأتى لهم في كل حال أن يعوا صالحهم في نطاق الجماعة كائناً ما قد تكون التسمية التي يطلقها المصنفون على النسق السياسي الذي تتم فيه هذه الممارسة. ومن الواضح أن الكثير من النظم الليبرالية تستعيض بادىء ذي بدء بالزيف والتزييف في العمليات الإتصالية عن إظهار ما لا بد لها من أن تنتهي إليه من استخدام لقوة القهر إذا باء زيفها أو تزييفها بالفشل.

وأحسب أنه يحق لنا بعد أن فصلنا التفاصيل، ثم حاولنا من خلال التجريد أن نحدد العناصر الداخلة في ظاهرة الرأي العام أو المرتبطة به أن نحاول وضع تعريف عام لهذه الظاهرة التي نلاحظ أن الباحثين وقفوا عندها حائرين وترددوا واختلفوا ولم ينتهِ بهم سعيهم إلى غاية تشفي غله. ولقد توخينا في تعريفنا ضرباً من البساطة غير المخلة، إذ تستطيع العين المتأملة أن تنفذ من خلال صياغتنا إلى الحقائق التي أقمنا عليها هذا التعريف خاصة بعد أن جردناها في العناصر الثمانية السالفة، والتي ننتهي فيها إلى أن الرأي العام عندنا هو:

«حصيلة أفكار ومعتقدات ومواقف الأفراد والجماعات إزاء شأن أو

شئون تمس النسق الاجتماعي كأفراد وتنظيمات ونظم ، والتي يمكن أن يؤثر في تشكيلها من خلال عمليات الاتصال ، التي قد تؤثر نسبياً أو كلها في مجريات أمور الجماعة الانسانية على النطاق المحلي أو الدولي» .

الفصل السادس

الدّعاية

- تمهيد
- الدعاية وتباين نطاقاتها
- الضغط العاطفي
- دعاية أم تعليم
- الدعاية غير المتعمدة
- الدعاية عن طريق الرقابة
- تعريف الدعاية

تمهيد :

بعد أن انتهت بنا محاولاتنا إلى وضع تعريف للرأي العام تتضح منه الصلة بين القوة بشتى ضروبها والإيديولوجية وهي صورة من صورها والإتصال وهو أداتها والرأي وهو هدفها، يتبين لنا أن الرأي العام هو ذلك الشيء الذي يستهدف صياغته وتشكيله والتأثير فيه أصحاب المصلحة من التجار وأصحاب الأفكار ومتخذي القرار.

وهذه المحاولة للتأثير في الرأي قديمة جديدة. وكما بينا في مواضع مختلفة من هذا البحث بدأت بالاتصال المباشر بين إنسان وإنسان بعد أن أصبح لهذا الإنسان لغة وأفكار، وانتهت في عصرنا إلى صناعة رأي يقوم على تكنيكات معقدة يحاول بواسطتها المشتغلون بتطويع العقول أن يجدوا من المداخل النفسية وغير النفسية ما يعين على تحقيق تغيير فعلي في مواقف الناس. وتزداد هذه التكنيكات ضراوة بالقدر الذي يزداد به عقل الإنسان قدرة واستنارة وعناداً، على نحو يمكن أن يقال معه بحق إن أبناء القرن العشرين واقعون ولا محالة تحت تأثير لا يقاوم لمحاولات تغيير الآراء والمواقف والتحريض الجمعي في عصر توافرت فيه أسباب القوة عند أصحاب الإيديولوجية المسيطرة بدرجة أظهرت أن القوة الفائقة المتاحة للمعسكرين اللذين يقفان على رأس العالم ألغت كل فعالية لقوة أحدهما إزاء الآخر على

المستوى الفيزيقي ولم يبق لهما إلا أن يتصارعا على المستوى الإيديولوجي. ومن ثم أصبحت شعوب العالم ودوله نهباً تتناول عقول أفرادها وجماعاتها المخالب الإتصالية للإيديولوجيات بعد أن اضطرت أو أوشكت أن تضطر إلى إغماد سيوف حربها ليحل همس الكلمات وضجيجها محل قعقة الأسلحة ودمارها. ولعلنا مع التفاؤل نرجو ألا يستعاض عن خراب البنيان بخراب الوجدان.

ولا ينبغي لنا على كل حال أن ندع الصراع الإيديولوجي، وإن كان بالغ الخطر في آثاره على مسيرة حضارة الإنسان، يفوت علينا فرصة رؤية الجوانب الإيجابية الهامة للعمليات الإتصالية. إذ لاشك أن الفكرة الطيبة والمعتقد الأصيل ما كان ليبلغ أي شأن في محاولة المصلحين من بني الإنسان لتهيئة المناخ الملائم لتقدم البشرية على دروب فكرها وحياتها. ولا ينبغي للفظة الإيديولوجية أو ما تضطر إليه الإيديولوجية من صراع يقوم في الكثير من جوانبه الهامة على الدعاية أو ما ارتبط بكلمة الدعاية من مدلولات سيئة، أن تنأى بنظرتنا عما قد تنطوي عليه الإيديولوجية أو المعتقد من مضمون يستهدف صالح الجنس البشري. ولا يستطيع أحد أن يزعم أن الإيديولوجية الدينية على سبيل المثال تستهدف الفرقة بين الناس. وما ارتبط بالإيديولوجيات الدينية من صراع وفرقة صبغت وتصبغ حقباً طويلة من التاريخ لا يرتبط في الأساس بمحاولة الإنسان الوصول إلى الله الحق بقدر ما يرتبط بما هو سياسي Political أو بما هو ممارسة لقوة سياسية Political Power أو نزوع لسلطان. إذ أننا نرى أن النسق الذي يقوم في أول الأمر على التركيز على ما هو روحي يستحيل بعد أن تكفل له القوة الروحية قدرة على التأثير في جموع الناس إلى نسق تغري فيه قلة من الناس أو صفوة منهم ـ مدفوعة بحب الإنسان للإنسان أو بحبه أو بتعصبه أو بعصبيته ـ بممارسة ضرب من القوة لا يقتصر على استلهام ما هو روحي أو إلهي. فتبرز إلى الوجود أنساق يتمثل فيها سلطان

الكهنوت الذي أعطى في تاريخ البشرية أمثلة واضحة على النأي الكامل عن جوهر المعتقد الخالص. ونلاحظ في هذه الأحوال أن الأنساق الثيوقراطية قد لا تختلف فيما تحاوله من تبشير عن الأنساق التي تقوم على إيديولوجيات وضعية فيما تتخذه من ضروب الدعاية والإعلان. وقد تبقى مشكلة الإنسان الفرد هي في إقناعه وإنكاره، أو في ضياعه واغترابه، بما هو أو بين ما هو معتقدي أو سياسي على التباس في الأمر شديد.

على أنه إذا قدر لصفوة الفكر بين البشر أن تستطيع تخليص نفسها من نوازع الهوى والغرض وأن تلتزم جادة العقل وروح التجرد، فإنها ستخلص ولا شك إلى أن الإنسان وإن لم يستطع في استكناهه لصفحة الكون المطروحة على عقله ووجدانه أن يهتدي إلى الطريق المؤدية إلى الله الواحد الحق لابد له، حتى يبقى، من أن يسلم بأن أبناء البشرية ينتمون إلى عالم واحد وإن تباينت انتماءاتهم المعتقدية عبر التاريخ بين جوبتر وأبوللو وآلهة الشرك في القديم وبين أوثان العصر الحديث التي تجري في عروقها الدماء وتستبد بها الأهواء، مع ضيعة الدين الحق بين فلسفات المتفلسفين وتهويمات المهومين.

وكلامنا هذا ليس من قبيل التعليق بقدر ما هو محاولة توصيف لواقع تاريخي هيأ ويهيىء أنسب مناخ ترتبط به الأهمية القصوى لعمليات الإتصال.

وننتهي إذن إلى أن «الدعاية» ركيزة من ركائز اجتماع الإنسان وسمة بارزة من سماته، سواء التبست أمور السياسة والمعتقد أم اتضحت، وسواء اختلفت المصالح أم التقت فما هي هذه «الدعاية» إذن؟ أهي مجرد الإعلان، الذي يقدم على أنه إعلان وتصحبه الموسيقى أو الرسوم على شاشات التليفزيون إبن القرن العشرين المدلل والذي يروج لسلعة أو لأخرى؟ أم هي ذلك البرنامج حسن الإخراج الذي يتسلل إلى وعيك مستهدفاً

تحييزك أو تحييدك ليضيف قوة إلى رأي معين أو ليستلب بعض قوة هذا الرأي؟ أم أن الدعاية هي الصحافة في إعلامها المباشر أو غير المباشر؟ أم هي الكتاب أو المرجع؟ أم هي غير ذلك؟ هي ذلك كله، وغير ذلك كله، في آن وفي غير آن.

لننظر إلى ما يعرف قاموس أكسفورد الدعاية Propaganda به. بدأ القاموس بتعريف ما اصطلح على تسميته بـ «الدعاية» The Propaganda معروفة بـ «ال» على أنه مجمع أو لجنة الدعاية وهي لجنة من الكرادلة يناط بها مهمة التبشير الخارجي، ثم مضى القاموس في تعريف «الدعاية» على أنها جماعة، أو خطة منظمة لنشر معتقد أو ممارسة، أو أنها التعاليم أو المعلومات التي تنشر على هذا النحو، أو أنها جهود وخطط ومبادىء هذا النشر. (١)

ويشير القاموس إلى أن كلمة Propaganda لفظة إيطالية مأخوذة عن اللاتينية الحديثة في التسمية "Congretio de Propaganda Fide" أي مجمع أو لجنة نشر العقيدة وهي اللجنة التي أنشأها البابا Urban الثامن في عام ١٦٣٣ لتتولى مهمة التبشير الخارجي والتي أصبحت كلمة «الدعاية» المقرونة بأداة التعريف The Propaganda تنصرف إليها كما يتبين من التعريف الأول للكلمة وترجع هذه اللفظة الإيطالية إلى الفعل اللاتيني Propagare الذي يعني إعادة غرس العسلوج ليعطي نبتا جديداً في مكان جديد ولا تزال هذه اللجنة تقوم بعملها في الفاتيكان حتى اليوم، وينظر إلى مهمة التبشير على أنها عمل نافع يتيح الفرصة لغير المسيحين ليتعرفوا على تعاليم المسيحية، وأنه

---

(١) (Congregation, College, of) the propaganda, Committee of cardinals in charge of foreign missions - 2 - Association, arganized scheme, for propagation of a doctrine or practice; doctrines, information, etc. thus propagated, efforts, schemes, principles of propagation.



لولا مثل هذا التدخل لما أمكن للمسيحية أن تجتذب إلى حظيرتها الكثيرين من الأتباع.

ومن الواضح في هذه الحالة أن الذين يقومون بالتبشير يعمدون إلى ذلك بعد تدبر، بمعنى أنهم يقومون بضرب من الدعاية الواعية المتعمدة والتي كانت ولا شك ترتبط بنية طيبة وقصد حسن.

الدعاية وتباين نطاقاتها:

ومشكلة الدعاية أو الدعوة في النطاق الديني تتمثل في أن الإنسان المعين يقف في السياق الحضاري أو التاريخي المعين عند حدود مفاهيم دينية معينة، ولا يسمح لنفسه أو لا يسمح له النظام الكهنوتي بأن يمد نظره إلى ما وراء هذه الحدود، وإن قدر له أن يدرس ما مضى كتاريخ فعلية ألا يأخذ بما تلى كمعتقد. ومن هنا ينشأ الصراع بين عقيدة ترى أنها أصيلة وعقيدة ترى أنها تضيف وتجري على سنة التطور. ولا نخرج بهذا من دراستنا لدين ودين آخر على سبيل المقارنة وحسب، وإنما نخرج به أيضاً من دراستنا المعتقدات المختلفة والسابق واللاحق في نطاق الدين الواحد. ولهذا نلاحظ من ناحية أن المعتقدات الدينية تجد نفسها مضطرة إلى الإستعانة بضروب من الدعاية[1] إزاء بعضها البعض، على حين أنه يتعين على هذه المعتقدات من ناحية أخرى أن تتصدى بالدعاية للأفكار الإلحادية التي تحاول بالدعاية أيضاً أن تقضي عليها.

وإذا كان للدين في وجدان الإنسان مكان ومكانة فإن قدرة الإنسان على استقراء صفحات الوجود والكون من حوله تزيدها رعاية وقوة وعمقاً وتقيمها على أساس متين، وما أروع القرآن العظيم في عمقه وإعجازه إذ يقول: ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه**

---

(١) انظر: G. Cronkhite. op cit.. pp. 79 - 80, 204.

الحق﴾[1] . وإذا كنا نلاحظ أن بعض أصحاب الإيديولوجيات يزعمون أن ما يدعون إليه منبن في وجدان الإنسان على نحو يجعلهم في غير ما حاجة إلى دعاية، وأن مسيرة التاريخ ستعكس ما في الوجدان على الوجود، فما هذا كله إلا من قبيل الدعاية.

ونستطيع مما أسلفنا أن نتبين معالم مجالين أساسيين من مجالات الدعاية وهما مجال الدعوة إلى الدين ومجال الدعوة ضد الدين على التباس بين مجالات الفكر ومجالات السياسة ولهذا أعطانا التاريخ ويعطينا أمثلة لا حصر لها من دعاة يمكن أن نفرق بينهم على أنهم دعاة دين أو دعاة سياسة. ولا نقول دعاة فكر أو أصحاب فلسفة. فالأفكار والفلسفات متوزعة هنا وهناك.

وارتبطت كلمة الدعاية كما أسلفنا في بدايتها الأولى بالدعوة التي تستهدف التقويم كما ترتبط عند بعض المفكرين بحسن الظن في قدرة الإنسان على فهم طبائع الأشياء والحكم عليها إذا أتيح له أن يفهم ويستخلص. فنلاحظ أن William Godwin يرى في كتابه Political Justice عام ١٧٩٣ أن الإنسان كائن تحكم سلوكه آراؤه. فالرزيلة خطأ، والأخطاء يمكن أن يقومها التعليم. ويقول جودوين: «أرني في جلاء لا لبس فيه أن التصرف على نحو ما معقول في حد ذاته، أو أنه موف لغايتي[2]، فستجدني التزم بكيفية التصرف هذه طالما بقيت الآراء التي تقترحها علي ماثلة في ذهني». ويصل جودوين باستدلالاته إلى النتائج المنطقية التي كان لابد أن ينتهي إليها فيقول: «وإذا ما جعلت مقتضيات العدل الواضحة في متناول كل قدرة... سيصبح النوع البشري كله معقولاً وفاضلاً. وسيكتفي

(١) سورة فصلت، الآية ٥٣.

(٢) غنى عن البيان أن الغاية في هذا السياق لا ترتبط بما هو دنيء.

المحلفون عندئذ بأن يوصـــوا[1] بالطريقة التي تسوي بها المنازعات. . . .
ثم أنهم سيكتفون أيضاً بدعوة المسيئين إلى أن ينصرفوا عن غيهم. . . .
وحيث يعترف الجميع بهيمنة العقل على هذا النحو، فإنه سيكون على المسيء أن يستجيب لتحذيرات السلطة وإذا ما عن له ألا يستجيب فإنه، وإن كان أحد لا يتحرش به يستشعر وطأة الضيق إزاء الرفض الواضح لمسلكه وأعين الناس التي ترصده وتحكم عليه على نحو يجعله راغباً في الإنتقال إلى مجتمع أقرب إلى موافقته في غيه.[2]

والقيمة الكبرى التي يربطها «وليم جودوين» بالعملية التعليمية ثم بلغة العصر، بالإعلام في محلها ولا جدال. ولكن الآمال الكبار التي يعلقها على العملية التعليمية تعكس حسن ظن يوشك ألا يجد له مبرراً في تاريخ البشرية قبل جودوين وبعد عصره بحوالي قرنين من الزمان. ولا يفوتنا أن نستحضر في الذهن ما سبق أن أشرنا إليه من أن بعض فروع العلم ومناهجه أصبحت في عصرنا ضروباً من ضروب الدعوة أو الدعاية.

ولفظة الدعاية التي ارتبطت في أول الأمر برغبة خيرة، أضفى عليها قرننا العشرون غلالة سيئة جعلها لا تعدو أن تكون في نظر الكثيرين سوى ضرب من ضروب الكذب المتعمد الذي يقوم به الفرد أو الجماعة في شتى مجالات الحياة بقصد التأثير في عقول الناس وتشكيل مواقفهم على نحو لا يتفق في كل حال مع ما هو صحيح وإنه لمما يؤسف حقاً أن نجد أن الإنسان، وهو المستهدف بكل أفانين الدعاية والإعلان امتحن ويمتحن في صميم معتقده على نحو أدى ويؤدي إلى اغترابه من ناحية، وإلى تواري القيمة الحقيقية من ناحية أخرى ويزيد من سوء ذلك أن أصحاب القيمة، بالحقيقة

(١) بمعنى أنهم لن يضطروا إلى إصدار احكام، على اساس أنه بعد بيانهم لجوانب الحق ومقتضيات العدل سيلتزم الناس بها.

(٢) انظر الملحق الخامس في الملاحق الانجليزية.

أو بالتوهم قد يجدون أنفسهم وهم في حمأة الدعاية والإعلان مضطرين إلى اتباع مناهج تعمد إلى الإخفاء أو الإلتواء حتى يستطيعوا أن يجابهوا خصومهم بفعالية وأن يبلغوا مقاصدهم. ونمثل لذلك ببعض الإيديولوجيات التي تعمد عند طرحها لمبادئها في مجال معين إلى الإستخفاء مرحلياً ببعض هذه المبادىء أو التعاليم إذا كانت تتناطح تناطحاً مباشراً مع معتقد سائد أو ضارب الجذور بين الناس أو في تراثهم إلى أن تستطيع أن تجتث شأفة هذا المعتقد آخر الأمر إن وجدت إلى ذلك سبيلا.

ويستدل من ذلك على أنه في عملية الدعاية أصبحت حقيقة المعتقد في حد ذاتها تأتي في مرتبة من الأهمية تتلو مرتبة الصورة التي يطرح بها هذا المعتقد، أو التي يعن لأصحاب المعتقد أن يطرحوها، على الناس. والجهل يلعب أهم دور في ذلك، إذ ما كان يتأتى لأصحاب الرأي أو الفكر أن يطرحوه على نحو لا يتمشى في كل حال مع واقعه ما لم يفترضوا سلفاً أن المتلقي يجهل أو لم يؤت بعد القدرة على أن يعلم بالرغم من أن ما يطرح عليه على نحو مغاير موجود في مصادره، ويحمد أصحاب هذا الرأي أو الفكر آلهتهم على أن البشرية في مجموعها ليست من أهل التقصي أو البحث كما يستدل من ناحية أخرى على أن المتلقي بخلفياته عنصر هام في حسابات صانعي الرأي ومطوعي العقول.

وإذا شئنا أن نحدد على وجه التقريب الفترة الزمنية التي بدأت كلمة «الدعاية» تلتبس فيها بشكل حاد الظلال السوداء التي تكتنفها فإننا نرجع في التاريخ القريب إلى الحرب العالمية الأولى[1] التي اتسمت فيها حروب الإنسان بطابع شامل واستخدمت أساليب الدعاية الكاذبة على أوسع نطاق، وعمد المتحاربون إلى تلفيق ونشر الكثير من الأضاليل والأخبار التي تجرد

---

(١) انظر: W. Lippmann, Public Opinion, PP. 81-83

الخصوم من إنسانيتهم وتربط بينهم وبين أكثر صور التعدي والتجاوز بشاعة .

وإن كانت هذه الأساليب والمناهج قد لعبت دورها إبان الحرب العالمية الأولى ، فإن الكشف عنها ، خلال الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى وسبقت الحرب العالمية الثانية أدى في حد ذاته إلى إحداث تغيير سلبي في مشاعر الناس إزاء المنتصرين من ناحية ، وإلى جعل المهزومين يعزمون على أن يستخدموا نفس الأساليب والمناهج بطريقة أفضل إذا ما أتيحت لهم الفرصة وبدأ الناس ينظرون إلى الدعاية على أنها شيء خادع يفترض الغفلة فيهم ويبتغي السبيل إلى عقولهم سواء أرادوا ذلك أم لم يريدوه . وترتب على ذلك محاولات عديدة وخاصة في الدول التي تقدمت أداتها الفنية لاستنباط مناهج جديدة أشد خفاء وأكثر فاعلية تحسن استخدام قنوات الإتصال ، وانتهى الأمر الى ارتباط الدولة الحديثة في صميم بناءاتها بهذه المناهج والأساليب على النحو الذي بيناه في غير موضع . وبدأت كلمة الدعاية في الحقبة الأخيرة تكتسب معان وظلال معان وتعبر عن مجموعة منوعة من الأساليب والنظم على نحو يجعل تعريفها أمراً صعباً إذا كان لنا أن نلمح آثارها ونستطيع التغلغل فيما وراء أقنعتها . ومع ذلك فإن معناها ظل يرتبط على وجه العموم بظلال السلب أكثر منه بظلال الإيجاب .

وبعد أن كانت هذه الكلمة تستخدم للدلالة على أن فرداً أو جماعة يحاولون طرح شيء ما على أفراد آخرين أو جماعات أخرى بقصد إخبارهم به وجلاء خصائصه أو نفعه ، باتت اليوم تعني ، فيما تعني ، إضفاء صفات غير حقيقية على شيء يطرح على المتلقي ، وعملية الإضفاء هذه وعملية التلقي ترتبطان الآن بتكنيكات تتعقد على نحو انتهى بهما إلى ما يطلق عليه «غسيل المخ Brainwashing» .

وإذا ما استرجعنا ما سبق أن بيناه في هذا السياق من الأهمية التي ترتبط

في عملية الدعاية بالمتلقي وخلفياته يتبين على الفور أن التعريف القاموسي الذي سبق أن أوردناه أصبح قاصراً، إذ أنه لم يتعرض للظلال والجوانب المعقدة التي ترتبط الآن بمصطلح «الدعاية». كما يتبين أن للدعاية خصائص أخرى وأن فعاليتها والشكل الذي تتخذه يرتبطان ارتباطاً وثيقاً ببناء المجتمع الذي تجري فيه وما هو متاح لهذا المجتمع من وسائل فنية.

الضغط العاطفي:

ولعل الذي يحدونا إلى محاولة الإضافة إلى التعريف القاموسي أن الدعاية أو من يقوم بالدعاية لا يتصدى في كل حال بنشر معتقد معين أو ممارسة معينة، إذ لا ينصرف ذلك إلى مضامين ما يحاول نهش عقولنا من أخبار وإعلان، ولا نستطيع القول بأن الذين يقومون بالدعاية إبان الحروب يحاولون إحداث تغيير فيما نعتقد إذ أنهم يوجهون في الحقيقة جهودهم إلى التأثير في عواطفنا أو كسب موافقتنا أو تحييزنا إلى جانب أو آخر.

وهذا يعني أن محاولة التأثير في العواطف أو ما يسمى بالضغط العاطفي، سواء أكان هذا الضغط يستهدف خلق شعور جمعي، سلبي أو إيجابي، إزاء شيء معين سواء كان يستهدف مجرد طرح آراء تقوم على أساس عاطفي، ليس شيئاً عارضاً في عملية الدعاية بل هو الشيء الأساسي فيها. إذ من الواضح أن مخاطبة العقل المجرد تتخذ في العادة أسلوباً أو منهجاً يختلف في الأساس عن اساليب الدعاية ومناهجها.

ويستدل على ذلك من أن النهج السقراطي في الإقناع، على سبيل المثال، والذي كان يقوم على توجيهه أسئلة إلى تلاميذه تهديهم إلى حلول المشكلات والمسائل التي كانوا يثيرونها، كان ينتهي بهم إلى الوصول إلى الحقيقة فيما يتعلق بهذه المشكلات أو المسائل ويحدث تغييراً فعلياً في آرائهم على أساس منطقي ودون ما محاولة للتأثير في عواطفهم. ولا يمكننا

في هذه الحالة أن نقول أن سقراط كان يقوم بدعاية بشكل أو آخر، في حين أنه من الواضح أن أصحاب الدعاية لا يلتزمون عادة جانب المنطق الصارم. وإذا ما طرحوا أسئلة فإنهم يطرحونها وقد تهيأت لها سلفاً في أذهانهم إجابات محددة، فضلا عن أنهم قد يطرحونها بتكتيك أو طريقة تكفل الوصول إلى هذه الإجابات المحددة. وينبغي أن نلاحظ أنه لا يمكن لأحد أن يحتج بما كان لسقراط من ثقة وثقل على أنه عامل من عوامل التأثير أو الضغط العاطفي. ونستخلص من هذا أن الدعاية لا تأخذ بالمحاجاة الأصيلة من جهة، وإنها وإن كانت تستهدف تغيير ما في العقول، فإن تغيير الآراء لا يرتبط في كل حال بالدعاية ونلاحظ أثر هذه التفرقة فيما يتوخاه أصحاب الإيديولوجيات من استخدام كلمة «الدعوة» بدلاً من كلمة «الدعاية» على ما هنالك من تلبس واضح بين المعنيين.

ونستطيع أن نستجمع الفوارق الواضحة بين المنهج السقراطي والمنهاج الذي يقوم في الأساس على الضغط العاطفي إذا ما ألقينا نظرة على أسفار العهد القديم ورأينا كيف يستخدم أنبياؤه فصاحتهم ليصرفوا بني إسرائيل عن عبادة الآلهة الزائفة ويوجهونهم إلى عبادة «يهوه» ويحاولون أن ينوهوا عما كانوا منغمسين فيه من ممارسات سيئة، فالواضح هنا أنه كان لهؤلاء الأنبياء غاية محددة يدعون إليها وأنهم يستخدمون في سبيل بلوغ هذه الغاية ما يسميه الباحثون «دفاعاً خاصاً» Special Pleading، كما أنهم كانوا يستخدمون أسلوب الوعظ والتهديد بما ستنزله العناية الإلهية من قصاص. ودعنا نتأمل الآيات التالية من سفر اللاويين، وهو السفر الثالث من البنتاتيوك أي أسفار موسى الخمسة:

﴿ ولا تصنعوا لكم أوثاناً ولا تقيموا لكم تمثالاً منحوتاً أو نصباً ولا تجعلوا في أرضكم حجراً مصوراً لتسجدوا له لأني أنا الرب إلهكم. سبوتي تحفظون ومقدسي تهابون. أنا الرب إذا سلكتم في فرائضي وحفظتم وصاياي

وعملتم بها أعطي مطركم في حينه وتعطي الأرض غلتها وتعطي أشجار الحقل أثمارها . ويلحق دراسكم بالقطاف ويلحق القطاف بالزرع فتأكلون خبزكم للشبع وتسكنون في أرضكم آمنين . وأجعل سلاما في الأرض فتنامون وليس من يزعجكم وأبيد الوحوش الرديئة من الأرض، في ولا يعبر سيف في أرضكم وتطردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف . يطرد خمسة منكم مئة ومئة منكم يطردون ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف . وألتفت إليكم وأثمركم وأكثركم وأفي ميثاقي معكم . فتأكلون العتيق المعتق وتخرجون العتيق من وجه الحديد . وأجعل مسكني في وسطكم ولا ترذلكم نفسي . وأسير بينكم وأكون لكم إلّها وأنتم تكونوا لي شعباً . أنا الرب إلّهكم الذي أخرجكم من أرض مصر من كونكم لهم عبيداً وقطع قيود نيركم وسيركم قياماً .

لكن إن لم تسمعوا لي ولم تعملوا كل هذه الوصايا وأن رفضتم فرائضي وكرهت أنفسكم أحكامي فما عملتم كل وصاياي بل نكثتم ميثاقي فإني أعمل هذه بكم أسلط عليكم رعباً وسلاً وحمى تفني العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم . وأجعل وجهي ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم . وإن كنتم مع ذلك لا تسمعون لي أزيد على تأديبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فأحطم فخار عزكم وأصير سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس . فتفرغ باطلاً قوتكم وأرضكم لا تعطي غلها وأشجار الأرض لا تعطي أثمارها وإن سلكتم معي بالخلاف ولم تشاءوا أن تسمعوا إلي أزيد عليكم ضربات سبعة أضعاف حسب خطاياكم أطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الأولاد وتقرض بهائكم وتقللكم فتوحش طرقكم . وإن لم تتأدبوا مني بذلك بل سلكتم معي بالخلاف فإني أنا أسلك معكم بالخلاف وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . أجلب عليكم سيفاً ينتقم نقمة الميثاق فتجتمعون إلى مدنكم وأرسل في وسطكم الوبا فتدفعون بيد العدو بكسري لكم عصا

الخبز تخبز عشر نساء خبزكم في تنور واحد ويرددن خبزكم بالوزن فتأكلون ولا تشبعون .

وإن كنتم بذلك لا تسمعون لي بل سلكتم معي بالخلاف فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطاً وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون لحم بنيكم . ولحم بناتكم تأكلون . وأخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم وألقي جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسي . وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم . وأوحش الأرض فيستوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها . وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خربة . حينئذ تستوفي الأرض سبوتها كل أيام وحشتها وأنتم في أرض أعدائكم . حينئذ تسبت الأرض وتستوفي سبوتها . كل أيام وحشتها تسبت ما لم تسبته من سبوتكم في سكنكم عليها . والباقون منكم ألقي الجبانة في قلوبهم في أراضي أعدائهم فيهزمون صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضهم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم والباقون منكم يفنون بذنوبهم في أراضي أعدائكم . وأيضاً بذنوب آبائهم معهم يفنون .

لكن إن أقروا بذنوبهم وذنوب آبائهم في خيانتهم التي خانوني بها وسلوكهم معي الذي سلكوا بالخلاف وإني أيضاً سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض أعدائهم إلا أن تخضع حينئذ قلوبهم الغلف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم[1] .

ثم الآيات التالية من «سفر العدد» وهو السفر الرابع من البنتاتيوك أيضاً:

---

(١) سفر اللاويين، الاصحاح السادس والعشرون، الآيات ١ - ٤١.

«أو أقام إسرائيل في شطهم وابتدأ الشعب يزنون مع بنات موآب. فدعون الشعب إلى ذبائح آلهتهن فأكل الشعب وسجدوا لآلهتهن. وتعلق إسرائيل ببعل فغور. فحمى وغضب الرب على إسرائيل فقال الرب لموسى خذ جميع رؤوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل. فقال موسى لقضاة إسرائيل اقتلوا كل واحد قومه المتعلقين ببعل فغور وإذا رجل من بني إسرائيل جاء وقدم إلى إخوته المديانية أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع. فلما رأى ذلك فينحاس بن العازار بن هرون الكاهن قام من وسط الجماعة وأخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجل الاسرائيلي إلى القبة وطعن كليهما الرجل الاسرائيلي والمرأة في بطنها. فامتنع الوبا عن بني إسرائيل. وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين الفا.

فكلم الرب موسى قائلا. فينحاس بن العازار بن هرون الكاهن قد رد سخطي عن بني إسرائيل بكونه غار غيرتي في وسطهم حتى لم أفن بني إسرائيل بغيرتي»[1].

ولئن كنا قد اكتفينا في الإستشهاد بإيراد النصين السالفين من الأسفار الخمسة الأولى في العهد القديم، فإن بقية أسفار هذا العهد توفي في مجموعها على الغاية في هذا الصدد. وواقع الحال أن أسلوب الدعوة، الذي ينطوي على الضغط العاطفي بوسائله المختلفة يتناسب ولا شك مع حال الإنسان ومع سلوكه الذي لم يعكس في كل حال عبر تاريخه الطويل القدرة على الإستجابة إلى منطق العقل ومقتضيات الضمير.

وينبى ما استشهدنا به، وكما هي الحال دائماً فيما قد نعرفه بالإيديولوجية، بأن الداعية إذ يتصدى لخلق مواقف معينة لدى المتلقين،

---

(١) سفر العدد، الاصحاح الخامس والعشرون، الآيات ١ ـ ١١.

يحاول في الوقت نفسه أن يزيغ غيرها من المواقف التي لا تتفق مع دعواه، أي أنه بقدر ما يعنيه أن ينشر معتقداً معيناً أو ممارسة بعينها يعنيه في الوقت نفسه أن يجتث شأفة ما يتضاد مع هذا المعتقد أو تلك الممارسة.

دعاية أم تعليم:

ويترتب على ذلك أننا لا نستطيع أن نستخدم لفظة «الدعاية» في مجالات ما يعرف على أنه إيديولوجي إلا إذا توافرت بدائل تتجه الدعاية إلى إزاغتها أو القضاء عليها. أما الدعوة إلى معتقد معين في نطاق يهيمن فيه هذا المعتقد دون بديل لا يمكن أن تكون من قبل الدعاية، وإنما تكون من قبيل التعليم.

وهذا يلفت نظرنا، إذا ما نحينا الجانب الإيديولوجي جانباً إلى أنه من الممكن أن تستخدم لفظة الدعاية في الحالات التي يستهدف فيها محاربة ممارسات أو عادات أو أعراف سيئة كالتدخين مثلاً أو شرب الخمر أو ما يصحب بعض الممارسات الإجتماعية من تقاليد ما أنزل «الله» بها من سلطان، وكلنا يلمس ذلك في الحملات التي تقوم بها الأجهزة المختلفة بين حين وآخر للدعاية ضد شيء معين، أو للدعوة إلى شيء قد لا يكون له بديل ظاهر وإنما يكون متضمناً فيما يقوم به الداعين من دعوة أو دعاية.

ولا جدال في أن سبل الإتصال الحديث ووسائله أضافت كما سبق أن أسلفنا فعالية غير محدودة الأثر أو النطاق للدعاية. وإذا قصرنا النظرة على الكلمة المطبوعة كوسيلة من أهم وسائل الدعاية وأبقاها أثراً، خاصة بعد انتشار الإلمام بالقراءة والكتابة والمحاولات الدائرة للقضاء على الأمية، فإنه يحق للكتاب، ونحن أبناؤه أن يتصدر قائمة ما نهتم به، ولا يعبر ذلك عن إنحياز من جانبنا إذ أن الكتاب بالفعل هو أكثر أشكال الكلمة المطبوعة دواماً وأبقاها أثراً برغم ما للأشكال الأخرى كالصحافة مثلاً من قدرة على الإبهار وإحداث الأثر المباشر.

الدعاية غير المتعمدة :

وقضية الكتاب تثير مسألتين ، أولاهما مسألة ما يسمى بالدعاية عن غير وعي أو دون عمد، والثانية مسألة الرقابة . وهما مسألتان لا ترتبطان بالكلمة المكتوبة وحسب ، وإن كانت الرقابة على الكلمة المطبوعة أيسر منها على الكلمة المتداولة بين الناس . ولكي نمثل لذلك فإننا نلاحظ أن الكتاب الأقدمين اكتسبوا انتشارا أوسع بعد عصر الطباعة من ناحية وأن مؤرخاً «كهيرودوت» ، من ناحية أخرى ، إكتسبت له كتاباته إسم أبي التاريخ ، ويرى البعض في عصرنا الحديث أنه لم يكن سوى داعية منحاز إلى الدولة الأثينية ، شأنه في ذلك شأن المرتزقة من صحفي القرن العشرين . وواقع الحال أن هيرودوت لم يكن على وعي بانحيازه لدولة مدينته ، ولم يكن يستطيع في تلك الحقبة أن يعطينا معلومات موضوعية عما سواها من بقاع العالم التي كانت غير معروفة آن إذن أو التي لم تكن مربوطة ببعضها البعض بوسائل الإتصال المختلفة التي طورها الإنسان في مسيرته الطويلة . وهذا يعني أنه كان يقوم بدعاية عن غير وعي للدولة الأثينية . وهذا الضرب من ضروب الدعاية عن غير وعي يقوم كما هو واضح على جهل الداعية النسبي بما هو واقع خارج نطاقات إتصاله أو قدرته على الإتصال . على أن أصحاب بعض الإيديولوجيات في عصرنا الحديث يعمدون إلى تعقيد هذا المفهوم البسيط للدعاية عن غير وعي إذ يرون أن ما يعتقدون منبث في وجدان الانسان وسوف يتيح له سير التاريخ أن ينعكس في عالم الواقع . وهم بذلك ، وإن كانوا يميلون إلى الإعتقاد بأنهم أصحاب عقول تقف عند حدود المنطق ، يجنحون إلى ضرب من ضروب الغيبية الواضحة .

والكلام في مسألة الدعاية عن غير وعي على النحو الذي اسلفناه يجرنا بالضرورة إلى المسألة الثانية وهي مسألة الرقابة إذ من الملاحظ أن التعبير الحر عن الأفكار كان عبر التاريخ شيئاً بالغ الندرة ، ولا يزال كذلك ، وإن

هذا التعبير الحر لم يكن بأي حال مرادفاً للموضوعية التي يدعيها الكثيرون ولا يلتزمها أحد. إذ من الواضح أنه لم يكن من المتاح في ظل ما يسمى بالنظام القديم، في تاريخ الإنسان أن يعبر أحد عن رأيه خارج نطاق معين أو خلفية معينة ترتبط بالسلطة والسلطان وأنه عندما سادت أنساق أفكار معينة في فترات معينة كانت الحقيقة في نظر الناس هي تلك التي تطرحها هذه الأنساق، خاصة وأن عملية الطرح هذه، أو الدعاية إن شئت، كان يقوم بها المتعلمون أو الصفوة المسيطرة في مجالات السلطة بالمعنى المعتقدي أو السياسي. ونستطيع أن نقرأ ذلك كله في جلاء في صفحة التاريخ القديم والوسيط على قصور أداته، وأن نستشفه في عناء من صفحة التاريخ الحديث على تقدم أساليبه. وتبقى الأصرة التي تربط ما بين الإنسان والجهالة صديقته القديمة هي من حيث القوة والقدرة على وضع القيود على العقول، على نحو لا زال يظهر ويدل على أن الحقيقة بالنسبة للجماهير تنبع من السلطة ولا ترتبط إلا في القليل بما يقيم وعيهم الدليل عليه أو بما ينتهي إليه التفكير المستقل. وعلى هذا فقد مورست ضروب الرقابة المختلفة في القديم والحديث مع اختلاف في الحجة والتبرير، وكلنا يعرف أنه قد قضي على سقراط بأن يموت بالسم لاتهامه بإفساد الناشئة، بينما كان يحاول في حقيقة الأمر أن يعلمهم كيف يفكرون ويستقلون بآرائهم.

ويتضح من هذا أن الدعاية ترتبط ارتباطاً وثيقا بأشكال الرقابة التي تحاول ألا تفسح أي مجال لظهور أفكار بعينها أو القضاء عليها لصالح أفكار أخرى تقوم عليها أو تتبناها السلطة المهيمنة.[1]

وكلامنا هذا، مع دلالته على غيبة التدفق الحر للأفكار لا ينطوي

---

(١) انظر في محاولة السلطة أو النظام الدفاع عن نفسه عن طريق الدعاية:

G Mosca, The Ruling Class, U. S. A. McGrow-Hill, 1939, PP. 315-319.

بالضرورة على معاني الجور في جانب السلطة أو معاني الفساد في جانب الأفكار. وإنما هو إشارة لصراع القوى الداخلة في تركيب المحصلة التي نسميها بالقوة السياسية، إزاء بعضها البعض في النطاق الواحد وبين المحصلات المختلفة في النطاقات المختلفة، أما الجور والفساد فيقاسان بمعايير أخرى.

وإذا كانت الدعاية ترتبط كما بينا بحظر نشر بعض المعلومات عن طريق فرض رقابة، فإن ذلك لا يعني أن مثل هذا الحظر يرتبط دائما بالدعاية كما هي الحال فيما نلاحظ في تاريخ الإنسان من انغلاق بعض الطبقات والأنظمة الكهنوتية ومحاولتها حجب أسرارها عن العامة الذين قد يضارون - في رأي أصحاب الكهانة - إذا أتيح لهم أن يطلعوا على ما لا يستطيعون فهمه. ومن ناحية أخرى فإن الدول جميعها تحتفظ في العادة بأسرار معينة تحول دون تسربها حفاظاً على مصالحها القومية. بيد أن هذه الوصاية الفكرية التي يفرضها الكهنوت من ناحية أو الرقابة على الأسرار القومية من ناحية أخرى، كثيراً ما يساء استخدامها على نحو لا تتأدى معه الأغراض المعلنة التي تبرر اتباعهما.

وهذا الذي نقول انطبق على ما ساد المجتمعات البشرية منذ عهودها الأولى، ولا عبرة في ذلك لما طرأ على هذه المجتمعات من اختلاف في أبنيتها الإجتماعية السياسية، فإن رجعنا إلى وراء وألقينا نظرة على مصر القديمة وبابل وآشور نلاحظ صدق ما نقول. وإذا تقدمنا إلى أمام حتى قرننا العشرين فإننا لا نعدم كهانات الكهان واستغراق الأجهزة الإنفصالية للدول في عمليات توعية لا تعدو أن تكون تعمية.

الدعاية عن طريق الرقابة

يتبين مما سبق أن «الدعاية»، تتم في العموم بإحدى طريقتين، إما بنشر

المعلومات أو بحجبها جزئياً أو كلياً. وهذا الحجب يتم من خلال العمليات الرقابية المتنوعة، وتتمثل هذه العمليات الرقابية في اتجاهين أساسيين، أولهما ما يسمى بالضبط الإنتقائي للمعلومات الذي يترتب عليه طرح وتعزيز وجهة نظر معينة، وثانيهما التلفيق المتعمد للمعلومات على نحو يكفل إحداث انطباع يغاير القصد الأصلي منها.

ويتمثل الضبط الإنتقائي للمعلومات، فيما سبق الإشارة إليه عن قائمة حظر الكتب Index Librorum Prohibitorum الشهيرة التي ترجع إلى القرن السادس عشر والتي تشمل كل الكتب التي ترى لجنة القائمة، أنها تشكل خطراً على المعتقد الروحي الكاثوليكي والتي تضم كتباً تعد من معالم الطريق في تطور الفكر الإنساني. وبعض هذه الكتب وضع في هذه القائمة ثم أزيل الحظر عنه بعد ذلك جرياً على مقتضيات الضرورة بيد أنه قدر لكتب كثيرة لعدد كبير من أعلام الفكر الغربي وغيرهم أن تضاف إلى هذه القائمة دون رجعة، وأصبح من المتعين على أي كاثوليكي ألا يقرأها. وغني عن البيان أنه قد يسع أي إنسان أن يزعم أن فلسفات «كانت وهيوم»، على سبيل المثال لا تعدو أن تكون مجرد هراء، ولكنه لا يستطيع أن يدعي بأي حال أنه يلم بالفلسفة أو تاريخها دون أن يعرف شيئاً عن هذه الفلسفات.

كما يتمثل التلفيق المتعمد، فيما يلاحظ في القديم والحديث من أن أصحاب الايديولوجية أو السياسة يعمدون في عرضهم الأفكار أو الآراء أو مواقف خصومهم ومعارضيهم إلى حجب بعض الحقائق أو الأمور بحيث يتركون لدى الناس إنطباعات تخالف تلك التي يستهدفها هؤلاء الخصوم أو المعارضون.

وهذان الإتجاهان السائدان في مجال الدعاية بواسطة الرقابة يتبعان في كل المجالات المرتبطة بالنشاط والصراع الدائر في مجتمع الإنسان، وإن كان عرضنا يجنح دائماً إلى تناول الأمور في منظورها الحضاري

الشامل، فإنه ينبغي أن نلفت النظر إلى أن ما يصدق على البناءات النوعية في المجتمعات يصدق أيضاً على الأفراد كأفراد، ولعل ذلك لا يغيب عن بديهة القارىء، على أن يربط بين ذلك كله - من حيث الأثر - وبين ما طرأ ويطرأ على الإتصال وقنواته ووسائله من تطور جسيم عبر القرون.

ولئن كنا قد فضلنا في تناولنا للكلمة المطبوعة أن نبدأ بالكتاب لسبقه التاريخي ولبقاء أثره، فإننا ينبغي أن نثني بالكلام عن الكلمة المطبوعة كصحيفة وليس لنا في هذا المجال أن نتتبع تطور الصحافة ونشأتها لأن هذا التطور سلك دروباً مختلفة إلى حد كبير في المجتمعات المختلفة بصرف النظر عن السمات المشتركة التي تميز هذه الوسيلة الإتصالية الهامة والمتداخلة مع وسائل الإتصال الأخرى في عصرنا الحاضر. ولكن الذي يعنينا على وجه العموم هو أن الصحافة التي بدأت ضيقة النطاق والأثر إتسعت مجالاتها الآن على نحو يجعلها تلعب أدواراً بالغة الأهمية في الدعاية وصياغة الرأي العام على المستويات المحلية والقومية والدولية في شتى مجالات النشاط الإنساني الواسع. ويعنينا في هذا السياق أن نشير إلى الضوابط التي تفرض على ما تتناوله الصحف بأنواعها المختلفة. والضابط القديم الجديد يتمثل في الرقابة التي تفرضها النظم المهيمنة من ناحية والضوابط التي تفرضها ضرورات الإعلان أو الدعاية من ناحية أخرى. فالمعلنون يهتمون عادة بشراء مساحات في الصحف ويهمهم أن تكون هذه الصحف واسعة الإنتشار. وقد لا يتأتى للصحيفة السيارة التي لا تستند في الأساس إلى مؤازرة إيديولوجية معينة، أن تكون واسعة الإنتشار ما لم تحاول تحقيق نوعاً من الحيدة النسبية التي تسوغها لدى القراء على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم، مما يحدونا إلى تأمل أثر الدعاية التجارية في الحيدة الفكرية النسبية لبعض الصحف واسعة الإنتشار ولنا أن نلاحظ أنه كلما اتسع نطاق توزيع الصحيفة المعينة بحيث تشمل النطاق القومي وتتعداه إلى ما

خارجه، كلما ازدادت الحيدة النسبية لهذه الصحيفة. ولكننا نلاحظ في الوقت نفسه أن هذه الصحف قد تربط نفسها بمصالح المعلنين تبعاً لقوتهم ونفوذهم على نحو يحيز هذه الصحف نسبياً إلى اتجاه أو آخر أو إلى إيديولوجية أو أخرى. والصحافة كظاهرة على وجه العموم ترتبط في الأساس بالسياق الحضاري الذي تنبع منه وتمثله.

تعريف الدعاية

يظهر العرض السابق أن الدعاية لها سمات وترتبط بعناصر غير تلك التي يستطيع المرء أن يخرج بها من التعريف القاموسي لها الذي أوردناه في مستهل هذا الفصل. وعلينا لذلك أن نلقي نظرة على بعض التعريفات الأخرى للدعاية التي وضعها الباحثين في علم النفس الإجتماعي الذين اهتموا بتناولها تناولاً علمياً. فالباحث الامريكي Kimball Young يعرف الدعاية على أنها: «. . . هي استخدام الرموز على نحو متعمد، منظم ومخطط، من خلال الإيحاء أساساً وما يتصل به من تكنيكات نفسية، بقصد تغيير وضبط الآراء والأفكار والقيم وتغيير الأفعال الظاهرة في نهاية الأمر عبر خطوط حددت سلفاً. وقد تكون الدعاية واضحة والقصد منها معلناً أو قد تستخفي بمقاصدها. وهي تقع دائماً في نطاق إجتماعي ثقافي لا يمكن بدونه أن تفهم ملامحها النفسية أو الثقافية»(١).

أما الباحث Leonard W. Doob فيعرف الدعاية على أنها «هي المحاولة المنظمة التي يقوم بها فرد أو أفراد ذوو مصلحة لضبط مواقف مجموعات من الأفراد باستخدام الإيحاء(٢) وبالتالي ضبط أفعالهم»(٣).

---

(١) انظر الملحق السادس (a) في الملاحق الانجليزية.

(٢) لما كان الايحاء وما يرتبط به من أهم ميكانيزمات الدعاية رأينا أن نورد نصاً منفصلا له، انظر الملحق السابع في الملاحق الانجليزية.

(٣) انظر الملحق السادس (b) في الملاحق الانجليزية.

ثم يعرفها بعد ذلك متناولاً مضمونها على أنها: «هي محاولة التأثير في الشخصيات وضبط سلوك الأفراد في اتجاه غايات تعتبر غير علمية أو مشكوك في قيمتها في مجتمع ما في فترة معينة». والتعريف على هذا النحو يبدو غير كاف، إذ من هو الذي سيقرر ماهية الشيء الذي يشك في قيمته في وقت معين، والواضح أن المجتمع نفسه هو الذي يفصل في ذلك، إذ أن «دوب» يستطرد قائلا: «. . . إن نشر وجهة نظر يعتبرها البعض سيئة أو غير عادلة أو قبيحة أو غير ضرورية هو دعاية بمعايير هذا البعض»[1].

وإن كان مثل هذا التعريف يعرض مفهوماً من مفاهيم الدعاية كما يراها البعض إلا أنه من الواضح أنه لا يستوفي كل جوانبها، فإذا ما استحضرنا في الذاكرة حملات الدعاية التي تستهدف غايات فيها صالح للمجتمع، وكذلك الأشكال المختلفة التي تأخذها الدعاية نجد أن التعريف لا يوفي على الغاية.

أما القول بأن الدعاية تتم في نطاق إجتماعي ثقافي يربط فيما يبدو بين الدعاية والتعليم. وسبق أن بينا أن المادة المطروحة لا يكون غرضها من قبيل التعليم إلا إذا كانت تطرح وحدها دون بديل لها، أما إذا كان القصد من طرحها إزاغة بديل أو بدائل لها فإن عرضها يكون من قبيل الدعاية والكلام عن الشيء الواحد يمكن أن يكون تعليماً في حين، ثم يصبح بعد ذلك دعاية. ومثال ذلك أنه عندما تسود نظرية معينة في وقت معين فإن محاولة نشرها بين الناس تكون من قبيل التعليم طالما أنه ليس هناك بديلاً لها؛ فإذا ما أتت الأيام بنظرية أخرى تغايرها فإن عرض هذه النظرية الجديدة يجعل الكلام عن كلتا النظريتين من قبيل الدعاية.

والتفرقة بين التعليم والدعاية[2] في هذا المجال قد تكون أمراً

---

(١) انظر الملحق السادس (c) في الملاحق الانجليزية.

(٢) انظر تعريف مقتضب للدعاية في:

C. Wright Mills. The Sociological Imagination. Harmondsworth, Pelican Books. 1977, P. 212.

ميسوراً ، إذ أن التعليم يستهدف خلق القدرة على الحكم المتجرد ، بينما نقدم الدعاية لهؤلاء الذين لا يعملون تفكيرهم أحكاما أو آراء أعدت سلفا . وبينما يحاول المربي أن يطور في المتلقي قدراته التي يستطيع بها الحكم على الأشياء وقد يستغرق ذلك وقتاً طويلاً ، فإن الذي يقوم بالدعاية يستهدف تحقيق نتائج عاجلة ؛ فالمربي إذن يعلم الناس كيف يفكرون ، أما الداعية فيطرح عليهم ما ينبغي من وجهة نظره أن يفكروا فيه . فمهمة الأول هي خلق المسئولية الشخصية والعقل المتفتح ، ومهمة الثاني هي محاولة جعل العقل ينغلق من خلال أساليب الدعاية التي تسمي بالتأثيرات الجماعية وينبغي لنا أن نشير إلى أن التفرقة بين التعليم والدعاية ليست ميسورة في كل حال إذا اخذنا في الإعتبار المناهج والمواد والفروع المختلفة التي تقوم عليها العملية التعليمية في الأنساق الإجتماعية المتباينة .

ويتضح من ذلك كله أن حرية الإختيار لا يمكن أن تتأتى للمتلقي إلا إذا عرض عليه الشيء المعين وكل بدائله واستطاع أن يستوعبها جميعاً ويقيمها ثم يختار . ولما كانت السمة البارزة في الدعاية أياً كانت هي أن تحد هذا الإختيار في نطاق معين لصالح شيء معين من خلال الوسائل الدعائية المختلفة ، النفسي منها وغير النفسي ، فإنه قد يحق للبعض من ناحية أن يحس أن الدعاية تحاول التأثير فيه بوسائل ملتوية لا تلتزم جانب ما هو صحيح دائما ، ويحق لنا من ناحية أخرى أن نقول أنه سواء أكانت المادة المطروحة صادقة أو غير صادقة ، وسواء أكان الداعية مخلصاً أو غير مخلص وسواء حسنت أهدافه أو ساءت فإن ذلك كله ليس الفيصل في تعريف الدعاية . ولكن الشيء الذي يجعل السلوك دعائياً هو الطريقة التي تعرض بها المادة ، وأن هذه الطريقة في حد ذاتها لها أهمية المضمون .

وتوظف الدعاية بالمعنى الشامل وما يرتبط بها من عمليات إتصالية في النسق الإجتماعي السياسي المعاصر على نحو يعبر عن الصراع والخلل أو

التوازن في علاقات القوة التي تضفي على النسق صورته الكلية في أحوال الثبات والتغير أو التحول. واتصال هذه الوظيفة أو الوظائف ببناء القوة في المجتمع يجعلها بالغة الأثر في خلق الأطر العقلية المهيأة لتلقي أفكار بعينها تشكل رأياً أو آراء عامة إزاء كل ما يرتبط بنشاط الإنسان وتفاعل هذا النشاط داخل النسق الواحد الذي يلتزم بسياسيات تستلهم إيديولوجية معينة.

ويرى بعض الباحثين أن الدعاية بهذا المعنى لا يمكن أن تكون كاملة القدرة من الناحية السيكولوجية على إحداث الأثر لارتباط الفرد والجماعة بتراث وخلقية يشكلان جزءاً أساسياً في تكوينه أو تكوينها. لكننا نميل - بالنظر إلى واقع التاريخ المعاصر وأنساقه السوسيوسياسية - إلى أن نختلف مع هؤلاء الباحثين، فالإيديولوجيات المعاصرة في صراعها من أجل البقاء وإزاغة ما سواها توشك أن تحيل الإنسان إلى كائن منبت الصلة بتراثه، وأقرب شاهد على ذلك هو أن التفرقة بين التعليم والدعاية التي أشرنا إليها سلفاً توشك أن تصبح مستحيلة في ظل الهيمنة السياسية على نحو أحال فروع العلم، بما فيها المعملي والبيولوجي إلى مدارس ذات صبغات إيديولوجية. والزعم بأن التعليم والدعاية لا يترادفان إلا في الأنساق الشمولية حيث يطرح معتقد واحد، يرد عليه في بساطة بأن الديمقراطيات في محاولة تصديها للإيديولوجيات التي تصفها بالشمولية صبغت هي الأخرى فروع العلم فيها بصبغات إيديولوجية.

والعملية التعليمية هي ولا شك واحدة من أهم العمليات الإتصالية، وأبلغها أثراً في تهيئة الأجيال القادمة التي ستتولى إدارة شئون المجتمع. ولقد بينا ما يكتنف هذه العملية التعليمية في قرننا العشرين من هيمنة أصحاب السلطان أو أصحاب الإيديولوجية. ولا يقف الأمر عند هذا الحد ولكننا نلاحظ أن هذه العملية التعليمية التي كانت تتجه فيما مضى إلى خلق الشخصية ذات القدرة المستقلة على الحكم على الأشياء، أصبحت تتجه

على وجه العموم في الوقت الراهن إلى خلق فئات من المهنيين القادرين على الإسهام في إدارة عملية الإقتصاد الذي أصبح وثيق الصلة بالإيديولوجية . وأوشك الإنسان الحديث أن يحرم بالفعل من مقومات ما يمكن أن نسميه بالثقافة على نحو يحيله إلى مجرد أداة من الأدوات المستقلة في وسائل الإنتاج لا للوفاء باحتياجاته وإشباعها على النحو الذي يكفل سلامته النفسية وصحته العقلية ، بل على نحو يفي في المقام الأول بمصالح الصفوات الحاكمة التي أصبحت من القوة بحيث لا يمكن أن يحال بينها وبين استخدام وسائل الاتصال استخداما أوشك أن يخل بكل معايير ما هو صادق أو صحيح . وقد ترتب على ذلك من الناحية السيكلوجية الكثير من الآثار التي تلاحظ فيما يعانيه إنسان العصر من هم وقلق واغتراب .

وإذا تركنا التعليم لنلقي نظرة عامة على أثر وسائل الإتصال الجماهيري التي سبق أن أجملنا الإشارة إليها في فصل سابق ، فالملاحظ أن إنسان العصر أصبح محكوماً تماماً بما تمليه عليه هذه الوسائل في كل جوانب حياته وما يتعلق بها من اختبارات . وليس ثمة داع للتدليل على ذلك بالتمثيل إذ كلنا يحيا تجارب هذا العصر والنظرة العابرة في أي اتجاه تكفي لبيان ذلك .

ولقد تأثرت أشكال الفن المختلفة بذلك كله ، فنراها وقد ابتذلت على نحو أو آخر في العمليات الدعائية المستمرة التي تفيض بها وسائل الإتصال الجماهيري المختلفة . وبدأت الكلمة والنغمة والصورة تعقد معانيها والقصد الجمالي منها في هذا التوظيف الدعائي لها ولا يعنينا في هذا السياق أن نتناول ذلك كله بالشرح والتفصيل .

وخلاصة القول فيما يتعلق بالدعاية أو الدعوة هي أن الإنسان قد أصبح في العصر الحاضر تحت الهيمنة الكاملة لصفوات القوة في المجتمع سواء

وصفت هذه الصفوات بأنها سياسية أو إقتصادية أو عسكرية أو فكرية من دينية وغير دينية ، بمعنى أن كل هذه الصفوات تستهدف من خلال الدعاية تغيير مواقف الأفراد والجماعات أو التأثير فيها على نحو يتوخى تحقيق أهداف أو مصالح هذه الصفوات ، وإن محاولة ضبط هذه المواقف تتخذ أشكالا خفية وظاهرة .

الفصل السابع

تشكيل المواقف وتغييرها

- المواقف الأولية .
- الآراء والمواقف وخصائص الشخصية .
- تغيير المواقف .
- الدعاية الحربية والحرب النفسية .
- الدعاية السياسية .

تمهيد :

انتهينا في الفصل السابق إلى أن الصفوات الحاكمة التي تستحوذ على القوة الحقيقية في النسق الاجتماعي السياسي تستهدف ضبط مواقف الفرد والجماعة عن طريق عمليات الاتصال بقصد تحقيق التوازن في علاقات القوة في المجتمع أو المحافظة عليها .

ولما كان الفرد هو الوحدة الأساسية في التفاعل الاجتماعي والمجتمعي ، فإن مواقفه ترتبط عادة بمحاولته إشباع حاجاته المباشرة على شتى المستويات من ناحية ، وبالخلفية العامة التي يكتسبها نتيجة لانتمائه إلى بيئة معينة وتراث معين ومحاولة تكيفه مع هذه البيئة والتزامه بأنماط القيم السائدة في تراثه من ناحية أخرى . وإذا كانت الحال كذلك فهل يمكن حقاً ضبط مواقف الأفراد بالتأثير فيها أو تغييرها إلى حد بعيد على نحو أو آخر؟ .

علينا أن نحاول في أول الأمر أن نعرف ماذا نعني بكلمة «موقف Attitude » ولنبدأ بالتعريف الذي أورده قاموس أكسفورد الذي يعرف الموقف العقلي على أنه طريقة التفكير الثابتة[1] وهذا التعريف لا يبعد كثيراً

---

(1) Attitude: ...Settled behaviour, as indicating opinion; attitude of mind: Settled mode of thinking.

عما يرد تلقائياً في أذهاننا عندما نفكر في مضمون هذه الكلمة التي يعرفها الباحثون في علم النفس الاجتماعي على أنها : حالة استعداد عقلية أو عصبية تتهيأ من خلال الخبرة ، ويكون لها أثر توجيهي أو دينامي على استجابة الفرد للأشياء والأحوال التي ترتبط بها ؛ أو أنها الميل إلى الاتفاق أو الاختلاف مع عامل بيئي يصبح تبعاً لذلك قيمة إيجابية أو سلبية ؛ أو أنها مجمل ما ينشأ اجتماعياً في الإنسان .

والواقع أن هذه التعريفات جميعها توشك أن تشير إلى مضمون واحد مؤداه أننا في استجاباتنا للأحوال والأشياء التي نلقاها في حياتنا اليومية نتأثر بآراء وقيم نكون قد تبنيناها أو اكتسبناها سلفاً من الخبرات التي مررنا بها من قبل ، وأن هذه الخبرات تتصل بكل جوانب حياتنا كأفراد يعيشون ويتفاعلون في بيئة معينة لها تراثها وخلفياتها . والكلام عن التراث أو الخلفية يأتي بنا إلى مجموعة متنوعة من المقومات التي لبعضها صفات الثبات والتواتر وللبعض الآخر صفات التغير والتفاعل الايجابي أو السلبي مع ما تأتي به الأيام من خبرات يلعب فيها اتصال الانسان بالإنسان ومحاولات التحييز والتحييد أدواراً بالغة الأهمية ، وقد لا يكون التراث مرتبطاً ببيئة معينة بقدر ارتباطه ببيئة الانسان ، وقد يكون على النقيض من ذلك . ونمثل للحالة الأولى بالموقف الذي تأخذه الآداب العالمية على سبيل المثال من اليهودي وارتباطه في أذهان الناس على اختلاف بيئاتهم وارتباطه بسلوك اقتصادي معين شكل دائماً عاملاً سلبياً في موقف الناس إزاء اليهود[1] . ونمثل للحالة الثانية بالفارق في رد الفعل الذي تحدثه كلمة زنجي لدى مواطن يعيش في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية وآخر يعيش في شمالها . ويتبين من هذا أن الموقف يمثل ضرباً من ضروب الانحياز بصرف النظر عن سلبيته أو

(١) انظر على سبيل المثال : مسرحية تاجر البندقية لوليم شكسبير ، ورواية اليفر توست لتشارلز ديكنز .

إيجابيته، أو عن دلالته على ما هو غير صحيح أو صحيح. ولا شك في أن لكل منا مواقفاً إزاء ما يحيط به من الأشياء والأحوال على اختلافها، وأن هذه المواقف قد تكون ودية أو غير ودية، وقد تعكس هوانا ومصلحتنا أو تعكس تجردنا. وقد تعيننا على الفهم أو تنأى بنا عنه. كما أنها ترتبط كما ألمحنا بسياقات الزمان والمكان على النحو الذي يتبين من ردود الفعل المختلفة لدى الأفراد المختلفين إزاء مفاهيم مثل الرأسمالية والشيوعية والليبرالية والشمولية والمساواة والتفرقة العنصرية ومضادات السامية واليهودي والزنجي ومنع الحمل والدعارة والجنسية المثلية وما إلى ذلك. ومعنى ذلك أن هذه المفاهيم أو الكيانات تثير فينا مشاعر معينة تجعلنا نفكر أو نتصرف بطريقة بعينها ويتمثل في هذه الطريقة الموقف الذي نتخذه وهذا الموقف يتمثل لدى الفرد في استجابة ترتبط في خبراته بالثواب والعقاب أو بما يرضي أو لا يرضي أو بالنجاح أو الفشل. وقد لا ترتبط هذه الاستجابة بخبرات الفرد بقدر ما ترتبط بما هو سائد، من حيث التراث أو غيره، في مجتمع معين. ففي البلدان التي ينظر فيها ـ على سبيل المثال ـ إلى الزنوج على أنهم جنس أدنى لا تتشكل استجابة الفرد إزاء الزنوج على أساس من صلة هذا الفرد بهؤلاء الزنوج بقدر ما تعكس ـ الاستجابة ـ ما هو سائد في المجتمع بعامة إزائهم وهذا يوضح كيف أن الموقف يعبر عن استجابة ترتبط بالخبرة الفردية أو المجتمعية أو عن كلتيهما معاً.

وهذه التفرقة تعين الباحثين في الاتصال على تبين الجوانب التي يسهل فيها ضبط المواقف بإعادة التشكيل أو التغيير. ويمكننا أن نلحظ عملية تكوين أو تشكيل المواقف في مراحلها الأولى، وأثر القيم السائدة في المجتمع في ذلك من قصة بسيطة كانت تتكرر في مصر ما قبل الثورة، حيث كان المنتمون إلى طبقة الإقطاعيين لا يفوتهم أن يذكروا أولادهم بين الحين والحين بالفوارق التي تفصل بينهم وبين «أبناء الفلاحين» على سبيل المثال، فما

يكاد الطفل الصغير يتعامل مع أقرانه من أبناء الفلاحين بفطرة الطفولة المنطلقة حتى يزجره والده أو والدته وينهياه عن ذلك، ومن هنا يبدأ تشكيل موقف معين والنظرة المهنية التي كانت سائدة، وربما لم تزل، بين المثقفين إزاء العمل اليدوي، مثال آخر على ذلك.

وليس من الغريب أن نلاحظ في خبراتنا الشخصية أن المواقف التي تتشكل على هذا النحو، والقيم التي ترتبط بها لا يسهل تغييرها فيما بعد بالرغم من إضافة خبرات أخرى إليها ومرور الفرد بمراحل تعليمية يفترض أنها تعينه على التخلص من الانحياز، إذ يعلل لذلك سيكلوجياً[1]. وبالرغم من أن الباحث في علم النفس الاجتماعي يولي اهتمامه عادة للمواقف التي يتخذها الأفراد والجماعات محاولاً الكشف عن مصادرها وتتبع الآثار التي قد ترتب عليها، دون أن يصرف همه إلى تناول الكيفية التي تنشأ بها هذه المواقف داخل الفرد، إذ أن ذلك يقع في نطاق مجالات فروع أخرى لعلم النفس. بيد أن الاهتمام بدراسة كيفية تكوين هذه المواقف داخل الفرد بدأ يكتسب في الآونة الأخيرة أهمية متزايدة بالنظر إلى أن العاملين في صناعة الرأي يستهدفون كما أسلفنا التأثير في هذه المواقف أو تغييرها، فلا بد لهم إذن من فهم متكامل لطبيعتها حتى يلموا بالأسباب التي تحدو بالأفراد إلى تبني مواقف معينة، ويستخلصوا السبل التي تعينهم على هذا التأثير أو التغيير.

المواقف الأولية:

وتتأثر مواقف الفرد على الإجمال بالخبرات التي يكتسبها في سن الطفولة الأولى من خلال علاقته بأبيه وأمه، وبالخبرات التي يكتسبها ممن يحيطون به في تلك السن وما يضاف إليها بعد ذلك على امتداد حياته من تجارب قد

(١) انظر: Ranson J. Arthur, an Introduction to social Psychiatry, Harmondsworth, Penguin Books, 1971; George A. Miller, Psychology, Harmondsworth, Pelican Books, 1970.

تتشابه أو تتباين مع بعضها البعض.

وإذا كان الباحثون في علم النفس يضفون أهمية بالغة على الخبرات التي يكتسبها الطفل في سن عمره الأولى على أساس أنها تشكل مواقفاً قد تؤثر أو تتحكم في المواقف التي يتخذها بعد ذلك في مراحل نموه المختلفة، فإننا نرى أن هذه المواقف المبكرة ذات أهمية قصوى من الناحية الإيديولوجية. ذلك أن الخبرات العادية التي يكتسبها الطفل يسهل تغييرها بعد ذلك إذا ارتبط هذا التغيير بتحقيق قدر أكبر من المصلحة أو المنفعة أو بأية قيمة تثبت إيجابيتها من خلال تفاعل الفرد مباشرة مع بيئته. ومعنى ذلك أن التأثير الثقافي الاجتماعي المباشر قد يستطيع أن يزيغ الأثر الثقافي الاجتماعي الذي اكتسبه الفرد بالوساطة في سنوات عمره الأولى. أما فيما يتعلق بالناحية المعتقدية فإن هذه الإزاغة قد تعسر أو تستحيل نتيجة للممارسات التي يمر بها الفرد والقيم التي يكتسبها خلال فترة تلقيه بالوساطة. وهذه الحقيقة هي التي تكسب بعض التعاليم أو المعتقدات، وإن شئت قل الشعوذات، عناداً لا يتأتى لاكتساب الخبرات بعد ذلك أن يتعامل معه في يسر. وتلك هي مشكلة المشكلات التي يتعين على مروضي العقول أن يجابهوها وهذا يفسر، بصرف النظر عما يستقيم في أمور المعتقدات، كيف أن الكثيرين ممن أتيح لهم أن يصلوا إلى أعلى مراتب العلم أو التعليم لا يستطيعون أن يتخلصوا من الارتباط بممارسات السحر أو الشعوذة أو محاولة معرفة الغيب على النحو الذي لا نلحظه في حياتنا اليومية وحسب، وإنما نسمع عنه في بعض الشخصيات التي يتاح لها مكان الصدارة في صفوات القمة الحاكمة في عالمنا المعاصر، وما يقال عن «قوامي نكروما» وأمثاله في هذا الصدد معروف لنا جميعاً.

ويستخلص من ذلك أن نوع الثقافة الذي يتاح للفرد ذو أهمية بالغة في بناء شخصيته. ونظراً لأن الثقافات تختلف باختلاف البيئات والأصول، فإن القيم التي تسود في مجتمع معين أو بين جماعة معينة والتي يضفي عليها قداسة أو أهمية قد لا تعني شيئاً في نظر الأفراد الذين يعيشون في مجتمع

آخر. ويترتب على ذلك ما سبق أن أسلفنا ذكره من أن العمليات الاتصالية التي تستهدف تغيير المواقف أو المعتقدات أو صياغة الرأي العام تعمد في كثير من الأحيان إلى الاستخفاء ببعض مقوماتها أو ما تنطوي عليه حتى يتسنى لها أن تحدث الأثر المطلوب، مما يحيل الكثير من عمليات الاتصال إلى ضروب من التعمية والتجهيل.

الآراء والمواقف وخصائص الشخصية

ويحسن بنا بعد ذلك أن نفرق بين أشياء ثلاثة هي: الآراء والمواقف وخصائص الشخصية. فالآراء يتبناها الأفراد لفترات قصيرة في الغالب وتعكس الشعور العام السائد. وكثيراً ما تعكس هذه الآراء ما قد يرى الفرد أنه ينبغي عليه أن يتوخاه وليس ما يتوخاه بالفعل، ولذلك فإن الآراء قد تستجيب للتغيير متأثرة بالدعاية أو بالمنطق. أما المواقف فتتخذ لفترات قد تطول، ولا تعكس بالضرورة أو في كل حال الشعور العام السائد بالرغم من أنها قد تعكس مشاعر الفئة والجماعة التي ينتمي إليها الفرد. وتمتد جذور هذه المواقف عادة إلى خصائص الشخصية التي تجعل الفرد يستجيب أو لا يستجيب إلا للمحرضات التي تتسق مع معتقداته الأصلية، من بين المحرضات الكثيرة التي تؤثر في حواسه. ومن الممكن تغيير هذه المواقف، ولا ينطوي هذا التغيير على قيمة حقيقية إلا بالمعنى الاجتماعي، أي أنه يجنح في العادة إلى تغيير السلوك الظاهري بصرف النظر عن تأثير ذلك على الخصائص عميقة الجذور في تكوين الشخصية.

فالانتقال من نظام سياسي إلى نظام سياسي آخر ـ على سبيل المثال ـ قد يجعل الفرد يتسق من حيث السلوك الاجتماعي، أو المواقف، مع مقتضيات النظام السياسي الجديد بصرف النظر عن المقومات الأساسية لشخصية الفرد، إلا ما يتفق منها مع اعتبارات المصلحة أو توخي أسباب الأمان على

نحو قد يعين على تحقيق التوازن النفسي أو يفسح المجال للاغتراب[1].

وهذه الحقيقة تكتسب أبعاداً أخرى في حالة الاقتناع الفكري، فقد تكون بالغة الأثر في تغيير المواقف، لا من حيث المدلول الاجتماعي الظاهر وحسب، بل من حيث بناء الشخصية أيضاً ـ وإن اختلف معنا بعض علماء النفس ـ وهذا لا يعني بأي حال أن الأفراد سيتطابقون تماماً من حيث السلوك الاجتماعي من ناحية أو من حيث سمات الشخصية من ناحية أخرى، فالفوارق في هذا الشق الأخير بالذات ستبقى وتتعدد ما بقي الناس وتعددوا.

ولئن شئنا أن نمثل لأثر المعتقد في جعل الفرد يتسق اجتماعياً وسياسياً مع معتقد جديد، وفي التأثير على كيانه ووجدانه بحيث لا تبقى إلا تلك المقومات والسمات التي تشكل الفارق بين شخصية وأخرى، فإننا نستحضر في الذهن الصورة التي كان عليها «الفاروق عمر»، قبل إسلامه وبعد أن تعلم في المدرسة المحمدية، وقدر له أن يكون علامة من أبرز علامات الفكر والقيادة في تاريخ الإنسان[2].

وتزداد الصورة وضوحاً فيما يتعلق بالمقومات التي تشكل الفارق بين شخصية وأخرى، إذا ما قارننا بين شخصية «أبي بكر» وشخصية «عمر»، وكل منهما هو من هو، وله مكانه ومكانته في المدرسة المحمدية الواحدة وفي تاريخ الاسلام والعالم، على ما بينهما وبين الآخرين من قادة العالم طلاب القوة على العموم[3] من فوارق جسام.

---

(1) انظر: نظرية القوة، ص ٢٨ ـ ٣١ و ٢٧٨.

(2) انظر: عباس محمود العقاد، عبقرية عمر.

(3) انظر: طه حسين، الشيخان، دار المعارف بمصر؛ وعباس محمود العقاد، عبقرية الصديق، وعبقرية عمر، دار الهلال بمصر؛ د. محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، دار المعارف بمصر.

وينتهي هذا بنا إلى أن عناصر القوة، وخاصة ما يرتبط منها، بالايديولوجية تتكامل بالإنسان وفي الانسان، وتؤتي أكلها إذا استقام أمره وغلب هواه، وصح عزمه وحسن مرماه.

تغيير المواقف:

حاولنا فيما سبق أن نبين الفوارق بين الآراء والمواقف، لنقول بعد ذلك أن المواقف على الإجمال تتدرج من التعبير العارض عن رأي معين إلى مجموعة من المواقف تتداخل بحيث تشكل مفهوماً عاماً يسود في مجتمع من المجتمعات أو بين جماعة من الجماعات. ونلحظ التعبير العارض عن الرأي في أبسط صورة عندما نبدي إعجابنا بشيء ما، وقد لا يتكرر هذا التعبير عن الإعجاب أو تتباعد فتراته فلا نبديه إلا عندما نلقى هذا الشيء مرة ثانية وهكذا دواليك، وقد نرتبط في ممارستنا لحياتنا اليومية بشيء أو آخر، بحيث نطلبه دائماً إذا كان سلعة، على سبيل المثال من تلك السلع التي نعتاد استهلاكها ونرتبط بها لسبب أو لآخر، وفي هذه الحالة يكون سلوكنا تعبيراً عن موقف بسيط، وهذا التعبير يتكرر في فترات متقاربة تقريباً. ونحن نمهد بالمثلين السابقين لنوعين آخرين من المواقف هما اللذان نهتم بهما في هذا السياق. أولهما الموقف الذي قد يثبت لدى الفرد إزاء قضية معينة ويعبر عن رأيه فيها وقد يحكم سلوكه الظاهر إزاءها، كموقف الفرد الذي ينادي بحرية المرأة أو بتقييد حق الطلاق أو بالتزام نهج سياسي معين. وثانيهما الموقف الاجتماعي أو السياسي العام الذي يتشكل باتفاق مواقف أفراد الجماعة إزاء قضية أو قضايا معينة. وقد تشكل هذه المواقف كما أسلفنا مفهوماً عاماً وقد يرتبط هذا المفهوم بالمواقف الأولية التي يكتسبها الأفراد من بيئتهم أثناء تنشئتهم، التي تؤثر على ما يليها من خبرات ومواقف، بحيث تكون هذه المفاهيم في نهاية الأمر مستعصية على التغيير على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه.

والشقان الأولان البسيطان من هذه المواقف التي حددناها هما اللذان

تحاول عمليات الدعاية بالمعنى التجاري التعامل معهما، وتحاول الاتجاهات الحديثة فيها ربطهما بنواة الشخصية أو بسماتها من خلال ما يفيض به فن الإعلان الحديث من وسائل تخاطب الصغير والكبير من أفراد المجتمع. أما الشقان الأخيران المركبان من المواقف التي ذكرناها فهما اللذان تستهدف صياغتهما والتأثير فيهما العمليات الدعائية بالمعنى الاجتماعي والسياسي، أو بالمعنى الايديولوجي، مستخدمين في ذلك كل ما يتيحه العصر من وسائل اتصال تخاطب الكبير والصغير في آن واحد.

وواقع الحال أنه لم تعد هناك، مع وسائل الاتصال الجماهيري الحديثة فواصل يمكن أن تحدد في وضوح بين المتلقين الذين تستهدفهم العمليات الدعائية، والذين تتفاوت أعمارهم ومشاربهم ومواقفهم. وهذا يعني أن سياسات الاتصال وتكنيكاته المعاصرة، إذ تضع في اعتبارها مساحات معينة من المتلقين بقصد إحداث أثر معين، أو أقصى درجة منه فيهم، تضع في اعتبارها أيضاً المساحات الأخرى للجماهير على اختلاف في درجات التأثير المقصودة. ويظهر هذا مدى التعقيد الذي تنطوي عليه عمليات صياغة الرأي والتأثير فيه في زمن أوشك الصراع فيه أن يكون صراع كلمة أو فكرة أو معتقد.

الدعاية الحربية والحرب النفسية[1]:

وإذا كنا نلاحظ أن العقود الأخيرة قد اتجهت بالصراع إلى التركيز في نواحيه الايديولوجية، فلنا أن نلاحظ في الوقت نفسه أنه لا تزال هناك «حروباً محدودة» تدور رحاها، أو يمكن أن تدور، في بقاع مختلفة من العالم، على ارتباط وثيق لهذا النوع من الحروب المحدودة بالصراع الدائر بين الايديولوجيات المهيمنة في العالم.

(١) انظر: كلامنا عن الحرب العالمية الأولى في الفصل السادس.

وهذا يلفت نظرنا إلى ما يسمى «بالدعاية الحربية» و «الحرب النفسية» اللتين بدأتا في اتخاذ طابعهما المحدد ومداخلهما العلمية ابتداء من الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) حتى يومنا هذا. وهذا النوع من الدعاية لا يعنينا في هذا المقام إلا من حيث استهدافه تغيير مواقف الأفراد أو الجماعات أو الدول لصالح من يقوم بها من الأطراف المتحاربة ولرفع الروح المعنوية لديها واستنفار قدراتها القتالية من ناحية، ولكسب تعاطف الناس هنا وهناك مع قضية أو قضايا بعينها من ناحية أخرى، كما أن هذا الضرب من الدعاية أو الحرب النفسية يستهدف أيضاً تخذيل الخصوم وإضعاف روحهم المعنوية، ومن خلال تكنيكات لا ترتبط دراستها أو دراسة تاريخها بمنهاج هذا البحث.

الدعاية السياسية :

وتنحصر أهداف الدعاية السياسية كما بينا في غير موضع، في تشكيل المواقف أو تغييرها على وجه العموم في مستويات تتصل بحياة الانسان في كل جوانبها.

وعلى هذا فإننا إذا حصرنا النظرة في نطاق النسق الاجتماعي السياسي الواحد، نجد أن الدعاية التي تمارسها الصفوة السياسية، الحاكمة بقصد تثبيت أركان حكمها وإبقاء زمام السيطرة في يدها، هي ما يمكن أن يسمى «الدعاية السياسية» في النطاق المحلي، وقد ترتبط هذه الدعاية بنسق فكري يتصل بتراث بيئي أو محلي، أو بواحدة أو أخرى من الايديولوجيات التي تحاول أن تهيمن في أكثر من نطاق أو في نطاق النوع البشري على اتساعه، ولقد أصبحت الدعاية السياسية بهذه المعاني سمة من سمات الدولة الحديثة بكل ما يدخل في تكوينها من جماعات ومؤسسات تتفاعل من خلال العمليات الاتصالية المتنوعة التي سبق تناولها في هذا البحث.

وتكتسب الدعاية السياسية لذلك، وللمعنى الشامل الذي تنطوي

عليه، أهمية بالغة في نظر الباحثين في مجالات العلوم الاجتماعية والسياسية. وإذا شئنا أن نرى هذه الدعاية في أشد أشكالها فعالية، فعلينا أن نتجه بنظرنا إلى تلك الأماكن من العالم التي ساد أو يسود فيها ما يسميه الباحثون «بالتغير الثوري»، وتنصرف الثورية عادة إلى وصف التغييرات السريعة أو الشاملة، وإن لم تنطو بالضرورة على استخدام شكل أو آخر من أشكال «القوة الفيزيقية».

والتغيير بالمعنى الذي نتعرض له قد ينطوي على انتقال السلطة في مكان ما من فئة إلى فئة، أو على تسيد اتجاه ثقافي مغاير للاتجاه الذي كان سائداً من قبل، أو على تغير طابع الحياة نفسها نتيجة للتقدم التكنولوجي. والسرعة والشمول اللذان يميزان ما يسمى بعملية التغير الثوري نسبيان ولا شك، تختلف معايير قياسهما باختلاف المجال والأثر. فالثورة التي حدثت في عالم الطيران على سبيل المثال ابتدأت مع بداية القرن العشرين تقريباً ولا تزال مستمرة، والعقود التي نمت هذه الثورة خلالها طويلة بمعيار عمر الفرد، وقصيرة بالقياس إلى تاريخ الحضارة البشرية.

وقد ترتب على هذه الثورة آثار بالغة الجسامة، لما أضافته من إمكانيات في جانب هام من جوانب اتصال الإنسان من ناحية، ولإسهامها الكبير في بلوغ الممارسة الفيزيقية للقوة حداً مروعاً كما هي الحال في أحوال الحروب الحديثة من ناحية أخرى. وتنعكس آثار هذا التقدم الثوري في الجانب الآلي أو التكنولوجي على الجوانب السياسية في النطاقات المحلية وغير المحلية. وآية ذلك في نظرنا أن هذا الضرب من التغيير الثوري في الجانب الآلي آذن بانقضاء عصر الثورات الشعبية في الجانب السياسي والاجتماعي، على النمط الفرنسي أو الروسي مثلاً، كما أنه يوشك أن يؤذن بانقضاء عصر الحروب العالمية الشاملة، ليحل محلها عصر الصراع الايديولوجي، وليس ثمة بديل لذلك سوى فناء الجنس البشري.

وفي نطاق الثورة السياسية، يرى الماركسيون أنه لا بد للتغيير أو الثورة أن تأتي من القاعدة العريضة التي يرتبط الانتاج بها وليس من البناء الفوقي. ولا تتأتى الثورة إلا من خلال تهيئة يصطلح الماركسيون على تسميتها «بالموقف الثوري»، وأية ثورة تقوم بها فئة من الفئات ولا ترتبط بما يسمى بالقاعدة[1]. إن هي إلا من قبيل الثورات المضادة التي تحاول الرأسمالية بوساطتها أن تبقي على نفسها ومصالحها. وتلعب الايديولوجية من وجهة النظر الماركسية دوراً بالغ الأهمية في قيادة وتوجيه القاعدة، بالرغم من أن الايديولوجية عندهم تقع في «البناء الفوقي» على النحو الذي سنوضحه في الفصل الأخير من هذا البحث. وذلك يعني في نظرنا أن الدعاية السياسية ذات أثر بالغ في تهيئة الجماهير للثورة.

بيد أن الثورة لا تحد في حال في نطاق النسق الاجتماعي السياسي المعين، ولا أحسب أن الماركسيين يختلفون معنا في أن طبقة البروليتاريا، في العالم بأسره تشكل في نظرهم مجالاً يكاد يكون واحداً للثورة كما يعرفونها. ولنا أن نضيف أن تاريخ العالم في مسيرته الطويلة أعطانا أمثلة متعددة لضروب من الثورات الفكرية «كالبروتستنتية» مثلاً التي بدأها قادة لا يوضعون في مصاف السياسيين المحترفين، ثم انعكست آثارها بعد ذلك على النظم السائدة في الأنساق الاجتماعية السياسية من خلال ما يمكن أن يسمى «بالدعاية السياسية» وليس الدعاية الدينية وحسب.

وخلافاً لمقتضيات القالب المعين الذي يضع الماركسيون الثورة فيه على نحو يجعل ما عداه من قبيل الثورة المضادة، نستطيع أن نقول في بساطة أن الجماهير الساخطة يمكن ولا شك أن تستجيب، إذا استطاعت، لأية دعوة أو حركة تتوسم فيها القدرة على تحقيق أمانيها أو الوفاء بمصالحها.

(١) انظر شرح مفهوم القاعدة في بداية فصل «دعوة الاسلام».

ولا يمكن لنا، من وجهة نظر تاريخية، أن نطمئن إلى أن كل ما مرت البشرية به وتمر من تقلبات وتغييرات في شتى المجالات يرتبط في الأساس بالاقتصاد أو يمكن أن يفسر بلغته وبلغته وحدها. ونستطيع أن نمثل لاستجابة الجماهير الساخطة بأن الشعب المصري كان قبل الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ مهيئاً للاستجابة لأية دعوة إلى تغيير النظام، كائناً ما كان القائمون بها، فلو أن أفراد آخرين، غير الضباط الأحرار الذين تهيأت لهم فرصة استخدام أداة القوة التي كانت متاحة لهم، استطاعوا أن يقوموا بالثورة لوجدوا الاستجابة نفسها من الجماهير بصرف النظر عن إنتماءهم العقائدي. وتبدأ الدعاية السياسية عادة بعد أي تغير يطرأ على النظام السياسي في لعب الدور الذي يربط الجماهير بالنظام أو المعتقد الجديد الذي تسيد، ولا حاجة بنا في هذا المقام إلى معاودة الإشارة إلى الدور الذي تلعبه الدعاية السياسية بادىء ذي بدء في تهيئة جموع الناس للثورة. وليس من الغريب أن تقوم جماعة أو جماعات بالعمليات الدعائية المهيئة للثورة، ثم يستعصي عليها بعد ذلك أن تصل إلى السلطة السياسية لافتقادها مصادر القوة التي تمكنها من ذلك، وتأتي جماعة أخرى لتتولى السلطة بفضل ما هو متاح لها من أسباب القوة. وكان المجتمع المصري على سبيل المثال يموج قبل الثورة بفئات متعددة، قد تتفق مصالحها أو تتضارب، ولكنها جميعاً دعت إلى التغيير على النحو الذي مكن جماعة الضباط الأحرار من الاستيلاء على السلطة.

الفصل الثامن

دعوة الإسلام والأيديولوجية

***

«إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا»

***

- تمهيد .
- الفروع العلمية والصراعات الفكرية
- المادة والمنهج وأداة البحث .
- حيرة لها مغزى .
- الايديولوجية عند الماركسيين .
- أسس الدعوة في الاسلام .

تمهيد :

تبين الفصول السابقة من هذا البحث الدور الحضاري للإتصال في إيجابه وسلبه وخطورته وخطره. وقد أوشك هذا الدور ـ على تعدد وتعقد جوانبه وتباين صوره وارتباطها بكل محاولات التفاعل البشري ـ أن يحد صراع الإنسان العاقل homo sapiens كما يقولون في نطاق المجابهة «الإيديولوجية» بحيث يصبح «آخر الحرب الكلام» أو، إن شئت، «هي الكلام» على غير ما قصد إليه شاعرنا العربي القديم:

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام
وإن النار بالعودين تذكي وإن الحرب أولها الكلام
لئن لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

والجثث في عصرنا الحديث هي ما سوف تستحيل إليه «الأفكار» أو «أنساق الأفكار» التي تعوزها مقومات البقاء، أو تلك التي تخلو «هامات» أبنائها من العقول القادرة على تبين مواطن قوتها، أو التي يحال بينها وبين ذلك بقطع صلاتها بتراثها.

الفروع العلمية والصراعات الفكرية :

ويعنينا هنا أن نتجه بالنظر إلى ما أشرنا إليه من أدوار تؤديها فروع

العلم المختلفة في مجالاتها المتعددة وتتصل بشكل أو آخر بما يدور في العالم على اتساعه من صراع إيديولوجي، على أن نحد نظرتنا العاجلة في نطاق يمس حضارتنا من ناحية ويلقي لمحة من ضوء على ما ينبغي أن تتجه إليه عقولنا من ناحية أخرى.

فنحن لا نعيش وحدنا في هذا العالم ولا أحسب أن أحداً من المشتغلين بصناعة الرأي، في شرق العالم أو غربه، يستثني عقولنا أو يعفي تراثنا مما تستهدف به العقول والتراث من تعتيم وتعقيم. بل لعله ـ على النقيض من ذلك ـ يحق لكل متجرد منصف أو يرى أننا، وأننا على التخصيص، وما نمثل وما يمكن أن نكون، نحظى في استراتيجيات أصحاب الإيديولوجيات، الغربي منها والشرقي على حد سواء، وفي سياساتهم الإتصالية، بمكان أي مكان.

المادة والمنهج وأداة البحث:

قلنا إن طبيعة الصراع الدائر الآن جعلت السمات الفكرية هي الغالبة في وجه الحضارة المعاصرة؛ ومن ثم الأهمية البالغة لأدوار فروع العلم ومجالات البحث الأكاديمي. والفرع العلمي المعين مجال أو مجالات تتناول فيها مادة هذا العلم من خلال منهج أو مناهج معينة تفرضها طبيعة مادة البحث أو هدفه، وتهيىء فروع العلم في مسيرتها أدوات أو وسائل تستعين بها. ولم يفت الصراع الفكري أن يستغل هذه جميعاً. وإذا أردنا أن نمثل لذلك في المجال الذي اخترناه في اقتضاب شديد، فإننا نقدم لذلك بحقيقة من تلك الحقائق التي لا يزال القرآن الكريم يكشف عنها كلما تقادم به العهد، ليعطي ـ إن وعت العقول ـ الدليل المستمر والمتجدد على اتساق الزمان وإن طال وتباينت حقبه والمكان وإن تعدد أو اختلفت بيئاته مع هذا القرآن وما أتى به. وهذه الحقيقة التي يوقفنا القرن العشرون عليها هي ما

سبق أن أشرنا إليه من انتهاء الصراع إلى المناجزة «بالكلمة». الكلمة التي أقام القرآن معجزته عليها قبل أربعة عشر قرن من الزمان، وتحدى بها عقل الإنسان وقدرته، فوقف عاجزاً أمام بنائها ومضمونها، وإن جاء التحدي - وهذا هو إعجاز الإعجاز - في نطاق ممارسة العقل لنشاطه، وليس في نطاق إلغائه بخرق ما يستطيع أن يلحظه من القوانين السارية من حوله.

وكان لا بد لفروع العلم الغربي من أن تتناول هذا القرآن من خلال مناهج تحكمها ما تستهدفه من محاولات الدحض، تحت ستر من موضوعية علمية مدعاة وتجرد لم يستطعه دون اعتساف من جانبنا - أي من المشتغلين منهم بالدراسات الإسلامية على اتساعها، وشاهدنا على ذلك تراث ضخم من الدراسات التي قام ويقوم بها المستشرقون والمبشرون ولا يختلف الجديد منها عن القديم في الأخطاء والأباطيل التي تتواتر فيه.

وإذا كنا لا نستطيع أن نوفي على بعض غاية في هذا الحيز الضيق، فلا بأس من أن نعرض لبعض ما يلقاه القرآن الكريم على أيدي هؤلاء:

ترك المسلمون عامة، مع إستثناءات قليلة يمكن إهمالها، والعرب خاصة مهمة ترجمة معاني القرآن ليتولاها الفرنجة عنهم مستخدمين في ذلك مناهج عدة وسبلاً مختلفة تمكنهم من محاربة النص القرآني في خفاء من خلال اختيارهم للمعنى الذي يرون، وانتقائهم لألفاظ بعينها[1] وهم لا يقفون عند ذلك، بل نرى بعضهم يعيد في ترجمته ترتيب سور القرآن مدعياً أنه يقوم «بتغيير الترتيب التقليدي ليزيد من متعة المبتدى وفهمه».

"altering the traditional arrangement to increace the pleasure and understanding of the uninitiated".

---

(١) لكم نحس بالأسى ونحن نشير إلى هذه الحقيقة، إذ لا يتفق التمثيل لها والتفصيل مع مقتضيات منهج البحث الحالي، ونعد بتناولها في بحث مستقل إنشاء الله.

وتحمل هذه الترجمة التي ظهرت أول مرة عام ١٩٥٦ اسم N. J. Dawood ، كما تحمل من حيث معالجة النص كل سمات الترجمات الأخرى التي أشرنا إليها، على نحو يؤكد أن الذي قام بها ليس مسلماً، ولكن لا بأس في هذه الحالة من أن يكون الجزء الظاهر من الاسم عربياً أو شبه عربي[1] حتى يسهل خداع الناس.

وليس هذا فحسب بل هناك من المستشرقين من أعاد في ترجمته ترتيب آيات القرآن كما هي الحال في ترجمة Rodwell التي نشرت أول مرة عام ١٨٦١، بدعوى ضرورات منهاجية تعين على تفهم النص لا محل لتناولها هنا.

وإذا انتقلنا إلى بعض وسائل البحث التي تتيحها العلوم لنفسها لنلقي نظرة على دوائر المعارف والقواميس، والدور الذي تلعبه في هذه المجالات جد خطير، يكفي أن نشير إلى دائرة المعارف الإسلامية التي صنفها المستشرقون في عصر الغفلة التي لا تزال مهيمنة على عقولنا، وليذهب من شاء إليها ليرى بنفسه ولنفسه صورنا الشائهة في مرآة الغرب.

وأما عن القواميس العام منها والنوعي فحدث ولا حرج، ويكفي أن نشير إلى ما ارتبط بألفاظ: «عربي»، و «محمد»، وغيرها في معاجم الغرب لنتبين بعداً آخر من أبعاد السعار الفكري الذي تتناول مخالبه كل ما يمت إلى الإسلام بصلة.

وقد يحق لنا أن نورد في هذا السياق مثلا يظهر المفارقة البينية في المواقف التي يتخذها الغرب من خلال الأداة الإتصالية العلمية؛ فإننا إذا ما نظرنا إلى تعريف كلمة «يهودي Jew» في قاموس أكسفورد في كل من طبعته الرابعة والخامسة على التوالي، نرى فارقاً في التعريف لا تحتاج دوافعه إلى

(١) N. J. Dawood, The Koran, Harmondsworth. Penguin Books, 1974.

تعقيب، ويكفي أن نورد التعريفين كما هما:



التعريف الأول[١]:

يهــودي (اسم): شخص من الجنس العبراني؛ مرابي مبتز (معنى دارج)، عاقد الصفقات المجحفة، غني كيهودي (تركيب)؛ يهودي لا يؤمن = شخص لا يصدق؛ قل هذا لليهود (تركيب يستخدم عند عدم تصـديق أية رواية) . . . ، تصيد اليهود = إضطهاد اليهود.

يهودي[٢]: (فعل): يغش، يحتال (دارج).

التعريف الثاني[٣]:

يهودي (اسم): شخص من الشعب العبراني أو اليهودي، أو شخص يعتنق اليهودية؛ مرابي (معنى مهين ومبتذل)، التاجر الذي يعقـد الصفـات المجحفة؛ تصيد اليهود = إضطهاد اليهود.

وأحسب أننا لسنا في حاجة إلى بيان أوجه التغيير التي أدخلـت علـى المعاني من حيث التعديل والإضافة والحذف ولباقة استخدام الكلمة، كما نلاحظ أن استخدام الفعل Jew بمعنى «يغش أو يحتال» قد أسقط نهائياً في الطبعة الأخيرة، بالرغم من وروده ككلمة مستقلة في الطبعة السابقة.

---

(١) jew 1, person of Hebrew; (transf., Colloq.) extortionate usurer, driver of hard bargains; **rich as a jew; unbelieving Jew**, incredulous person; tell that (an unlikely tale) **to the Jews; Jew - baiting**, persecution of Jews. (the concise oxford Dictionary, Fourth Edition, 1954, P. 640).

(٢) (المرجع السابق) Jew 2, v. t. (colloq.). Cheat, overreach.

(٣) Jew, one of the Hebrew or Jewish people, or one who professes Judaism; (transf., detrg., vulg.) usurer, trader who drives hard bargains; Jew - baiting, persecution of Jews. (The concise oxford Dictionary, Fifth Edition, 1968, P. 652).

ولئن كنا قد توخينا القلة فيما أوردنا من أمثلة تمشياً مع مناهج هذا البحث، فإن الأمر الذي يعنينا أن نبينه هنا، إضافة لما يعنى به البحث في مجمله من علاقة بين القوة والإيديولوجية والإتصال والرأي العام، هو أن الهجمة القديمة الجديدة على الإسلام لا تزداد ضراوة وحسب في تخفيها بين ثنايا المنهج وأداة البحث، وإنما تحاول في الوقت نفسه أن تكسب أرضاً داخل نطاق معسكر الإسلام نفسه، وهي لا تعدم بيننا من لا يستلهمون في فكرهم وجهدهم سوى وحيها الخادع ولألائها الزائف.

وإذا كان «إتصال» الشرق العربي بأوربا يفسح المجال للعديد من القضايا التي لا تدخل في نطاق البحث الحالي، فلعل لنا أن ننهي هذه النقطة بكلمات للمستشرق «جيب» إختار المستشرق الكبير «نيكلسون» أن ينهي بها تاريخه الشهير: A Literary History of The Arabs وعسانا أن نخرج منها بشيء:

«... إن الأدب العربي الجديد ليس وريثاً للأدب العربي الكلاسيكي القديم إلا في نطاق محدود، بل وحتى يجنح إلى نبذ تركته كلية. وقادة هذا الأدب في الغالب رجال نهلوا من ينابيع أخرى وينظرون إلى العالم بعيون مختلفة. ومع ذلك فإن الماضي لا يزال يؤدي دوراً في خلفيتهم الفكرية، وله على فريق منهم قبضة لا تهزها التأثيرات الجديدة إلا فيما ندر. وقد اشتبك أشياع القديم والجديد، لعقود عدة، في صراع يستهدف روح العالم العربي، ولم يتأكد فيه النصر بعد لفريق دون فريق. وأبطال هذا الصراع... هم الطبقات التي تعلمت في أوربا من المصريين والشوام من ناحية والطبقات الأخرى، في مصر وغيرها من البلدان العربية الأقل تقدماً، التي تلقت تعليماً تقليدياً من ناحية أخرى. وأياً كانت النتيجة التي سينتهي إليها هذا الصراع، فلا شك في أنه نزع العالم العربي من مرساه القديم،

وفي أن الأدب المعاصر في مصر والشام ينفث في تطوره الحالي روحاً غريبة عن التراث القديم».

وإلى الذين قد يعن لهم أن يردوا ذلك إلى الأدب خاصة، على ما في ذلك من تجاهل لوجه من أشمل وأخطر وجوه الإتصال، نسوق العبارة التي شاء «نيكلسون» أن يعقب بها بعد هذا الكلام مباشرة: Hitherto western culture has only touched the surface of Islam «إن الثقافة الغربية لم تمس الإسلام حتى الآن إلا من عند السطح». ثم مضى يتساءل «عما إذا كانت هذه الثقافة الغربية ستضرب في نهاية الأمر في الأعماق وتخترق الحواجز الداخلية لهذا النظام الكلامي Scholastic discipline والتراث الأدبي المتأصلين في وجدان الشعوب الإسلامية[1].

وأحسب أن كلام «جيب» و «نيكلسون» يغنينا عن التعقيب في هذا السياق وإن كان لا يفي الباحثين منا في مجالات العلوم الإجتماعية والسياسية وبقية فروع العلوم الانسانية من أن يطوروا مناهج جديدة تد تراثنا وتجلوا عبقريته، وأن يستخدموا أداة بحث تخلصه مما علق به.

حيرة لها مغزى:

وكان من الطبيعي أن تنتهي مناهج البحث الغربي في مجالات الدراسات الإسلامية، بعد مسيرة سبعة قرون طوال، إلى مواجهة معضلة يستعصي على العقلية الغربية فهمها، وإن سلمت بها، وهي أن للإسلام جذوة روحية تزداد اتقاداً أو هي لا تخبو، تحت ما تعرض ويتعرض له الشرق المسلم عامة والشرق العربي خاصة من قهر يطول وظلم يقيم. وهم إذ

---

(١) R. A. Nicholson, A literary History of the Arabs, London, Cambridge University Press, 1956, PP. 469 - 70.

يقفون عند هذه الظاهرة ويطيلون الوقوف تأبى عليهم عقليتهم أو تأبى عليها مناهجهم ومقاصدهم ألا يتجاوزوا مقارنة عقيدة الإسلام وحضارته بغيرها من العقائد والحضارات التي لا يقعون فيها على مثيل لهذه الظاهرة الفريدة ، إلى نظرة متجردة تعينهم على فهم خصائص في عقيدة الإسلام تقيم هذا الفارق وغيره بينها وبين المعتقدات التي تتناول بالدرس في علوم الأديان وتواريخها ومقارناتها .

ولهذه الظاهرة الفريدة في ذاتها دلالة بالغة على ما يستقيم في مسألة الإعتقاد وما لا يستقيم ، وعلى ما يقوم على عقل الإنسان وينسجم مع فطرته وما لا يقوم أو ينسجم .

ونسوق لمن يريد أن يتأمل هذه الظاهرة الفريدة ، حقيقة أخرى لا نحسبها تجاوز إدراك من يقرأ تاريخ أو تواريخ العالم : مؤداها أن جيوش المسلمين ـ ما دمنا بصدد القوة وأنساق الأفكار ـ لم تجز بلدة لتتركها وقد حل بها الخراب وانتهبت يد السلب كل ما فيها على نحو ما هو مشهود به للتتار والمغول والصليبيين[1] ، وإنما أرست على النقيض من ذلك كله أسس تحضر أقامت البنيان وحررت العقل وقومت الوجدان .

فأية قوة تلك التي استطاعت في أول أمرها أن تغير المواقف البعدية التي تتداخل لتكون المفاهيم ، ثم شكلت بعد ذلك المواقف الأولية التي تكون نواة الشخصية ؟[2] .

فعلى من شاء أن يفهم هذه وتلك أن يتدبر أمر الإسلام أول ما يتدبر من

(١) انظر الدراسة التي تكاد تكون الوحيدة في شمولها للحروب الصليبية من مقدماتها وحتى نهاياتها ، وهي واحدة من الدراسات القليلة التي تجلو ما أشرنا آنفا عند ونسيمان : Steven Runciman, A History of the Crusades, Harmondsworth, Penguin Books, 1971, in three Volumes.

(٢) انظر الفصل السابع من هذا البحث .

خلال القرآن ، فإن أوفى على غاية في ذلك بتوخي روح التجرد ، فإنه ولا شك مدرك بعقله صفة الإعجاز فيه ، على نحو يقيم الدليل بعد ذلك على وجود ما ليس لعقل إنسان قدرة على الإحاطة به .

وإذا كان منهج هذا البحث يصل ما بين القوة والإيديولوجية بوشائج توحدها وإن اختلفت الأوجه البادية ؛ وإذا كان للإيديولوجية كما يصطلح عليها الغربيون معاني وخصائص محددة ، فما مبلغ انطباق ذلك أو عدم انطباقه في نطاق ما هو إسلامي؟ .

ولعلنا نستهدف بذلك أن نظهر جزئياً كيف أن الركون إلى الأنماط والقوالب ـ التي تصب بعض فروع العلم الظواهر المختلفة فيها ثم تربط بينها وتحاول أن تعلل ـ مضلل إلى حد بعيد ويفسح المجال للإعتساف والتجني تحت ستار العلمية أو يضع العوائق ـ إذا خلصت النوايا ـ في طريق القدرة على توخي الموضوعية العلمية . ويصدق هذا أكثر ما يصدق في مجالات مقارنة العقائد وتصنيفها .

لعل لنا أن نعود في هذا السياق إلى تناول الإيديولوجية[١] من زاوية تحدها النظرة الماركسية ، إذ أن استخدام لفظة الإيديولوجية ، وإن كان يرجع من الناحية التاريخية إلى أيام الثورة الفرنسية ، يرتبط الآن ارتباطاً ظاهراً بالماركسية ، ولا تكاد التعريفات الأخرى للإيديولوجية تنأى بها في كثير عن المفهوم الماركسي لها اللهم إلا في نطاق محاولة استحداث فوارق بين ما هو ماركسي وما هو مضاد للماركسية في الفكر الغربي ولذلك فإن هذا البحث لا يأبه كثيراً لتلك الفوارق .

والأمر الذي يعنينا في الأساس يجمله سؤالان يترتب أحدهما على الآخر:

---

(١) انظر الفصل الثاني من هذا البحث .

أولهما: هل الإسلام إيديولوجية لها نفس الخصائص التي تحددها التعريفات الغربية لهذا المصطلح؟

وثانيهما: إذا كانت فلسفة الإيديولوجية تحدد طبيعة أسس مجابهتها لغيرها من الإيديولوجيات، فهل تتفق هذه الأسس في الاسلام مع غيرها من الأسس أم تختلف؟

وواقع الحال أننا نجد أنفسنا مضطرين إلى أن نجمل في نطاق حيز محدود ما لا يمكن أن يوفي على غاية فيه إلا في بحث مستفيض، وعلينا مع ذلك أن نحاول على وعي بأن الإجمال لا يعني في هذا المقام بالذات عن تفصيل وتفصيل.

الايديولوجية عند الماركسيين:

لابد لنا، حتى نفهم المعنى الدقيق للايديولوجية عند الماركسيين، من أن نلقي نظرة على مفهومي «القاعدة Basis» و «البناء الفوقي Superstructure» عندهم. فهم يرون أن هذين المفهومين من مفاهيم «المادية التاريخية» يظهران الصلة بين العلاقات الإقتصادية الإجتماعية وكل العلاقات المجتمعية الأخرى. وتتمثل القاعدة في مجموع علاقات الإنتاج Production Relations التي تشكل البناء الإقتصادي للمجتمع. ومفهوما «القاعدة» و «علاقات الإنتاج» يترادفان ولكنهما لا يتطابقان. ويتلازم مفهوم «علاقات الإنتاج» مع مفهوم «قوى الإنتاج» أو القوى المنتجة Productive Forces، بينما يتلازم مفهوم «القاعدة» مع مفهوم «البناء الفوقي» ويشمل البناء الفوقي الأفكار والتنظيمات والمؤسسات. وتشمل الأفكار البنائية الفوقية الآراء السياسية والقانونية والأخلاقية والجمالية والدينية والفلسفية، التي يصطلح أيضاً على تسميتها بـ «أشكال الوعي الإجتماعي Forms of Social Consciousness. وتعكس كل أشكال الوعي الإجتماعي العلاقات

الإقتصادية بطريقة أو بأخرى. فبعضها كأشكال الوعي السياسية والقانونية، يعكس العلاقات الإقتصادية مباشرة، والبعض الآخر، كالفن والفلسفة، إن هو إلا إنعكاسات غير مباشرة لها. وتضم علاقات البناء الفوقي العلاقات الإيديولوجية. وعلى حين تتشكل علاقات الإنتاج مستقلة عن وعي الإنسان، فإن العلاقات الإيديولوجية لا تتشكل إلا بعد دخولها في هذا الوعي. وتستقل ظواهر البناء الفوقي نسبياً في تطورها بالرغم من تحكم القاعدة فيها وترتبط بكل شكل من أشكال الوعي الإجتماعي تنظيمات ومؤسسات بعينها، فترتبط الأحزاب السياسية بالأفكار السياسية، وترتبط مؤسسات الدولة بالأفكار السياسية والقانونية، وترتبط الكنيسة وتنظيماتها بالدين وهلمّ جرّا. فلكل تكوين إجتماعي إقتصادي قاعدة محددة وبناء فوقي يقابلها(١).

ويفرق المؤرخون الماركسيون بين القاعدة والبناء الفوقي في المجتمعات التي تتميز بتملك العبيد أو بالإقطاع أو الرأسمالية أو الشيوعية. وتترتب التغييرات التي تطرأ على القاعدة والبناء الفوقي على التحول من تكوين إجتماعي Social Formation إقتصادي إلى تكوين إجتماعي إقتصادي آخر. كما يتطور البناء الفوقي في نطاق التكوين الإجتماعي الإقتصادي الواحد بانتقال هذا التكوين من مرحلة إلى مرحلة، كما هي الحال عندما ينتقل التكوين إلى الإمبريالية مثلاً، إذ يظهر البناء الفوقي عندئذ علاقات الجنوح المتزايد إلى الرجعية.

والبناء الفوقي، الذي تأتي به القاعدة الإقتصادية إلى الوجود والذي إن هو إلا انعكاس لها، ليس سلبيا، إذ أنه يلعب دوراً فعالاً في العملية التاريخية ويؤثر في كل جوانبها، بما في ذلك الجانب الإقتصادي الذي يدين في هذا البناء الفوقي بوجوده. ففي المجتمع الذي يقوم على الملكية الخاصة

---

(١) V. Afanasyev & Others, Fundamentals of Scientific Socialism, Moscow, Progress Publishers, 1959, PP. 258 - 285.

تنطوي القاعدة والبناء الفوقي على بنـاء متضـاد Structure Antagonistic . ويسود المجتمع الرأسمالي، على سبيل المثال، صراع إيديولوجي عنيف بين البرجوازية والبروليتاريا وبين وجهات النظر السياسية والأخلاقية والفلسفية وغيرها لهذه الطبقات. وتحدد طبيعة البناء الفوقـي المتضـادة مع القاعـدة الإقتصادية في المجتمع الطبقي، الأدوار المتعارضة لإيديولوجية الطبقات. ففي المجتمع الرأسمالي يقوم البناء الفوقي السياسي، بأفكاره البرجوازية عن الحرية والمساواة وغيرها، على خدمة القاعدة الإقتصادية الرأسمـالية، في حين تتجه الإيديولوجية والتنظيمات البروليتارية إلى القضاء علـى القواعـد الإقتصادية الرأسمالية ولا يتأتى إلا في المجتمـع الإشتراكي ـ حيث تخلـو علاقات الإنتاج من التضاد ـ أن يصبح البناء الفوقي أكثر تجانسـاً بالمعنى الإجتماعـي ويستهـدف خدمـة قضية عامـة، هي إصـلاح وتطـوير القاعـدة الإقتصادية للإشتراكية.

ولقد عمدنا إلى بيان هذه المفاهيم بدقة على النحو الذي يطرحهـا به الماركسيون إذ أن ذلك يبين من وجهة نظرهم الأسس التي يقوم عليها النسق الإجتماعي السياسي وعوامل تغييره ودور الإيديولـوجية في ذلك. ويعـرف الماركسيون الإيديولوجية ـ بعد ذلك ـ على أنها نسق من الآراء أو الأفكار السياسية أو القانونية أو الأخلاقية أو الجمالية أو الـدينية أو الفلسـفية[1] . والإيديولوجية جزء من البناء الفوقي، وهي بهذا المعنى تعكس في النهـاية العلاقات الإقتصادية، ويمثـل الصـراع الإيديولوجـي الصـراع الطبقـي في المجتمع الذي تصطرع فيه الطبقات[2] . وقد تكون الإيديولوجية علمية أو

---

(١) Clemens Dutt, Fundamentals of Marxism- Leninism, Moscow, Progress Publishers, 1964 P 141 Seq.

(٢) G. Kursanov, Fundamentals of Dialectical Materialism, Moscow, Progress Publishers, 1967, PP. 5 - 17.

غير علمية ، وقد تكون انعكاساً حقيقياً وزائفاً للواقع ، حيث تغذي مصالح الطبقات الرجعية إيديولوجية زائفة ، بينما تعين مصالح الطبقات التقدمية والثورية على تشكيل إيديولوجية علمية .

ولقد استطردنا في هذا العرض بأمانة وبالمصطلح الماركسي نفسه إلى هذا الحد لأننا لسنا من أنصار إغلاق القضايا بالتعمية أو بمنطق خاص لا يلبث زيفه أن يثير نفور العقول ، ولأننا نريد من ناحية أخرى أن نصل مع الماركسيين إلى ما انتهوا إليه من أن للإيديولوجية ـ بالرغم من أنهم يرون أن الإقتصاد هو الذي يحكم تطورها ـ إستقلالا نسبيا معيناً يرد إلى استحالة تفسير محتوى الإيديولوجية عن طريق الإقتصاد مباشرة من ناحية ، وإلى كون التطور الإقتصادي والتطور الإيديولوجي ليسا متساويين من ناحية أخرى ، فضلا عن أن استقلال الإيديولوجية النسبي هذا يزداد وضوحاً إذا ما لاحظنا أداء القوانين الداخلية التي تحكم التطور الإيديولوجي والتي لا يمكن إرجاعها مباشرة إلى الإقتصاد في المجالات الإيديولوجية البعيدة كل البعد عن القاعدة الإقتصادية .

ونحن لا نحب أن نختلف كثيراً مع الماركسيين فيما انتهوا إليه أو فيما كان لا بد لهم من أن ينتهوا إليه وإلا استحال نتاج عقل الإنسان ، عبر التاريخ كله ، إلى مادة يحكمها قالب واحد ذو صفات معينة تحدد سمات هذا الفكر وما يرتبط به من سياسة وتشريع وأخلاق وفن ودين وفلسفة ؛ وإنما نحب أن نستخلص في وضوح أن النسق الفكري ـ ولا نقول الإيديولوجية ـ يمكن أن يكون غير ذلك .

وإذا كان حظ الماركسيين الأول من المعرفة الدينية قد ارتبط بقدرتهم على التعرف على معتقداتهم الأصلية والذهاب معها مذاهب شتى بحيث ولوها في نهاية الأمر أدبارهم ، فإن حظهم هذا قد ارتبط في الوقت نفسه

بقصور أداة عصرهم عن أن تنقل لهم صورة صحيحة للدين الذي يوفي على كل غاية فيما يستهدفونه في جانب المادة، وفي الجانب الذي تفتقد حياة الإنسان بدونه كل مغزى لها وهو جانب الروح.

وهذا يعني أن قدرتهم على فهم ما تطرحه حضارة الغرب من معتقدات وفلسفات آلت بها مسيرة القرون إلى الإفلاس[1] وارتبطت بادىء ذي بدء بعجزهم عن الإلمام بما تستقيم عليه وبه طبيعة الإنسان، ولا نحب أن نستطرد في التعليل لذلك بالقصور الإتصالي من ناحية وبالحروب الضارية التي شنتها المعتقدات الأخرى ضد الإسلام من ناحية أخرى، على وعد بأن نعود إلى ذلك في مبحث آخر.

والفلسفة الماركسية تأتي متأخرة في تاريخ الفلسفة الغربية، لتعكس

---

(١) يقول برتراند رسل في تقديمه لكتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية، والذي نتفق معه تمام الاتفاق على أنها فلسفة غربية:

« . . . إن معظم الأسئلة التي توليها العقول المتأملة جل اهتمامها هي من ذلك الضرب الذي لا يستطيع العلم الاجابة عليه، والاجابات الواثقة التي يعطيها أصحاب اللاهوت لم تعد تبدو مقنعة كما كانت في القرون الخوالي . . . » ثم يمضي بعد ذلك قائلا: «إن العلم يخبرنا بما نستطيع أن نعرف، ولكن الذي نستطيع أن نعرفه قليل، وإذا ما تناسينا مقدار ما نجهل نصبح مستغلقين إزاء الكثير من الأشياء بالغة الأهمية. وعلم اللاهوت من ناحية أخرى يجعلنا نعتقد اعتقاداً تعسفياً أننا نعرف على حين أننا في الحقيقة نجهل، وهو ولد بذلك ضربا سخيفاً من الاهانة للكون.

إن علم اليقين، إزاء الآمال والمخاوف الواضحة، مؤلم ولكن ينبغي أن نحتمل إذا كان لنا أن نحيا دون أن نستعين بما يريح من أقاصيص العفاريت . . . والشيء الرئيسي الذي لا زالت الفلسفة تستطيع في عصرنا أن تفعله لدارسيها هو أن تعلمهم كيف يحيون دون يقين ودون أن يشلهم التردد بالرغم من ذلك»:

B. Russell. History of Western Philosophy, London, George Allen & Unwin Ltd, 1946, PP. 10-11.

انظر الملحق السابع في الملاحق الانجليزية.

مع غيرها من الفلسفات الغربية المعاصرة ما يسود الفكر الغربي بعامة من أفكار . ولا يرد ذلك ـ كما يحلو للعنصريين أن يزعموا ـ إلى قدرة على توخي موضوعية علمية تتميز بها العقلية الغربية أو الأوربية دون العقلية الشرقية ، وإنما يرد ذلك إلى أن مادة الفكر التي طرحت على هذه العقلية لم يكن لها من الخصائص ما يستقر بها على يقين منطق أو طمأنينة قلب . ويشهد على ذلك الواقع التاريخي والإجتماعي للغرب على النحو المطروح في مختلف مجالات فروع العلوم الإنسانية .

ولنا بعد ذلك وقفة نجمل فيها الأمور التي يحق معها للناظر في تجرد إلى النسق الفكري الإسلامي أن يخلص إلى أن عقيدة الإسلام كدين ودولة تعكس إتصال هدى السماء بجهد الإنسان الذي قدر له أن يسعى على هذه الأرض ليبلغ بنفسه غايتها عبر حياة لا يمكن أن تستقيم له أو به إلا على أسس من العدل والخير والخلق تقوم عليها الصورة المثلى لإجتماع نوعه وتفاعله بتحقيق التوازن بين ما ركب فيه وجبل عليه كفرد وبين ما يقتضيه هذا الإجتماع .

﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ (٩ ـ الحجر) .

﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴾ (٢٣ ـ الانسان) .

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾ (٨٩ ـ النحل) .

﴿ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا ﴾ (٤٥ ، ٤٦ ـ الأحزاب) .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ (٢٨ ـ سبأ) .

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل

لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[1] (١٣ ـ الحجرات).

أولاً:

إذا كان الماركسيون يفسحون المجال للإستقلال النسبي للإيديولوجية على النحو الذي أسلفناه، وإذا كان الواقع الحضاري الذي ينتمون إليه قد انتهى بالعقل الغربي إلى إلحاد له تاريخ في أوربا وإلى التبشير «بموت الرب» في الولايات المتحدة الأمريكية[2]. على تعدد واختلاف في المذاهب والفلسفات لا يكاد يقر معها العقل المعاصر على قرار، إذا كان هذا، وكان ذاك، فإنه يحق لنا أن نقول للحضارة الغربية: إن إيديولوجية الإسلام، إذا صح أن نستخدم هذه اللفظة، لم تنبثق من خلال واقع تاريخي معين أياً كانت تسميته، وإنما طرحت من على عقل الإنسان ووجدانه لتأخذ بيده عبر كل واقع وأي واقع يرتبط بحياته على اختلاف بيئاته وتنوعها من حيث الخصائص والمكان والزمان.

ثانياً:

إن طرح المعتقد الإسلامي على هذا النحو ينطوي على إعجاز فريد، أو هو وحيد، في كونه لا يلغي أو يجافي قدرة العقل بوضعه إزاء معجزات

---

(١) لم نشأ أن نورد أيات القرآن العظيم التي نستشهد بها موزعة داخل السياق، ورأينا أن نجملها عقب كل مسألة نعالجها، إذ أن ذلك أوفر على الغاية وأبين، فالنظرة إلى هذه الآيات مجتمعة تظهر ما قصدنا إليه من دلالة قدمنا لها قبل الاستشهاد وقد اتبعنا مع ذلك، نهجا يعين على ايضاح الفكرة. وهذه الأيات ـ على سبيل المثال ـ تبين حسب ترتيبها:

١ ـ إن الله سبحانه وتعالى هو الذي نزل القرآن، ٢ ـ وإن هذا التنزيل كان على مهبط وحي الله محمد صلى الله عليه وسلم، ٣ ـ وإن لهذا التنزيل وظيفة معينة يؤديها، ٤ ـ وإن مهمة الدعوة تناط بالرسول العظيم، ٥ ـ وإن هذه الدعوة موجهة إلى الإنسانية بأسرها، وليس ثمة معيار للتفرقة بين أناس وآخرين سوى الالتزام بمقتضيات هذه الدعوة.

(٢) انظر الملحق الثامن في الملاحق الانجليزية.

تخرق القوانين التي استطاع أن يلحظ منطقها أو اضطرادها في الأشياء من حوله؛ ولكنه ـ على النقيض من ذلك ـ يحيي في هذا العقل كل قدرة على النفاذ والإستقراء والتأمل، ويفتح له صفحات الكون والنفس ليقرأ فيهـا ما شاء له أن يقرأ.

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ (٥٣ ـ فصلت).

﴿وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾ (١٠٥ ـ يوسف).

﴿إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون﴾ (٢٢ ـ الأنفال).

﴿هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون * وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون * وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون * وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون * وعلامات وبالنجم هم يهتدون * أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون * وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم * والله يعلم ما تسرون وما تعلنون * والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون * إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون * (١٠ ـ ٢٢ النحل).

﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ (٢٨ - فاطر).

ثالثاً:

لم تتحد معجزة الإسلام عقل الإنسان إلا في خصيصة يرتبط بها صميم نشاطه. فتحدى القرآن الناس أن يأتوا، إن استطاعوا بآيات كتلك الآيات المحكمات التي آتى بها.

﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (١٣ - هود).

﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾. * (٣٧، ٣٨ - يونس)

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين. ﴾ * (٢٣ - ٢٤ البقرة).

وهذا يعني أن القرآن ناجزهم بسلاح «الكلمة»، وهو سلاح متاح لهم، ومن طوقهم أن يبلغوا في حسن استخدامه آماداً بعاداً، فهل استطاعوا؟ وهل يستطيعون؟ كلا.. لا نقولها في ثقة الذين يجهلون ما يرددون، ولكننا نقولها في يقين من يستطيع ويستكنه خصائص عبقرية اللغة، ثم يقف في حيرة إذ يتأمل هذا البناء القرآني الشامخ، الذي استعصى فهمه ويستعصي على المستشرقين والمبشرين الذين لا يحق لهم أو لأيهم أن يزعم أنه يجمع في فهمه القاموس المنقوص للعربية مقومات النشأة والفطرة والقدرة، فضلاً عن أن يدعي روح التجرد التي نستطيع أن نقول أننا لم نقع

أبدأ عليها عندهم على طول رحلتنا على دروب المستشرقين والمبشرين الملتوية .

رابعاً :

ولا ترتبط معجزة الكلمة في الإسلام بالبناء اللغوي القرآني وحسب ، بل اتصلت الكلمة بالكلمة لتعطي ، فيما تعطي ، تشريعاً يتسق مع جميع مقومات الإنسان في انفراده واجتماعه .

﴿ الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ . (١ - هود) .

﴿ الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾ . (١ - إبراهيم) .

﴿ ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ . (٨٩ - النحل) .

﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ . (٤٨ - المائدة) .

﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ . (٥٢ - الأعراف) .

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب﴾ . (٢٩ - ص) .

﴿ إنا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل﴾ . (٤١ - الزمر) .

ولا أحسب أن منهج هذا البحث يفسح المجال للتوسع في عرض ذلك .

خامساً :

وحسبنا أن نشير إلى أن اكتمال القضايا القرآنية في تناولها للمفهوم الإلهي ، ولمفهوم النبوة ، وللكون وللإنسان وفطرته وما يتصل به ، وفي تناوله للعلاقة بين هذه القضايا جميعاً يدل مع النظرة التي تتجرد وتستقيم ـ على أنه يستحيل على عقلية واحدة عاشت في القرن السابع أن تأتي بهذا القرآن من عندياتها وإن أتيح لها ـ جدلاً ـ كل ما أتيح عبر التاريخ ، وحتى القرن العشرين ، من معرفة بشرية أو من قدرة بشرية على المعرفة . والثابت أن محمداً صلى الله عليه وسلم جاءنا بالقرآن ولم يستطع المستشرقون والمبشرون أن يشككوا في صحة نسبة القرآن أو أي جزء منه إلى مهبط وحي الله : محمد صلى الله عليه وسلم .

والواضح إذن أن هذا القرآن لم يأت به رسل متعاقبون على امتداد زمني واسع على تشكك في النص أو في نسبة جزء منه إلى هذا الرسول أو ذاك ، فضلاً عن أنه أنزل إلى البشرية في مجموعها . فالإسلام لا يحمل قوماً معينين على رؤوس البشر أجمعين ، ولا يختار من بينهم مختارين .

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ . (٢٨ ـ سبأ) .

﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ . (١٠٨ ـ الأعراف) .

﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ . (١٣ ـ الحجرات) .

﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ . (٣٣ ـ التوبة) .

« بعثت إلى الأحمر والأسود » . (حديث شريف) .

« **لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى**». (حديث شريف).

ولعلنا نستخلص مما تقدم أن المعاني التي ترتبط بلفظة «الإيديولوجية» في الفكر الغربي لا يمكن أن تنصرف على الإجمال والتخصيص إلى عقيدة الإسلام؛ وعلينا أن نبحث عن لفظة أخرى إذا كان لنا أن نعبر عن النسق الفكري الإسلامي في مفهومه الصحيح؛ وأحسب في نهاية الأمر أننا في غنى عن ذلك. وليس لأي إطار أو قالب مستجلب أن يفرض نفسه علينا في نظرتنا إلى عقيدتنا إذا كان ذلك سيجعلها تلتبس بمعان نحن أحرى بأن ندفعها عنها.

أسس الدعوة في الإسلام:

وبعد أن انتهينا إلى أن للإسلام خصائصاً تغاير تلك التي تميز «الأيديولوجية» كما تعارف عليها الغربيون على الإجمال، نجد أن معاني الآيات والأحاديث التي أوردناها في الفقرة السابقة تنتهي بنا بالضرورة إلى معالجة السؤال الثاني الذي طرحناه حول أسس الدعوة في الإسلام.

فللإسلام، إذن، دعوة يتوجه بها إلى البشرية في مجموعها، ولهذه الدعوة من الخصائص ما يجعلها قادرة على أن تفي بغاية إنسان القرن العشرين فيما ينشده من تكامل، لا على مستوى الجماعة بالمعنى الضيق وحسب، بل على مستوى جماعة الإنسان على تباين البيئة واختلاف المكان. وحسبنا في هذا المقام أن نعالج هذه المسألة من خلال نظرة واحدة من أكبر الثقاة الغربيين، كما يقولون في مجالات الدراسات الإسلامية وهو W. Mountgomery watt إذ أن ما ينتهي إليه هذا المستشرق، على ما به من انحياز لم تستطع حركة الإستشراق في عمومها أن تخلص نفسها من ربقته، يمثل ما اضطر الباحثون الغربيون إلى التسليم به بعد طول عناء وجنوح إلى التعمية والإلتواء. فنراه يخصص في نهاية كتاب له عن الإسلام وتكامل المجتمع «صفحتين للحديث عن مستقبل الإسلام يسلم فيهما في وضوح

كامل بهذه الحقيقة التي طال تجاهلها، وإن كان هذا التسليم لا يقصد به إحقاق ما هو حق، بقدر ما يقصد به تنبيه الغرب إلى ما يمكن أن يكون من أمر هذا الدين، إذا استيقظ أصحابه من سباتهم وأفاقوا من غفلتهم، وعادوا إلى الإستمساك بالعروة الوثقى، وقرر لهم أن يعاودوا إبراز الدور الحضاري للنسق الفكري الإسلامي. فهو يرى ـ W. M. Watt ـ «أن النقطة الأساسية في هذه المسألة هي التجديد الروحي أو استعادة القوة المحركة The fundamental point is spiritual renwel or the recovery of dynamic » ويتساءل عما إذا كان ذلك ممكناً بالنسبة للإسلام وعما إذا كان من الممكن إعادة الحياة والحيوية إليه بعد قرون من الإزدهار والإنحسار. ونراه يضطر إلى التسليم بأن كل شيء يوحي بأنهم ـ أي الدارسين الغربيين ـ ليسوا في وضع يمكنهم من القطع باستحالة ذلك، وإن كان دون تحقيقه خرط القتاد. ومن الغريب حقاً أن نجده يحاول أن يعلل في الوقت نفسه لعدم قدرته على القطع برأي في هذه المسألة بأنه لا تتوفر للإنسان في الوقت الحاضر المعرفة الكافية التي تمكنه من أن يدلي برأيه، ويشكك حتى في إمكانية توفر هذه المعرفة مستقبلاً. ثم يقول: «إن حركة الحياة في قلوب أفراد الجماعة تبدو في الأساس خفية بمعنى أنها ليست من حيث المبدأ في متناول علم الإنسان». ويزعم أن أي جهد مهما بلغ لن يمكنهم والحال كذلك من التكهن بما سيكون عليه أمر الإسلام، كما لو كانت المسألة لا تناط إلا بالنيات التي يعول في الحكم عليها على ما تنطوي عليه القلوب، وكما لو كان الإسلام ديناً بلا تاريخ يشير ما مضى معه إلى ما يحتمل في مستقبل أيامه، وكما لو كانت مقوماته من الخفاء بحيث لا يستطيع الباحث أن يقف منها على أثر.

ولسنا ندري، أو لعلنا ندري، ما إذا كان ذلك سذاجة منه أو تساذجاً!

واعجب معي، وأطل العجب، إذ نراه بعد ذلك يقرر «أن الإسلام في

سعيه إلى كسب العالم كله سيتصرف على نحو يتسق مع سجله القـديم» .
فصاحبنا ـ W. M. Watt ـ يعي إذن ، أن للإسلام سجلاً تاريخياً قديماً يجلو واقعة كممارسة ، ولا شك في أن سمات هذه الممارسـة ترتبـط بخصـائص النسق الفكري الإسلامي ؛ وما قيمة التاريخ بعامة ، وما قيمة علم الإجتماع بخاصة ، إذا لم تستطع مناهجهما أن تعين الباحث على تقييم الظواهر على نحو يصل الماضي بالحاضر ويخرج من هذه العلاقة بما يمكنه من استشراف أمور المستقبل واحتمالاته؟

ثم يصل «وات» بعد ذلك إلى حقيقة لا نحسب أنها تخفى علـى أي ناظر إلى واقع عالمنا المعاصر، وهي أنه من غير المحتمل أن ينجذب الناس ، في هذا العالم الذي أصبح عالماً واحداً بالمعنى المادي ، إلى أي دين سوى ذلك الدين الذي يتوجه بـ «رسالة» إلى العالم كله . ثم يستطرد قائـلاً بالحـرف الواحد: «ولو أننا نظرنا إلى الإسلام ، إذن ، من وجهة النظر هذه ، نرى أنه ليس غير مناسب لأن يكون ديناً للعالم كله : If we look at Islam, then, from this point of view we see that it is not unfitted to be a religion for the whole world »[1] وكان بوسعه بالطبع أن يقول في بساطة «نرى أنه مناسب» بدلاً من «نرى أنه ليس غير مناسب» التي تنبي ـ بالرغم مما يحاوله من تعلل ـ عن الغصة في حلوقهم أو إن شئت فقل في عقولهم وقلوبهم من هذا الدين . وواقع الحال أن دعوة الإسلام وما تتميز به ليست في أي حاجة إلى قولـة يقولها من الفرنجة أو أشياعهم قائل ، أو يلتوي بها أو يحول دونها حائل ، كائناً من قد يكون ، أو كائنة ما قد تكون مكانته على الحقيقة أو الإدعـاء ، ولكننا نجري هنا على ما تقول به العرب من أن الحق ما شهدت به الأعداء . والحق في دعوة الإسلام بيّن وقائم بمقوماته وصفاته ، وإن حاول الخصوم

(1) W. Montgomery watt, Islam and the integration of society, London, Routledge & Kegan Paul. 1970, PP. 282 - 3.

أن يوهنوا من عزمة دعاته، وهيهات لهـم أن يبلغـوا الغـاية في ذلك، وإن تيسرت لهم أسباب النجح إلى حين:

﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ . (٣٢ - التوبة).

ولعله ليس من معاد القول في غير ما محل أن نذكر وقد شارف هذا الفصل على نهايته أننا لا نحاول، ولا يدخل في منهج هذا البحث أن نحاول، دفاعاً عن الإسلام، وإنما قصدنا إلى إلقاء لمحة من ضياء على الدور الحضاري للنسق الفكري الإسلامي وقيمته الإتصالية الكبرى التي ترتبط بقدرته على جعل التفاعل الإجتماعي السوي يؤدي إلى التكامل الإجتماعي لا على مستوى الجماعة بالمعنى الضيّق وحسب، بل على مستوى جماعة الإنسان.

ونعود هنا إلى Watt الذي يقول «لقد كان الإسلام عبر تاريخه ديناً ذا رسالة عالمية. وفي سعيه لكسب العالم كله سيعمل على نحو يتفق مع سجله القديم وسيلقى أمره قبولاً، أيضاً، باعتبار أن فكرته عن المجتمع الديني - الذي يقوم على أساس من الوحي والذي يتبع شرعة سلوكية منزلة من السماء - هي الأساس المرضي الوحيد لمجتمع العالم. It has throughout its history been a missionary and universalistic religion. In seeking to win the whole world it would be acting congruently with its past record. It would make a good case, too, for thinking that its idea of a religious community based on revelation and following a divinely - given code of conduct is the only satisfactory basis for a world Society. (١)

فلـ «دين القيمة» أصول إعتقادية تقيم الإيمان على سواء الحجة في العقل والوجدان. وأحكام تشريعية تهيىء السبل المثلى لإجتماع الإنسان،

(١) «انظر الملحق التاسع في الملاحق الانجليزية.

على اختلاف المكان أو الزمان، وتتكامل هذه الأصول وتلك الأحكام لتناغم بين ما يعتمل داخل الإنسان في انفراده وما تقتضيه دواعي إجتماعية، فتقر النفوس بلا قلق أو اغتراب، وتنسق الجهود في غير ما خلل أو اضطراب، ويستطيع الإنسان أن يمضي في بناء حضارته وإثرائها في كل مستوياتها.

وإذا كانت الأصول الإعتقادية للإسلام تستطيع أن تقيم حجتها على كل أساس سوي يستقيم في عقول أولي الألباب من أصحاب الموضوعية والتجرد؛ وإذا كانت أحكام الإسلام التشريعية تهيىء سبل إجتماع الإنسان على أسس العدل المبين المطلق التي لا يستطيع معها دعي أو مشعوذ أن يسعى بظلم أو يسوغه دون أن يخرج من دائرة المسلمين الذين تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم؛ نقول إذا كانت هذه وكانت تلك، كان على دعاة الاسلام أن يستلهموا روحه ويسترشدوا بهدى قرآنه الذي يقول:

﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾. (١٢٥ - النحل)

﴿لا إكراه في الدين﴾.

﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾. (٨ - الممتحنة).

هذه في اقتضاب الأسس المكينة التي تقوم عليها الدعوة التي تضع عقل الإنسان حيث ينبغي له أن يوضع وتناجزه بالكلمة والمنطق الذي يستقيم دون عنت، ثم هي بعد ذلك لا تقيد حرية من شاء في أن يعتقد فيما يشاء ثقة منها في غلبة المنطق السوي إذا أتيح له أن يصل إلى أفهام الناس.

فما بالنا نتقاعس ونفسح المجال لغيرنا ممن ليست لإيديولوجياتهم مقومات عقيدتنا كي تعلو أصواتهم بالباطل اللجلج، وتركنا عقول شبابنا نهباً مشاعاً

تتناهشـه مخالـب سياسـات الإتصـال التـي يرسمهـا أصحـاب هذه الإيديولوجيات، وكيف ندع انتماءاتنا الثقافية أو الفكرية تتوزع هنا أو هناك، والحق بين لا يتطلب تسيده سوى أن يتاح له الطرح الخالص النقي الذي لا تطوعه مصلحة أو منفعة، بل الذي يطوع العقول والقلوب جميعاً لما فيه صالح الإنسان، وسبحان الذي **﴿خلق الإنسان * علمه البيان﴾** .

المَــلاَحِق العَرَبِيَّة

الملحق الأول

دور اللغة العالمية في الاتصالات العامة وفي التفاهم الدولي(*)

يستخدم العالم قرابة من ٢٩٠٠ لغة. ويمكننا أن نقدم الهند كمثال في هذا الصدد حيث توجد ٥٠ لغة تقريباً. وفي القارة الأفريقية وحدها هناك ما يقرب من ألفي لغة مستخدمة، ذلك بخلاف العديد من اللهجات المنبثقة عن هذه اللغات المتعددة.

ولعلنا ندرك مدى الخسارة في الوقت والمال التي تنجم عن الافتقار إلى لغة موحدة. ونظراً لأن المتحدثين لا يستطيعون أن يتفاهموا مباشرة فإن الترجمة الفورية والتحريرية في المؤتمرات المختلفة، لكل وثيقة إلى عدد من اللغات، يضاعف التكاليف والطاقة المبذولة ضعفين أو ثلاثة أضعاف. وقد كشفت الوثائق التي نشرتها الأمم المتحدة عن جزء من المبالغ الضخمة التي أنفقت بسبب تعدد اللغات المستخدمة في الحياة الدولية.

(*) أوتون بانسير، دور اللغة العالمية في الاتصالات العامة وفي التفاهم الدولي: انظر: ندوة لوبليانا عن وسائل الاتصال الجماهيري والتفاهم الدولي، ١٩٦٨، وزارة الاعلام، كتب مترجمة، ٢٠٩.

ولا يخفى أن الأساليب المستخدمة في المنظمات الدولية الحكومي منها وغير الحكومي يقوم على أساس تفرقة لغوية: فهناك خليط من اللغات بعضها يعرف باللغات الرسمية (وهي كثيرة) وبعضها يطلق عليه «لغات عمل» وهناك لغات لا تحمل أياً من هذه الأوصاف. ولعل ذلك يتعارض مع مبدأ تحقيق المساواة بين الأمم الكبير منها والصغير. ويجدر بنا أن نشير في هذا الصدد إلى أي مدى يشعر الانسان عندما يتحدث إلى أجنبي لا يلم تماماً بلغته بإحساس بالنقص ولعل ذلك هو ما يفسر الحاجة إلى لغة دولية.

ولكن ألا تقوم هذه اللغة بالفعل منذ ثمانين عاماً أثريت خلالها بصفة متصلة بتراث عالمي فعلي، وهكذا فإن لغة «الاسبيرانتو» تبرز في أيامنا هذه باعتبارها الوسيلة الوحيدة القادرة على توفير الاحترام الكامل لمبادىء التعاون الثقافي.

لقد قررت اللجنة التنفيذية لليونسكو عام ١٩٥٩ أن تخلد عام ١٩٦٠ ستة من أكبر الشخصيات العالمية من بينها زامبنهوف أبو لغة الاسبيرانتو.

لقد حظيت هذه اللغة بالتأييد لأنها كانت ولا تزال لغة عالمية في عناصرها وفي استخدامها وفي طابعها الانساني ولعل ذلك يرجع أولاً إلى اختيار الكلمات ذات الاستعمال الدولي والتي ينتشر استخدامها في عدد كبير من اللغات.

إن من يعرفون الفرنسية والانجليزية والإسبانية والروسية والألمانية سوف يعثرون في يسر وبسهولة على بعض الكلمات المنبثقة من هذه اللغات. وسوف يهتدون بسرعة إلى هذه الحقيقة وهي أن الاسبيرانتو لغة أوروبية. غير أن الاسبيرانتو ليست ـ رغم ذلك ـ لغة أوروبية وذلك لأنها تشتمل أيضاً على عدة خصائص تقربها من اللغات المستخدمة في آسيا وأفريقيا.

إن الاسبيرانتو ليست كذلك لغة هندية ـ أوروبية. والمعروف أن جميع اللغات الهندية الأوروبية هي في الواقع لغات مطاطة من حيث استخداماتها. وبمعنى آخر فإن المقاطع التي تستخدم في تبيان العلاقات النحوية أو في تكوين مجموعات متجانسة من الكلمات عن طريق المشتقات المختلفة، ليس لها أي وجود مستقل، ولكنها ستبرز دائماً مرتبطة بأصولها. أما في الاسبيرانتو فإن العلاقات المتبادلة القائمة بين الكلمات لا تعبر عن وحدة الكلمات الثابتة. إن هذا التكوين اللغوي ينتشر استخدامه في اللغات التي تحتفظ بمشتقاتها الأساسية. ولعلنا لا نندهش إذا عرفنا أن المجريين واليابانيين شعروا بشيء من الارتياح منذ استخدموا هذه الطريقة التي تعتمد على الأصول والكلمات المتناهية في القصر.

وقد ظهر عام ١٩٥٩ أول مؤلف لدراسة الاسبيرانتو باللغة الصينية ولقد نشرت الصين الشعبية عدداً وفيراً ورائعاً من المؤلفات الأدبية بهذه اللغة.

لقد كانت الاسبيرانتو في الأصل لغة مكتوبة ولغة أدبية. وكان أول عمل اضطلع به زامينهوف هو ترجمته أمهات الكتب القومية في الآداب لهذه اللغة. فقد ترجم لشكسبير وموليير وشيللر وجوجول الخ... ومن بين الترجمات الحديثة عدد من مؤلفات جان بول سارتر وترجمة كاملة للكوميديا الإلهية لدانتي. ومما لا شك فيه أن الاسبيرانتو أكثر ثراء بالمؤلفات المترجمة منها بالمؤلفات التي كتبت مباشرة بهذه اللغة وهكذا بفضل هذه اللغة يمكن لمؤلفات ولأنباء إحدى الأمم الصغيرة أن تعرف على المستوى العالمي.

بيد أن تعميم استخدام اللغة الدولية في العلاقات الدولية لن يحول بأية حال من الأحوال دون أن تولي أية دولة من الدول وفقاً لموقعها الجغرافي واحتياجاتها الفعلية اهتماماً خاصاً في نظامها التعليمي لتدريس هذه اللغة الأجنبية أو تلك وأن تكفل للأشخاص المولعين بتعلم اللغات أن يدرسوا اللغة التي تروق لهم.

ولتسهيل مهمة التعرف على الآداب العالمية فقد أعد قاموس للاسبيرانتو أطلق عليه «بلينا فيرتارو» ويضم هذا القاموس ٧٨٦٦ كلمة تؤلف ثروة لغوية تشتمل على ٨٠٠٠٠ كلمة. كذلك أعدت قواميس متخصصة خاصة بالمصطلحات التي تستخدم في المجالات الفنية والعلمية المختلفة. وبلغ عدد هذه القواميس ١٢٠ قاموساً تتناول ٤٨ فرعاً من الفروع العلمية أو الفنية.

إن اللغة العالمية تلعب دوراً تتزايد أهميته من حيث كونها لغة معاونة بين الثقافات الشرقية والغربية. فمثلاً نجد أن المؤلف الياباني «رعب الجحيم» ومؤلفه أوجيرا ثيوفومي الذي يتحدث بطريقة واقعية عن الهجوم الذي تعرضت له بعض مدن اليابان عام ١٩٤٥ قد ترجم إلى الألمانية وقد استعان المترجم الألماني بالنسخة التي صدرت بالاسبيرانتو لهذا المؤلف الياباني.

حققت اللغة العالمية لدى من فقدوا نعمة البصر انتشاراً واسع النطاق وإن النسخ التي طبعت بطريقة بيريل والتي لا تزال باهظة التكاليف بسبب قلة من يشترونها على المستوى العالمي تثير اهتمام من فقدوا نعمة البصر وهكذا فإنه أمكن بفضل استخدام هذه اللغة العالمية إفساح الآفاق أمام مكفوفي البصر وهي آفاق كانت محدودة إلى حد بعيد في الماضي.

ولقد أدركت منذ فترة بعض المؤسسات التجارية والصناعية الكبرى (وفي مقدمتها شركة فيليبس وشركة فيات) تلك الآفاق العريضة التي يمكن أن تقدمها لغة الاسبيرانتو بالنسبة للدعاية على المستوى العالمي. ولقد أخذت المطبوعات الدعائية تظهر في كثرة متزايدة بالاسبيرانتو كما أخذت تظهر المنشورات السياحية والنشرات الجوية المكتوبة بهذه اللغة وقد أعلن الاتحاد الدولي للغة الاسبيرانتو بمناسبة عام التعاون الدولي تأييده للجهود

التي تبذلها الأمم المتحدة وتقديره لقرار اليونسكو الذي (. . . اعترف بالنتائج التي أمكن تحقيقها بفضل الاسبيرانتو في مجال التبادل الفكري العالمي ومن أجل تحقيق التقارب بين الشعوب) ولقد قام هذا الاتحاد بجميع التوقيعات لتأييد الاقتراح الخاص بأن تتولى الأمم المتحدة حل مشكلة اللغة الدولية المحايدة «الاسبيرانتو» وبأن توصي أيضاً الدول الأعضاء فيها بأن تولي اهتماماً بتدريسها وتشجيع استخدامها في العلاقات الدولية بين الشعوب.

وقد حاز هذا الاقتراح الذي ظهر عام ١٩٦٥ موافقة ٤٦٣ عضو اشتركوا جميعهم في التوقيع عليه بالتأييد. ومن بين الموقعين ١٤ دولة ووزيراً (رئيس جمهورية النمسا، رؤساء وزراء النرويج وإيسلندا و ١٣٥٧ عضواً برلمانياً و٩٩٣ لغوياً و ٦٨٧٩ من الحائزين على جائزة نوبل للسلام فضلاً عن عدد من أعضاء الاكاديميات العلمية والمعاهد وأساتذة الجامعات و٦٦٢٠ كاتباً وعدداً من الفنانين والصحفيين و ٥١٦٧٤ من المعلمين الخ. وقد اشترك في التوقيع كذلك ٣٨١٣ منظمة تضم ٦٤ مليون عضو.

وإذا تحقق إدخال تدريس واستخدام اللغة الدولية في المدارس والعلاقات الدولية وإحلالها محل أساليب الترجمة الصعبة للغات المختلفة. فإن كل دولة ستتمكن بطريقة أكثر فعالية من أن تكرس طاقاتها ومواردها المالية لتحقيق التقدم على أرضها خاصة وأن جهودها لن تتبدد في النضال ضد الصعوبات المنبثقة عن النواحي اللغوية.

الملحق الثاني

الأمم المتحدة والرأي العام العالمي(*)

إن الموضوع الثالث المقترح في الندوة هو الأمم المتحدة والتفاهم الدولي ولقد تناول هذا الموضوع في الواقع مجالين مختلفين: أحدهما خاص بالعلاقات العامة بين الدول والثاني خاص بالعلاقات بين الأمم المتحدة والرأي العام العالمي.

أما فيما يتعلق بهذا المجال الأخير فإن أحد التقارير الدولية التي أقرتها الأمم المتحدة خلال دورتها التي عقدت عام ١٩٤٦ تنص على ما يلي:

إن المنظمة لا تستطيع أن تبلغ الأهداف التي أسست من أجلها إذا لم تكن شعوب العالم قد أحيطت علماً وبقدر واف بأهدافها وبدورها. وقد ذكر يوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة في تقرير حديث بعث به إلى الدورة الحادية والعشرين للجمعية العامة «إن قوة المنظمة ومقدرتها على الخدمة وبلوغ الأهداف التي كانت الحافز على إنشائها، تتوقف على مدى فهم

(*) جان دارسي، الأمم المتحدة والرأي العام العالمي، المرجع السابق.

شعوب العالم لأهداف ومجالات نشاطها ومدى استفادتهم من انضمامهم إلى عضويتها» .

وبعد مضي عشرين عاماً على إنشاء الأمم المتحدة وجدنا أن هذا الإصرار لم يتغير إذ اعتمدت الأمم المتحدة أكثر من أية مؤسسة سياسية أخرى على عامل الرأي الذي بدونه تصبح عاجزة تماماً عن إداء رسالتها وأخيراً فإن الرأي الدولي هو الذي يحرك هذه المنظمة بأكثر مما تحركها إرادة بعض الدول العظمى. إنه الرأي العام الممثل دائماً فيها بوجود عناصر صحفية تمثل العالم أجمع . . . فضلاً عن العديد من المصورين والمراسلين الاذاعيين. وهكذا فإن الآراء القومية العامة تمثل دائماً في مخيلة مندوبي الحكومات المختلفة وذلك بالنسبة لما يصدرونه من قرارات. كذلك فإن الرأي العام الدولي الذي يختلف عن الآراء العامة الوطنية والذي يتحول سنة بعد سنة، بفضل التطور الطفري الذي حدث في وسائل الاتصال، أصبح يصدر فجأة في صورة جماعية. وأنه يتبلور في صور صحوة للضمير العالمي برزت مظاهرها خلال الأعوام الماضية في شكل إعجاب شديد، وترحيب بما يجري. وعلى عكس اتجاه الرأي السائد فقد وجدت المنظمة نفسها عاجزة. وبدون مساندتها فإن الرأي العام ما كان ليحقق شيئاً ولكنه بفضل مساندتها يحقق الكثير.

ولهذا الغرض أنشئت منذ البداية في السكرتارية العامة للأمم المتحدة إدارة إعلامية ودور هذه الإدارة كما حدده القرار الصادر في ١٩٤٦، الذي سبق أن تحدثت عنه منذ قليل، ليس مخاطبة الشعوب مباشرة وتخطي سيادة الدول ولكن إمداد الأجهزة الاعلامية سواء ما كان منها مملوكاً للدول أو القطاع الخاص بالمواد الاعلامية التي تحتاج إليها حتى تستطيع هذه الأجهزة أن تقدم الخدمات الإعلامية للمواطنين.

ولهذا الغرض فإن الخدمات الاعلامية التابعة للأمم المتحدة تقدم

للصحف تقارير عن جميع المناقشات التي تدور في الأمم المتحدة، كما تنشر سنوياً عدداً كبيراً من الكتب والمنشورات والمطبوعات. كذلك تذيع هذه الخدمات الاعلامية يومياً على موجات قصيرة المناقشات التي تدور في الجمعية العامة ومجلس الأمن، وتقدم إلى هيئات الإذاعة والتليفزيون في الدول المختلفة البرامج التي يتم تسجيلها والأفلام التي تحتاج إليها. كذلك تقيم الأمم المتحدة في خمسين دولة تقريباً مراكز إعلامية تابعة لها غير أن كل هذا الجهد الاعلامي لن يكون له تأثيره القوي إلا إذا تم دعمه وتنميته عن طريق الشعب القومية التابعة للأمم المتحدة ونوادي الأمم المتحدة واللجان القومية لليونسكو وقد أوضحت الدراسة التي أجراها معهد الأبحاث والتأهيل التابع للأمم المتحدة مدى اهتمام مختلف أجهزة الاعلام في العالم بالأنباء المتعلقة بالأمم المتحدة. إلا أن هذه الدراسة لم تتم بعد، غير أنه يمكن القول بأن النتائج الأولية التي أمكن استخلاصها بواسطة العقول الالكترونية من ٦٠ ألف وثيقة اشتركت في إعدادها ٤٥ دولة وتمثل ما كتب وما قيل أو عرض في الأمم المتحدة خلال فترتي الاستفتاء اللتين استغرقتا خمسة عشر يوماً، كانت مفيدة بالفعل.

وإذا ما عرضنا النتائج التي أمكن الحصول عليها على المستوى الدولي، فإنه يتضح أن كل قطاع يضم ألفاً من سكان الكرة الأرضية يمكن أن يصلهم خلال الفترة المحددة ٦٤ مقالاً صحفياً، ٦٨٠ مادة إذاعية، ٥٠ مادة تليفزيونية عن الأمم المتحدة.

إن هذه الأرقام التي تعتمد على الاحصاءات، التي أجرتها اليونسكو حول عدد الصحف وأجهزة الراديو والتليفزيون التي يملكها ألف شخص، تقودنا إلى نتائج مفيدة فهي تظهر أولاً مدى خطورة الدور الاعلامي الذي يلعبه الراديو في عالمنا الحديث، ويلاحظ أن الأمم المتحدة تحتفظ بدورها الطبيعي في هذا المضمار، ومن المؤكد أن التليفزيون الذي تصل خدماته في

بعض البلاد إلى عدد من الأشخاص يفوق عدد من يشترون الصحف اليومية. سوف يلعب نفس الدور في المستقبل القريب بفضل أقمار الاتصال الصناعية.

ولو أننا، منطلقاً من النتائج الأولى التي أظهرتها الدراسة، أعطينا لأوجه النشاط الاعلامي الخاصة بالأمم المتحدة المتضاعف: ١، فإن الإذاعة ستحصل على هذا الأساس على ٧,٤ والتليفزيون على ١٠,٦ بيد أن هذه الاحصائية العالمية التي أجريت عام ١٩٦٦ يجب أن تستكمل بإحصائية أخرى تبين عدد القراء بالنسبة لكل صحيفة على حدة، وعدد مستمعي الاذاعة لكل جهاز وعدد مشاهدي التليفزيون لكل جهاز أيضاً.

أما فيما يتعلق بالصحافة نفسها، فإن النتائج الأولية التي توصلنا إليها، كانت مفيدة فإن جميع وكالات الانباء العالمية الكبرى وهي «الأسوشيتدبرس وفرانس برس ورويتر وتاس ويونيتدبرس» لها مندوبون في الأمم المتحدة، كما أن التحقيقات التي تعدها عن أوجه نشاط هذه المؤسسة وافرة للغاية. كذلك فإن عدداً من كبريات الصحف اليومية مثل «النيويورك تايمز والموند والتايمز أوف أنديا» وغيرها تتحرى الدقة إلى حد كبير فيما تفسره من أنباء منظمة عن المنظمة الدولية غير أن هناك عدداً من الصحف المحلية في عدد من دول العالم لا تنشر كافة ما تتلقاه من أنباء عن وكالات الأنباء العالمية عن أوجه نشاط المنظمة الدولية.

غير أن معظم الظواهر التي تأكدت خلال الستينات. هي بحق ظاهرة تفوق الاعلام الإلكتروني على المواد الاعلامية المطبوعة. أي أن الانتصار المستمر لماركوني وزفوريكين ويويوف وبراتين على جو تاتسيرج في هذا الصراع التاريخي الذي يسمح لبني البشر أن يتصل بعضهم ببعض، وسأعود مرة أخرى إلى هذا الموضوع فوراً، ولكنني أود قبل أن أختتم هذا الجزء

الأول، الخاص بالأمم المتحدة في علاقاتها بالرأي العام الدولي أن أشير إلى أن السكرتير العام للأمم المتحدة قدم إلى مؤتمر الفضاء، الذي أنهى أعماله منذ بضعة أيام في فيينا، تقريراً حول استخدام الأمم المتحدة للأقمار الصناعية في أغراض الاتصالات.

ويبدو أنه من الضروري بالنسبة للأمم المتحدة اعتباراً من الآن أن تستخدم الأساليب العالمية والاقليمية أو الوطنية في الاتصالات أي الأقمار الصناعية - سواء بالنسبة لاتصالاتها الداخلية من المقر الرئيسي وبعثاتها المنتشرة في جميع أنحاء العالم، أو بالنسبة لاحتياجاتها الاذاعية والتليفزيونية. أما فيما يتعلق بهذه الاحتياجات الأخيرة، فإن الموجات القصيرة التي تغطي العالم موزعاً الآن بطريقة غير عادلة بين دول العالم. وهناك بعض الدول استعملت حقها في هذا المجال بالمقارنة بمثيلاتها. أما بالنسبة للتليفزيون فإن احتمالات إرسال البرامج المصورة مباشرة لا تزال إلى الآن قاصرة على القارة الأمريكية، في حين أن استخدام الأقمار الصناعية سيفسح المجال أمام جميع الدول في المستقبل القريب، وعلى قدم المساواة لأن تستقبل إذا أرادت برامج التليفزيون الخاصة بالأمم المتحدة وأن تتابع مباشرة مناقشات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة.

وهكذا أجدني أنتقل إلى الجزء الثاني من هذا البحث، وهو خاص بكيفية تحقيق تفاهم عالمي أفضل، وانتشار أوسع للمواد الاعلامية، وقيام علاقات بين مختلف دول العالم.

والواقع أن الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٨ حرصت على الاهتمام بهذه المشكلة. فقد دعت لعقد مؤتمر في جنيف لبحث - حرية الاعلام - كذلك ضمنت الاعلان الدولي لحقوق الانسان[1] المادة ١٩ التي تنص على حق

(١) انظر الملحق الثالث في الملاحق العربية.

الأفراد الذي لا ينازع في جمع وتلقي ونشر الأنباء والأفكار بأية وسيلة من وسائل التعبير دون تقيد بالحدود القائمة.

وقد تضافرت الجهود منذ ذلك الحين بين اليونسكو والاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية من أجل تطوير الوسائل الاعلامية في العالم وذلك بتقديم المعونة الفنية للدول المختلفة وبتدريب العاملين، ومن أجل نشر المواد الثقافية والاعلامية بطريقة أفضل. غير أن التقدم الذي أحرزته الأمم المتحدة في المجال التشريعي لا يزال بطيئاً كما أن الاعلان الدولي لحقوق الانسان وكذلك الاتفاق الخاص بحرية الاعلام، هما في الواقع من المواد الثابتة في جدول أعمال الجمعية العامة للأم المتحدة.

وإزاء هذا الموضوع، فمن حقنا أن نتساءل عما إذا كان من الضروري طرح المشكلة في إطار جديد، وما إذا كان من الأفضل أن يعاد بحثها من زاوية أخرى: أي التركيز على المستقبل دون الماضي.

إننا لا نكاد نخرج من النصف الثاني من هذا القرن من العصر القديم حيث كانت الاستفادة من وسائل الاتصالات محدودة أو قاصرة على الاحتكارات حتى نجد أنفسنا في عهد اقتصاديات مزدهرة يمكن في ظلها أن تصبح وسائل الاتصالات المتباينة في متناول الجميع. غير أن أفكارنا ونزعاتنا النفسية لم تتأقلم بعد مع الوضع الجديد. إننا نحاول أن نسن القوانين وأن نوفق بين الأمور التي يتعذر التوفيق بينها. فمن ناحية نجد السيادة التي تمارسها الدولة داخل حدودها، ومن ناحية أخرى نجد أن الاتصالات الحديثة تتجاهل هذه الحدود في الوقت الذي تحاول فيه الاحتكارات الناجمة عن عنصر الندرة أن تبقى، نجد أن الرخاء الاقتصادي يسعى إلى تحرير الفرد من هذه الاحتكارات مهما كانت رغبتها في التشبث بالبقاء.

ومنذ البداية حاولت الأديان بحكم قدرتها، كما حاولت الحكومات أيضاً أن تتصدى لهذا الموقف وأن تنظم وسائل الاتصالات. وفوق الأبراج العالية في أوروبا حيث تقدم اليوم أجهزة الارسال التليفزيوني، وحيث اجتاحت الغزوات الرومانية هذه الأصقاع، كثيراً ما تجد حطام معابد ميركير إله المواصلات. إن هذا الحطام هو في الواقع بقايا نظام عتيق للاتصالات يعتمد على البصر، وكان يستخدم في ربط أجزاء الامبراطورية بالعاصمة روما. وعند اندحار الامبراطورية الرومانية أصبح البابا بونتيفكس ماكسيموس هو الذي يتولى مد جسور الاتصالات، وهكذا أصبح للأوامر الكنسية في أوروبا بالعصور الوسطى، الامتياز الأول فيما يتعلق بنشر الأفكار عن طريق المطبوعات، وبعد ذلك تولى الملوك في عدد كبير من البلاد الأوروبية، بغرض تثبيت حكمهم، تنظيم نقل البريد عن طريق الخيول. ومما لا شك فيه أن نظمنا البريدية الحديثة هي امتداد لهذا النظام الملكي القديم.

ومن الملاحظ أن الهياكل السياسية كانت تنشأ دائماً حول مراكز الاتصالات ومما لا شك أن السيطرة على هذه المراكز كان يسهم في تعضيد السلطة الحاكمة. فقد كانت القبيلة البدائية تتمركز في طول الطريق بين الغابات ثم نشأت الامبراطورية على الطريق الروماني، كما دعمت الأمم في القارة الأوروبية وجودها بفضل هذه الطرق الملكية التي أقيمت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، هذا في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة الأمريكية تستخدم السكك الحديدية والتلغراف لتغطية أراضيها التي تشبه القارة من حيث اتساعها، وفي هذا الوقت كانت الدول الاستعمارية تتصارع فيما بينها من أجل السيطرة على البحار، غير أنه كانت توجد إذ ذاك شبكة كاملة للمواصلات التلغرافية والتليفونية في حين أن الافتقار إلى هذه الوسائل يحول دون أي تقدم في الدول الوليدة.

ولما كان الانسان يميل عادة إلى حل المشكلات الوليدة التي تصادفه باعتبارها امتداداً طبيعياً لمشكلة قديمة، فإن أسلوب التنظيم على المستوى القومي في عصور البؤس امتد بطبيعة الحال إلى جميع أساليب المواصلات وعندما ظهر التلغراف. اعتبره الناس مجرد امتداد للخدمة البريدية وإلى أن تم في عام ١٨٦٥ إقامة الاتحاد الدولي للتلغراف. وهو الجد القديم لأعرق الوكالات المخصصة التابعة للأمم المتحدة - وهو الاتحاد الدولي للمواصلات السلكية واللاسلكية - كانت الرسائل التلغرافية تقف عند الحدود لا تتجاوزها. وعندئذ كان موظف التلغراف يأخذ الرسالة ويذهب بها إلى أقرب مكتب جمركي حيث كان يعاد إبراقها إلى الجهة المرسلة إليها.

وعلى نفس النحو اعتبر التليفون امتداداً للتلغراف وذلك رغم التطور الضخم الذي أحدثه، خاصة وأنه مكن الانسان ولأول مرة من أن يتصل مباشرة ولمسافات بعيدة بمن يريد مستخدماً صوته وأذنه، ولعلنا نذكر في هذا الصدد قصة الوزير الذي كان يشكو منذ ٩٠ عاماً تقريباً من أنه يعتقد أن مستقبل التليفون في بلده ليس مذدهراً بسبب استخدام عدد كبير من رجال التلغراف في توصيل البرقيات التلغرافية إلى المنازل. وعندما تم ابتكار المذياع أطلق عليه الناس في بادىء الأمر اسم تليفون بدون أسلاك ولكنهم لم يلاحظوا هاتين الحقيقتين الجديدتين: إذ بدلاً من أن يصل إلى شخص واحد فإنه يصل في نفس الوقت إلى جمهرة الأشخاص. هذه حقيقة. والثانية أنه لا يعرف الحواجز القائمة بين الحدود. ولو أننا في العشرينات أخذنا، منطلقاً من هذا التصور العالمي لدور المذياع، ولم نتوقف عند حد اعتباره امتداداً للتليفون، أي جهازاً اقليمياً. نعد الهياكل والأنماط التي تتفق وهذا الابتكار الجديد، لكان من المحتمل - إلى حد كبير - أن لا نجد أنفسنا إزاء مجموعة من المشكلات المتعلقة باعتبارات السيادة القومية، التي يتعذر التغلب عليها.

ونحن نأمل في أن نتطلع إلى الأقمار الصناعية التي تبث موجاتها الإذاعية والتليفزيونية من ارتفاع ٢٦ ألف كيلو متر بحيث يمكن للأفراد أن يلتقطوها مباشرة بأجهزتهم المنزلية باعتبارها أساليب حديثة. تتطلب إقامة مؤسسات وإصدار تشريعات جديدة تماماً بدلاً من أن ننظر إليهما باعتبارهما امتداداً للتلغراف والتليفون. اللذين يعدان بدورهما امتداداً لمحطات الخدمة البريدية التي أنشأها الملوك في أوروبا القرون الوسطى.

إن القرارات التي اتخذتها الأمم لمتحدة بالنسبة لاستخدام الفضاء الخارجي وكذلك معاهدة ١٩٦٧ الخاصة بالفضاء تقدمان المبادىء الأساسية لما ستكون عليه الصورة في هذا الصدد في المستقبل. وأعتقد أنه من المفيد أن نوضح أن قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة الخاصة بالفضاء قد تضمنت منذ إنشاء لجنة الفضاء عام ١٩٥٨ فكرتين متعارضتين ويلاحظ أن هاتين الفكرتين تسيران جنباً إلى جنب، غير أن التوفيق بينهما قد يكون ممكناً في يوم من الأيام فمن ناحية نجد أن هذه القرارات تؤكد مبدأ استخدام الفضاء بما يحقق مصلحة الدول، ومن ناحية أخرى تؤكد نفس هذه القرارات بقوة أن استخدام الفضاء يجب أن يخدم مصالح الانسانية جمعاء ومن المؤكد أن المفهومين غير متعارضين، غير أننا نجد أن الدول النامية تتمسك بإصرار بالمفهوم الثاني. وقد يشكل هذا المفهوم الأخير الأساس الذي يقوم عليه في المستقبل القانون الخاص باستخدام الفضاء في الاتصالات، وخاصة إذا تذكرنا أن السيادة الوطنية على الأجواء لا تشمل الفضاء الخارجي، كما أن الأجرام السماوية ليست ملكاً لدولة من الدول، ألا يكون من الممكن أن نبحث مثلاً كيف نستطيع توجيه أحد المجالات التي تشترك الانسانية جمعاء في ملكيتها نحو خدمة وسائل الاتصال المقبلة؟ علماً بأن هذه الوسائل لا تعرف العوائق التي تفرضها الحدود.

ومما لا شك فيه أننا بصدد طفرة في عالم الاتصالات خلال الأعوام

القادمة في ذلك العصر الذي نحن مقدمون عليه، والذي قد يبرر طرح المشكلات المتعلقة بحرية الاعلام في إطار جديد.

ويمكن القول بأن مؤتمر الأمم المتحدة لاستخدام الفضاء الخارجي في الأغراض السلمية الذي أنهى أعماله منذ قليل في فيينا، يبشر بآفاق واسعة في هذا المجال. أن ما نستطيع أن نتوقعه غداً، وما يبدو الآن ممكن التنفيذ من الناحية الفنية، قد يؤدي في نهاية المطاف إلى وضع إمكانيات عديدة في أيدي الأفراد تمكنهم هذه المرة من الاتصال بمن يريدون على مستوى الكرة الأرضية.

إن الآفاق العريضة التي تقدمها الالكترونيات في مجالات الاتصالات واختزان المعلومات عن طريق أقمار الاتصالات وتسجيل الصور والأضواء والعقول الالكترونية قد تمكن كل شخص من أن يجري كافة الاتصالات التي يريدها بكافة وسائل التعبير وبكل ما يختزنه العقل البشري من ذكريات وأفكار.

وخلال بضعة أعوام، سيكون في وسع أقمار الاتصالات ذات القدرة الكبيرة، أن ترسل عدة برامج إذاعية وتليفزيونية في الوقت نفسه، فضلاً عن الآلاف من الاتصالات التليفونية بكفاية تامة بحيث تغطي الكرة الأرضية كلها وهكذا فإن معظم المكتبات الكبرى في العالم ستتمكن من أن تسجل وثائقها على أشرطة كما سيتم الربط بين العقول الالكترونية التي تملكها هذه المكتبات وبين بعضها، كما يمكن اتباع نفس الأسلوب أيضاً بالنسبة للمعامل الكبرى والجامعات وستكون هذه العقول الالكترونية من الكفاية بحيث يمكن للأفراد الاستعانة بها. كذلك ستكون الصحف بدورها قد انتقلت إلى عصر الالكترونيات، ولن تتم طباعتها إلا بأعداد قليلة لأنه سيكون في الامكان إذ ذاك للشخص أن يعرف عن طريق التليفزيون ما تضمنته الصحيفة.

كذلك سيكون في الامكان تسجيل وتخزين البرامج الإذاعية والتليفزيزنية وبالأحرى مواد التعبير السمعية والبصرية والصور والأنغام، كذلك سيكون من الميسور البحث عن هذه التسجيلات بفضل العقول الالكترونية المقامة في مكتبات سينمائية ضخمة للشرائط المسجلة يستطيع الإنسان وهو جالس في منزله أن يختار منها ما يريد دون أن تفرض عليه هذه المادة أو تلك، مما يختاره المسئولون في الإذاعة أو التليفزيون، كما سيتمكن الأفراد من اختيار الصحف والأنغام التي يريدونها بنفس الأسلوب الذي يختارون به الكتب والمؤلفات التي يرغبون في الاطلاع عليها. وذلك لأن وفرة المطبوع منها لا يجعل اختيار الأفراد محصوراً في دائرة محددة كما كان متبعاً من قبل منذ بضع عشرات من السنين عندما كان جوتنبرج وبعض الذين خلفوه في هذه الصناعة يقررون ما يطبعون وما لا يطبعون.

ومن المعتقد هنا وهناك أن كل ذلك قد يؤدي في نهاية المطاف إلى تحويل قاعات الجلوس في المنازل إلى ما يشبه المراكز السمعية ـ البصرية للاتصالات التي ترتبط بالعالم الخارجي «بكابل» ذي طاقة عالية. هذا في الوقت الذي لم يكن فيه أجدادنا يرتبطون بالعالم الخارجي إلا بصندوق البريد الذي كان يوضع عند مداخل منازلهم ويتلقون عن طريقه صحفهم والبرقيات، والخطابات التي ترسل إليهم. ثم أضيف بعد ذلك إلى هذا الصندوق خط التليفون وهوائي المذياع أو التليفزيون في هذه الفترات الأخيرة ومما لا شك أن السرعة التي تعاقب بها ظهور هذه الأدوات الحديثة يثير الدهشة. لقد تطورت وسائل الاتصال بطريقة طفرية وأصبح الفرد يملك إمكانيات متزايدة في هذا المجال جعلته ينتقل من موقف سلبي إلى موقف إيجابي يملك معه القدرة على الاختيار الحر.

ومما لا شك فيه أن ما سبق أن أوضحناه بصورة مختصرة لا يدخل كما سيتصور بعضهم في نطاق الأحلام، ولكنه على العكس من ذلك أمر ممكن

من الناحية الفنية ويخشى على العكس من ذلك أن نكون سائرين في عالم الأوهام، لو أنه لم تكن لنا القدرة على التصوير أو أننا قصرنا في إصدار التشبيطات اللازمة من أجل إعداد التنظيمات والمؤسسات الحديثة بما يحقق الاستفادة من هذه الامكانيات الجديدة.

وأعتقد أن الأمم المتحدة ستكون قادرة على مواجهة هذا التصور الجديد للمشكلة والتي ينبغي على الرأي العام العالمي من أجلها. أن يقف خلف منظمته الدولية. وإنني لأتمنى أن نصبح في وضع، خلال الاجتماعات المقبلة يمكننا من أن نعبر عن امتناننا للخطوات التي يتم إنجازها نحو الأمام وذلك إذا ما تمكننا من أن نتغلب على إحساسنا الحالي بالتشاؤم وهو إحساس يرجع إلى حد كبير إلى النظم التي عفى عليها الزمن والتي نحاول التشبث بها والحفاظ عليها.

الملحق الثالث

الاعلان العالمي لحقوق الإنسان(*)

في العاشر من ديسمبر (كانون الأول) ١٩٤٨ . أقرت الجمعية العامة للأمم المتحدة الاعلان العالمي لحقوق الانسان وأعلنته، وبعد هذا الحدث التاريخي دعت الجمعية العامة الدول الأعضاء إلى ترويج نص الاعلان، وإلى العمل على نشره وتوزيعه وقراءته ومناقشته، وخصوصاً في المدارس والمعاهد التعليمية بدون أي تمييز بشأن الوضع السياسي للدول أو الأقاليم .

الديباجة

لما كان الاعتراف بالكرامة المتأصلة في جميع أعضاء الأسرة البشرية وبحقوقهم المتساوية الثابتة هو أساس الحرية والعدل والسلام في العالم .

ولما كان تناسي حقوق الانسان وازدراؤها قد أفضيا إلى أعمال همجية آذت الضمير الانساني، وكان غاية ما يرنو إليه عامة البشر انبثاق عالم يتمتع فيه الفرد بحرية القول والعقيدة ويتحرر من الفزع والفاقة .

(*) مكتب الاعلام، الأمم المتحدة، القاهرة

ولما كان من الضروري أن يتولى القانون حماية حقوق الانسان لكي لا يضطر المرء آخر الأمر إلى التمرد على الاستبداد والظلم .

ولما كانت شعوب الأمم المتحدة قد أكدت في الميثاق من جديد إيمانها بحقوق الإنسان الأساسية وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء من حقوق متساوية وحزمت أمرها على أن تدفع بالرقي الاجتماعي قدماً وأن ترفع مستوى الحياة في جو من الحرية أفسح .

ولما كانت الدول الأعضاء قد تعهدت بالتعاون مع الأمم المتحدة على ضمان اطراد مراعاة حقوق الانسان والحريات الأساسية واحترامها .

ولما كان للإدراك العام لهذه الحقوق والحريات الأهمية الكبرى للوفاء التام بهذا التعهد.

فإن الجمعية العامة تنادي

بهذا الاعلان العالمي لحقوق الانسان

على أنه المستوى المشترك الذي ينبغي أن تستهدفه كافة الشعوب والأمم حتى يسعى كل فرد وهيئة في المجتمع ، واضعين على الدوام هذا الاعلان نصب أعينهم ، إلى توطيد احترام هذه الحقوق والحريات عن طريق التعليم والتربية واتخاذ إجراءات مطردة ، قومية وعالمية ، لضمان الاعتراف بها ومراعاتها بصورة عالمية فعالة بين الدول الأعضاء ذاتها وشعوب البقاع الخاضعة لسلطانها .

المادة الأولى : يولد جميع الناس أحراراً متساوين في الكرامة والحقوق ، وقد وهبوا عقلاً وضميراً ، وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح الإخاء .

المادة الثانية : لكل إنسان حق التمتع بكافة الحقوق والحريات

الواردة في هذا الإعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الأصل الوطني أو الاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر، دون أي تفرقة بين الرجال والنساء.

وفضلاً عما تقدم فلن يكون هناك أي تمييز أساسه الوضع السياسي أو القانوني أو الدولي للبلد أو البقعة التي ينتمي إليها الفرد سواء كان هذا البلد أو تلك البقعة مستقلاً أو تحت الوصايا أو غير متمتع بالحكم الذاتي أو كانت سيادته خاضعة لأي قيد من القيود.

المادة الثالثة: لكل فرد الحق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة الرابعة: لا يجوز استرقاق أو استعباد أي شخص، ويحظر الاسترقاق وتجارة الرقيق بكافة أوضاعهما.

المادة الخامسة: لا يعرض أي إنسان للتعذيب ولا للعقوبات أو المعاملات القاسية أو الوحشية أو الحاطة بالكرامة.

المادة السادسة: لكل إنسان أينما وجد الحق في أن يعترف بشخصيته القانونية.

المادة السابعة: كل الناس سواسية أمام القانون ولهم الحق في التمتع بحماية متكافئة منه دون أية تفرقة، كما أن لهم جميعاً الحق في حماية متساوية ضد أي تمييز يخل بهذا الاعلان وضد أي تحريض على تمييز كهذا.

المادة الثامنة: لكل شخص الحق في أن يلجأ إلى المحاكم الوطنية لإنصافه من أعمال فيها اعتداء على الحقوق الأساسية التي يمنحها له القانون.

المادة التاسعة: لا يجوز القبض على أي إنسان أو حجزه أو نفيه تعسفاً.

المادة العاشرة: لكل إنسان الحق، على قدم المساواة التامة مع الآخرين، في أن تنظر قضيته أمام محكمة مستقلة نزيهة نظراً عادلاً علنيا للفصل في حقوقه والتزاماته وأية تهمة جنائية توجه إليه.

المادة الحادية عشرة: (١) كل شخص متهم بجريمة يعتبر بريئاً إلى أن تثبت إدانته قانوناً بمحاكمة علنية تؤمن له فيها الضمانات الضرورية للدفاع عنه.

(٢) لا يدان أي شخص من جراء أداء عمل أو الامتناع عن أداء عمل إلا إذا كان ذلك يعتبر جرماً وفقاً للقانون الوطني أو الدولي وقت الارتكاب، كذلك لا توقع عليه عقوبة أشد من تلك التي كان يجوز توقيعها وقت ارتكاب الجريمة.

المادة الثانية عشرة: لا يعرض أحد لتدخل تعسفي في حياته الخاصة أو أسرته أو مسكنه أو مراسلاته أو لحملات على شرفه وسمعته، ولكل شخص الحق في حماية القانون من مثل هذا التدخل أو تلك الحملات.

المادة الثالثة عشرة: (١) لكل فرد حرية التنقل واختيار محل إقامته داخل حدود كل دولة.

(٢) يحق لكل فرد أن يغادر أية بلاد بما في ذلك بلده كما يحق له العودة إليه.

المادة الرابعة عشرة: (١) لكل فرد الحق في أن يلجأ إلى بلاد أخرى أو يحاول الالتجاء إليها هرباً من الاضطهاد.

(٢) لا ينتفع بهذا الحق من قدم للمحاكمة في جرائم غير سياسية أو

لأعمال تناقض أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة الخامسة عشرة: (١) لكل فرد حق التمتع بجنسية ما.

(٢) لا يجوز حرمان شخص من جنسيته تعسفاً أو إنكار حقه في تغييرها.

المادة السادسة عشرة: (١) للرجل والمرأة متى بلغا سن الزواج حق التزوج وتأسيس أسرة دون أي قيد بسبب الجنس أو الدين، ولهما حقوق متساوية عند الزواج وأثناء قيامه وعند انحلاله.

(٢) لا يبرم عقد الزواج إلا برضى الطرفين الراغبين في الزواج رضى كاملاً لا إكراه فيه.

(٣) الأسرة هي الوحدة الطبيعية الأساسية للمجتمع ولها حق التمتع بحماية المجتمع والدولة.

المادة السابعة عشرة: (١) لكل شخص حق التملك بمفرده أو بالاشتراك مع غيره.

(٢) لا يجوز تجريد أحد من ملكه تعسفاً.

المادة الثامنة عشرة: لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الإعراب عنهما بالتعليم والممارسة وإقامة الشعائر، ومراعاتها، سواء أكان ذلك سراً أم مع الجماعة.

المادة التاسعة عشرة: لكل شخص الحق في حرية الرأي والتعبير، ويشمل هذا الحق حرية اعتناق الآراء دون أي تدخل، واستقاء الانباء والأفكار وتلقيها وإذاعتها بأية وسيلة كانت دون تقيد بالحدود الجغرافية.

المادة العشرون : (١) لكل شخص الحق في حرية الاشتراك في الجمعيات والجماعات السلمية.

(٢) لا يجوز إرغام أحد على الانضمام إلى جمعية ما.

المادة الحادية والعشرون : (١) لكل فرد الحق في الاشتراك في إدارة الشئون العامة لبلاده إما مباشرة وإما بواسطة ممثلين يختارون اختياراً حراً.

(٢) لكل شخص نفس الحق الذي لغيره في تقلد الوظائف العامة في البلاد.

(٣) إن إرادة الشعب هي مصدر سلطة الحكومة، ويعبر عن هذه الإرادة بانتخابات نزيهة دورية تجري على أساس الاقتراع السري وعلى قدم المساواة بين الجميع أو حسب أي إجراء مماثل يضمن حرية التصويت.

المادة الثانية والعشرون : (١) لكل شخص بصفته عضواً في المجتمع الحق في الضمانة الاجتماعية وفي أن تحقق بوساطة المجهود القومي والتعاون الدولي، وبما يتفق ونظم كل دولة ومواردها، الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التي لا غنى عنها لكرامته والنمو الحر لشخصيته.

المادة الثالثة والعشرون : (١) لكل شخص الحق في العمل، وله حرية اختياره بشروط عادلة مرضية كما أن له حق الحماية من البطالة.

(٢) لكل فرد دون أي تمييز الحق في أجر متساو للعمل.

(٣) لكل فرد يقوم بعمل الحق في أجر عادل مرض يكفل له ولأسرته عيشة لا ثقة بكرامة الانسان تضاف إليه، عند اللزوم، وسائل أخرى للحماية الاجتماعية.

(٤) لكل شخص الحق في أن ينشىء وينضم إلى نقابات حماية لمصلحته.

المادة الرابعـة والعشرون: لكل شخص الحق في الـراحة، وفي أوقات الفراغ، ولا سيما في تحديد معقول لساعات العمل وفي عطلات دورية بأجر.

المادة الخامسة والعشرون: (١) لكل شخص الحق في مستوى من المعيشة كاف للمحافظة على الصحة والرفاهية له ولأسرته، ويتضمـن ذلك التغـذية والملبس والمسكن والعناية الطبية وكذلك الخدمات الاجتماعية اللازمـة، وله الحق في تأمين معيشته في حالات البطالة والمـرض والعجـز والترمـل والشيخوخة وغير ذلك من فقدان وسائل العيش نتيجة لظـروف خارجـة عن إرادته .

(٢) للأمومة والطفولة الحق في مساعدة ورعاية خاصتين، وينعم كل الأطفال بنفس الحماية الاجتماعية سواء أكانت ولادتهـم ناتجـة عن ربـاط شرعي أم بطريقة غير شرعية.

المادة السادسـة والعشـرون: (١) لكل شخص الحـق في التعلـم، ويجب أن يكون التعليم في مراحله الأولى والأساسية على الأقل بالمجان، وأن يكون التعليم الأولي إلزامياً، وينبغي أن يعمم التعليم الفني والمهني، وأن ييسر القبول للتعليم العالي على قدم المساواة التامة للجميع وعلى أساس الكفاءة.

(٢) يجب أن تهدف التربية إلى إنماء شخصية الانسان إنماءً كاملاً، وإلى تعزيز احترام الانسان والحريات الأساسية وتنمية التفاهـم والتسامـح والصداقة بين جميع الشعوب والجماعات العنصرية أو الدينية، وإلى زيادة مجهود الأمم المتحدة لحفظ السلام.

(٣) للآباء الحق الأول في اختيار نوع تربية أولادهم.

المادة السابعة والعشرون: (١) لكل فرد الحق في أن يشترك اشتراكاً

حراً في حياة المجتمع الثقافي وفي الاستمتاع بالفنون والمساهمة في التقدم العالمي والاستفادة من نتائجه.

(٢) لكل فرد الحق في حماية المصالح الأدبية والمادية المترتبة على إنتاجه العلمي أو الأدبي أو الفني.

المادة الثامنة والعشرون: لكل فرد الحق في التمتع بنظام اجتماعي دولي تحقق بمقتضاه الحقوق والحريات المنصوص عليها في هذا الاعلان تحققاً تاماً.

المادة التاسعة والعشرون: (١) على كل فرد واجبات نحو المجتمع الذي يتاح فيه وحده لشخصيته أن تنمو نمواً حراً كاملاً.

(٢) يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقررها القانون فقط، لضمان الاعتراف بحقوق الغير وحرياته واحترامها ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة والأخلاق في مجتمع ديمقراطي.

(٣) لا يصح بحال من الأحوال أن تمارس هذه الحقوق ممارسة تتناقض مع أغراض الأمم المتحدة ومبادئها.

المادة الثلاثون: ليس في هذا الاعلان نص يجوز تأويله على أنه يخول لدولة أو جماعة أو فرد أي حق في القيام بنشاط أو تأدية عمل يهدف إلى هدم الحقوق والحريات الواردة فيه.

المَلاحِقُ الإنجليزيّة

would make a good case, too, for thinking that its idea of a religious community based on revelation and following a divinely — given code of conduct is the only satisfactory basis for a world society. In Islam's conception of itself and its function in the world these are elements of truth which could be developed.

The other side of the picture, however, is very dark. The obstacles seem almost insuperable.

Can all this and more be done? It is most unlikely. Yet neither the sociologist nor the religious man (of any religion) will say that it is impossible.

W. Montgomery Watt, Islam and the Integration of Society, London, Routledge and Kegan Paul, 1970, pp. 282 - 3.

Appendix I X

The future of Islam

... The fundamental point is spiritual renewal or the recovery of dynamic. Is this possible for Islam? After centuries of renescence and sclerosis can it be revived and rejuvenated? Everything suggests that we are not in a position to say this impossible. Man certainly has not enough knoledge at the moment to make such pronouncements, and it is doubtful whether he ever will have. The movement of life in the hearts of the members of a community would seem to be essentially hidden, in the sense that it is in principle beyond the reach of human science. If this is so, no amount of effort will enable us to predict the future of Islam. What our studies show us, however, is something of the presuppositions of a renewal of Islam and of the circumstances in which it would take place in particular, the difficulties to be overcome.

So long as Christianity has not solved the problems which led to its recession and disintegration in the Middle East, there is a place for Islam and a function for it to perform. The deeper reason, however, is that in this world, which in a material sense has become one world, men are not likely to be attracted to any religion except one which claims to have a message for the whole world.

If we look at Islam, then, from this point of view, we see that it is not unfitted to be a religion for the whole world. It has throughout its history been a missionary and universalistic religion. In seeking to him the whole world it would be acting congruently with its pastrecord. It

1970s the term Death of God had fallen into disuse, but its essential drives and concerns continued in small circles of self - styled "radical theologians".

Encyclopaedia Britannica, op. cit., Vol. III.

Appendix V I I I

Death of God movement, radical Christian (mainly Protestant) theological school that arose in the U. S. during the 1960s, evoking extraordinary publicity, response, and controversy. Although thinkers of many varied viewpoints have been grouped within this school, basic to practically all of them is the conviction that belief in God is impossible or meaningless in the modern world, and that man's fulfillment is to be found in the secular life of this world.

Thomas J . J. Altizer, probably the most radical certainly the best known of them, asserted that the traditional Judeo — Christian God had actually died in the Crucifixion of Jesus of Nazareth and henceforth entered into the processes of the secular, historical world. Paul Van Buren contended that talk about God is linguistic nonsense, because it purports to deal with a transcendent reality, about which meaningful talk is no longer possible. William Hamilton held that the absence or death of God made it possible for men to assume full responsiblity and activity in the work and love of this world, freed from dependence on a providential Father in Heaven; he also centered on Jesus as the model person and still Lord for all Christians. Gabriel Vahanian, actually a Neo- Calvinist rather than a radical theologian, held that the Death of God was both a religious and cultural event, occurring because the (essentially pagan) mythological terms in which the Christian fath had traditionally been expressed became obsolete in a modern scientific society. He looked forward to the reappearance of faith in a truly transcendent God — not the false image of cultural Christianity. By the

Appendix V I I

"Almost all the questions of most intrest to speculative minds are such as science cannot answer, and the confident answers of the theologians no longer seem so convincing as they did in former centuries..."

... Science tells us what we can know, but what we can know is little, and if we forget how much we cannot know we become insensitive to many things of very great importance. Theology, on the other hand, induces a dogmatic belief that we have knowledge where in fact we have ignorance, and by doing so generates a kind of impertinent insolence towards the universe. Uncertainty, in the presence of vivid hopes and fears, is painful, but must be endured if we wish to live without the support of comforting fairy tales. It is not good either to forget the questions that philosophy asks, or to persuade ourselves that we have found indubitable answers to them. To teach how to live without certainty, and yet without being paralysed by hesitation, is perhaps the chief thing that philosophy, in our age, can still do for those who study it.

B. Russell, The History of western Philosophy, London, George Allen, and unwin, 1946, The Introduction.

Appendix V I (c)

...the dissemination of a viewpoint considered by a group to be "bad", "ugly", or "unnecessary" is propaganda, in terms of that group's standards.

L. W. Doob.

Quoted from: J. A. C. Brown, Techniques of Persuasion, Harmondsworth, Penguin Books, 1969. PP. 19 — 20.

Appendix V I (b)

... a systematic attempt by an interested individual (or individuals) to control the attitudes of groups of individuals through the use of suggestion, and, consequently, to control their actions.

Leonard W. Doob.

Appendix V I (a)

... the more or less deliberately planned and systematic use of symbols, chiefly through suggestion and related psychological techniques, with a view to altering and controlling opinions, ideas, and values, and ultimately to changing overt actions along predetermined lines. Propaganda may be open and its purpose avowed, or it may conceal its intention. It always has a setting within a social- cultural frame work, without which neither its psychological nor its cultural features can be understood.

Kimball Young.

Appendix V

"Show me in the clearest and most unambiguous manner that a certain mode of proceeding is most reasonable in itself, or most conductive to my interest, and I shall infallibly pursue that mode, so long as the views you suggested to me continue present to my mind ... Render the plain dictates of justice level to every capacity ... and the whole species will become reasonable and virtuous. It will be sufficient for juries to recommend a certain mode of adjusting controversies. ... It will then be sufficient for them to invite offenders to forsake their errors. ...Where the empire of reason was so universally acknowledged the offender would either readily yield to the expostulation of authority, or, if he resistesd though suffering no personal molestation he would feel so weary under the unequivocal disapprobation and the observant eye of public judgement as willingly to remove to a society more congenial to his errors.

William Godwin, Political Justice.

Appendix I V (b)

"Public opinion as interpreted ... by those French writers who are clearest on the subject is the agreement of many or of the majority of the citizens of a state with respect to judgment which every single individual has arrived at as a result of his own reflection or of his practical knowledge of a given matter".

The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, Vol. 15.

Appendix I V (a)

"I, for my part, understand by it an opinion that gradually takes root among a whole people, especially among those who have the most influence when they work together as a group. In this way the upper hand to such an extent that one meets it everywhere. It is an opinion that without being noticed takes possession of most heads, and even in situations where it does not dare to express itself out loud can be recognized by a louder and louder muffled murmur. It then requires only some small opening that will allow it air, and it will break out with force. Then it can change all nations in a brief time and give whole parts of the world a new configuration".

The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, Vol. 15.

supreme Deity, and enforced by the sanction of eternal rewards or punishments. The experience of Greek and Roman history could not inform the world how far the system of national manners might be reformed and improved by the precepts of a divine revelation; and Constantine might listen with some confidence to the flattering, and indeed reasonable, assurances of Lactantius. The eloquent apologist seemed firmly to expect, and almost ventured to promise, THAT the establishment of Christianity would restore the innocence and felicity of the primitive age; THAT the worship of the true God would extinguish war and dissention among those who mutually considered themselves as the children of a common parent; THAT every impure desire, every angry or selfish passion, would be restrained by the knowledge of the Gospel; and THAT the magistrates might sheath the sword of justice among a people who would be universally actuated by the sentiments of truth and piety, of equity and moderation, of harmony and universal love.

The passive and unresisting obedience which bows under the yoke of authority, or even of oppression, must have appeared in the eyes of an absolute monarch the most conspicuous and useful of the evangelic virtues. The primitive Christians derived the institution of civil government, not from the consent of the people, but from the decrees of Heaven. The reigning emperor, though he had usurped the sceptre by treason and murder, immediately assumed the sacred character of vicegerent of the Deity. To the Deity alone he was accountable for theabnse of his power; and his subjects were indissolubly bound by their oath of fidelity to a tyrant who had violated every law of nature and society. The humble Christians were sent into the world as sheep among wolves; and since they were not permitted to employ force even in the defence of their religion, they should be still more criminal if they were tempted to shed the blood of their fellow creatures in disputing the vain privileges or the sordid possessions of this transitory life.

Edward Gibbon, Op. Cit., pp. 286—8.

trust that the same Providence will for ever continue to protect the prosperity of the prince and people. From these vague and indefinite expressions of piety three suppositions may be deduced, of different, but not of an incompatible nature. The mind of Constantine might fluctuate between the Pagan and the Christian religions. According to the loose and complying notions of Polytheism, he might acknowledge the God of the Christians as one of the many deities who compose the hierarachy of Heaven. Or perhaps he might embrace the philosophic and pleasing idea that, notwithstanding the variety of name, of rites, and of opinions, all the ects and all the nations of mankind are united in the worship of the common Father and Creator of the universe.

But the counsels of princes are more frequently influenced by views of temporal advantage than by considerations of abstract and speculative truth. The partial and increasing favour of Constantine may naturally be prepared to the esteem which he entertained for the moral character of the Christians, and to a persuasion that the propagation of the Gospel would inculcate the practice of private and public virtues. Whatever altitude an absolute monarch may claim for his own passions, it is undoubtedly his interest that all his subjects should respect the natural and civil obligations of society. But the operation of the wisest laws is imperfect and precarious.

The seldom inspire virtue, they cannot always restrain vice. Their power is insufficient to prohibit all that they condemn, nor can they always punish the actions which they prohibit. The legislators of antiquity had summoned to their aid the powers of educations and of opinion. But every principle which had once maintained the vigour and purity of Rome and Sparta was long since extinguished in a declining and despotic empire. Philosophy still exercised her temperates way over the human mind, but the cause of virtue derived very feeble support from the influence of the Pagan superstition. Under these discouraging circumstances a prudent magistrate might observe with pleasure the progress of a religion which diffused among the people a pure, benevolent and universal system of ethics, adapted to every duty and every condition of life, redomminded as the will and reason of the

Appendix III

... The wisdom of the emperors provided for the restitution of all the civil and religious rights of which the Christions had been so unjustly deprived. It was enacted that the places of worship and public lands, which had been confiscated, should be restored to the church, without dispute, without delay, and without expense, and this severe injunction was accompanied with a gracious promise, that if any of the purchasers had paid a fair and adequate price, they should be indemnified from the Imperial trasure. The salutary regulations which guard the future tranquility of the faithful are framed on the principles of enlarged and equal toleration; and such an equality must have been interpreted by a recent seet as an advantageous and honourable distinction. The two emperors proclaim to the world that they have granted a free and absolute power to the Christians, and to all others, of following the religion which each individual thinks proper to prefer, to which he has addicted his mind, and which he pay seem the best adapted to his own use. They carefully explain every ambiguous word, remove every exception, and exact from the governers of the provinces a strict obedience to true and simple meaning of an edict which was designed to establish and secure, without any limitation, the claims, of religious liberty. They condescend to assign two weighty reasons which have induced them to allow this universal taleration: the human intention of consulting the peace and happiness of their people; and the pious hope that by such a conduct they shall appease and propitiate the Deity, whose seat is in Heaven. They gratefully acknowledge the many signal proofs which they have received of the divine favour; and they

Appendix II

If the bishops of the council of Nice had been permitted to follow the unbassed dictates of their conscience, Arius and his associates could scarcely have flattered themselves with the hopes of abtaining a majority of votes in favour of an hypothesis so directly adverse to the two most popular opinions of the catholic world. The Arians soon perceived the danger of their situation, and prudently assumed those modest virtues which in the fury of civil and religious dissentions, are seldom practised, or even praised, except by the weaker party. They recommended the exercise of Christian charity and moderation, urged the incomprehensible nature or the controversy, disclaimed the use of any terms of definitions which could not be found in the Scriptures, and offered, by very liberal concessions, to satisfy their adversaries without announcing the integrity or their own principles. The Victorious faction received all their proposals with haughty suspicion, and anxiously sought for some irreconcilable mark of distinction, the rejection of which might involve the Arians in the guilt and consequences of heresy.

Edward Gibbon, Decline and Fall of the Roman Empire, Harmondsworth, Pelican Books, 1963, p. 313.

among some of the Gemanic tribes to the end of the 7th century. In modern times some Unitarians are virtually Arian in that they are unwilling either to reduce Christ to a mere human being or to attribute to him a divine nature identical with that of the Father. The Chritology of Jehovah's Witnesses, also, is a form of Arianism; they regard Arius as a forerunner of Chades Taze Russell, the founder of their movement.

The New Encyclopaedia Brittannica, Vol I, 1977, PP. 509 - 510

From 325 to 337, when Constantine died, the Arian leaders, exiled after the Council of Nicaea, tried by intrigue to return to their churches and sees and to banish their enemies. They were partly successful.

From 337 to350Constans,sympathetictotheorthodox Christians,was emperor in the west, and Constantine II, sympathetic to the Arians, was emperor in the East. At a council held at Antioch (341), an affirmation of faith that omitted the **homoousion** clause was issued. Another council was held at Sardica (modern Sofia) in 342, but little was achieved by either council.

In 350 Constantine became sole ruler of the empire, and under his leadership the Nicene party (orthodox Christians) was largely crushed. The extreme Arians then declared that the Son was "unlike" **anomoids**) the Father. These Anomoeans succeeded in having their views endorsed at Sirmium in 357, but their extremism stimulated the moderates, who asserted that the Son was "of similar substance" (**homoiousios**). with the Father. Constantine at first supported these Homoiousians but soon transferred his support to the Homoeans; led by Acacius, who affirmed that the Son was "like" (**homoios**) the Father. Their views were approved in 360 at Constantinople, where all previous creeds were rejected, the term **ousia** ("substance" or "stuff") was repudiated, and a statement of faith was issued stating that the Son was "like the Father who begot him."

After Constantine death (361), the orthodox Christian majority in the West consokidated its position. The Arian persecution conducted by Emperor Valens (364 — 368) in the East and the success of the teaching of Basil the Great of Caesarea, Gregory of Nyssa, and Gregory of Nazianzus led the Homoiousian majority in the East to realize its fundamental agreement with the Nicene party. When the emperors Gratian (367 — 383) and Theodosius I (379 — 395) took up the defense of orthodoxy, Arianism collapsed. In 381 the second ecumenical council met at Constantinople Arianism was proscribed, and a statement of faith, the Nicene Creed, was approved.

Although this ended the heresy in the empire. Arianism continued

Appendix I

Arianism, a Christian heresy first proposed early in the 4th century by the Alexandria presbyter Arius. It affirmed that Christ is not truly divine but a created being. The fundamental premise of Arius was the uniqueness of God, Who is alone self - existent and immutable; the Son, who is not self - existent cannot be God. Because the Godhead is unique, it cannot be shared or communicated so that the Son cannot be God. Because the Godhead is immutable the Son, Who is mutable, being represented in the Gospels as subject to growth and change, cannot be God, The Son must; therefore, be deemed a creature who has been called into existence out of nothing and has had a beginning. Moreover, the Son can have no direct knowledge of the Father since the Son is finite and of a different order of existence.

According to its opponents, especially Athanasius, Arius' teaching reduced the Son to a demigod reintroduced polytheism (since worship of the Son was not abandoned), and undermined the Christian concept of redemption since only he who was truly God could be deemed to have reconciled man to the Godhead.

The controversy seemed to have been brought to an end by the Council of Nicaea (AD 325). Which condemned Arius and his teaching and issued a creed to safeguard orthodox Christian belief. This creed states that the Son is homoousion to Patri ("of one substance with the Father"), thus declaring him to be all that the Father is: he is completely divine. In fact, however, this was only the beginning of a long - protracted dispute.



Appendices

المـــراجع

المراجع العربية :

- القرآن الكريم .
- الكتاب المقدس .
- إسماعيل علي سعد، نظرية القوة مبحث في علم الاجتماع السياسي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، ١٩٧٨ .
- اليان ج ويدجري التاريخ وكيف يفسرونه من كونفوشيوس إلى توينبي. ترجمة عبد العزيز جاويد، الهيئة العامة ، القاهرة، ١٩٧٢ .
- بدر الدين أبو غازي، الفن في عالمنا، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣ .
- عباس محمود العقاد، الله ، دار الهلال، القاهرة .
- عباس محمود العقاد، عبقرية الصديق .
- عباس محمود العقاد، عبقرية عمر.
- طه حسين ، الشيخان ، دار المعارف بمصر، القاهرة.
- لطفي عبد الوهاب يحي، الديمقراطية الأثينية ، مركز التوزيع الجامعي الاسكندرية ، ١٩٦٦ .
- محمد حسين هيكل، الفاروق عمر، دار المعارف بمصر، القاهرة .
- محمد البيهي، الاسلام والواقع الايديولوجي المعاصر، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٠ .

المراجع الإنجليزية :

— Atkinson, J., Martin Luther and the Birth of Protestantism, Harmondsworth, Pelican Books, 1968.

— Barnouw, E, Mass Communication, N. Y., Holt, Rinehart and winston, 1956.

— Chatterjee, R.K., Mass Communication, New Delhi, National Book Trust, 1973.

— Connolly, J.E., Public Speaking as Communication, Minnesota, Burgess. Publishing Company, 1974.

—Cronkhite, Gary, Communication and Awareness, U.S.A., 1976.

— Dunner, J. (ed.), Dictionary of Political Science, London, Vision Press, 1965.

— Etizoni, A. The Active Society, N.Y., 1972.

— Farrar, R.T. and Stevens, J. D., Mass Media and the National Experience, U.S.A., Harper & Row, Publishers, 1971.

— Gibbon, E., Delcine and Fall of the Roman Empire, Harmondsworth, Pelican Books, 1963.

—Hersch, F., Money Interational, Harmondsworth, Pelican Books, 1964.

— International Encyclopaedia of Social Sciences, Vol. 3, 1968.

— Lane, R.E. and Sears, D. O. Public Opinion, New Delhi, Prentice — Hall, 1965.

— Leach, Edmund, Culture and Communication, London, Cambridge Univ. Press, 1976.

— Lippmann, W. Public Opinion, N.Y., Pelican Books, 1946.

— Mc Quail, D. (ed.), Sociology of Mass Communications, Harmondsworth, Penguin Books, 1972.

— Michels, R. Political Parties, A Sociological Study of the Oligarchical Tendencies of Modern Democracy, N. Y., The Free Press, 1962.

— Porter, L.W. and Roberts, K.H., (ed), Communication in Organizations, Harmondsworth, Penguin Books, 1977.

— Roberts, G.K., A Dictionary of Political Analysis, London, Longman, 1971.

— Ruben, B., and Budd, R.W., Human Communication Handbook, New Jersey, Hayden Book Co., 1975.

— Schacht, R. Alienation, N.Y., Anchor Books, 1970.

— Southworth, J.V., The Story of the World, N.Y. Pocket Books, 1954.
— Strouse, J.C., The Mass Media, Public Opinion, and Public policy Analysis, U.S.A. 1965.
— Teheranian, M. and Others, (ed) . Communications Policy for National Development, London, Routledge & Kegan Paul, 1977.
— Varma, V.P. Political Philosophy, India: Agra, 1970.
—Wells, H.G.A Short History of the World, Harmondsworth, Pelican Books, 1956.
— Wilson, David, The Communicators and Society, London, Pergamon Press, 1968.

فهـــرس


Bibliotheca Alexandrina
02272772